غاية المقصود بالرحلة مع سيدي محمود

تأليف العلامة الحاج أحمد سكيرج

تحقيق ذ. محمد الراضي كنون

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

نحمدك يا من لا جميل إلا جميله، ولا منة لأحد سواه، فكان هو المتفضل على عبده، وهو وكيله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والصلاة والسلام على من جعله الله واسطة في كل نعمة، فكان بين الخلائق عين الرحمة.

لولاه ما خلق المولى خلائقه ولا أتته بحال منه نعماه

وعلى آله أهل الكمال، وأصحابه أولي الجمال والجلال، وعلى التابعين لهم بإحسان، ما تعاقب الملوان، مدى الأزمان، ورضي الله عنه شيخنا معدن الفضل والجود، وبحر السر الساري في الوجود، القطب الرباني، خاتم الأولياء، خليفة ختم الأنبياء، سيدنا ومولانا أحمد التجاني.

من نوره عم الوجود فأشرقت بسناه كل دجنة وظـــــلام

وغدا بإرث الهاشمي محمـد فردا تسامى فوق كل مقام

ورضي الله عن أصحابه وأحبابه، وكل من تعلق بأذياله، أو تمرغ بأعتابه، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا في زمرته، ويمنحنا بكامل عطفته، وأن يقبل علينا، على أي حال كنا، وأن يسبل علينا ستره الجميل، ويمدنا بسر من أسراره، فنكون من الذين ظفروا بربح الدنيا والأخرى، ونالوا أجرا لم يرى مثله من العمل الصالح ذخرا، طالبين من المولى جل اسمه وجلت قدرته، أن يحف برداء الحفظ والسلامة، ويمد بموائد الإكرام والكرامة، حضرة من أسمى الله مقامه، ونشر في أفق السعادة أعلامه، حفيد سيدنا، وارث سره، مجمع شتات الفضل والجود، من بين الوجود، برزخ بحري العلم والولاية، من فاق سواه في البداية، من فضله بين الورى مشهود، سيدنا ومولانا محمود(1)، بن سيدنا ومولانا البشير بن سيدنا ومولانا الحبيب بن سيدنا ومولانا أحمد التجاني، سقانا الله وجميع المحبين منهم بأعظم الأواني، وهو على ذلك قدير، وبالإجابة جدير، وبعد : فيقول العبد الذي لا زال على فضل ربه يعرج، أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، غفر الله ذنبه، وستر عيبه، مع أحبابه وإخوانه، ورفقائه وأعوانه.

(1) البركة الشريف سيدي محمود بن سيدي محمد البشير بن سيدي محمد الحبيب بن الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله تعالى عنه، ولد بعين ماضي عام 1297هـ، وتوفي بالأغواط في 14 محرم الحرام عام 1353هـ، وكان عمره عند وفاته 56 سنة، ونقل من الغد إلى عين ماضي حيث دفن داخل ضريح جده سيدي محمد الحبيب رضي الله عنه، انظر ترجمته في قدم الرسوخ، للعلامة سكيرج رقم الترجمة 56، وفي نيل المراد للعلامة الحجوجي ج 1 ص 90.

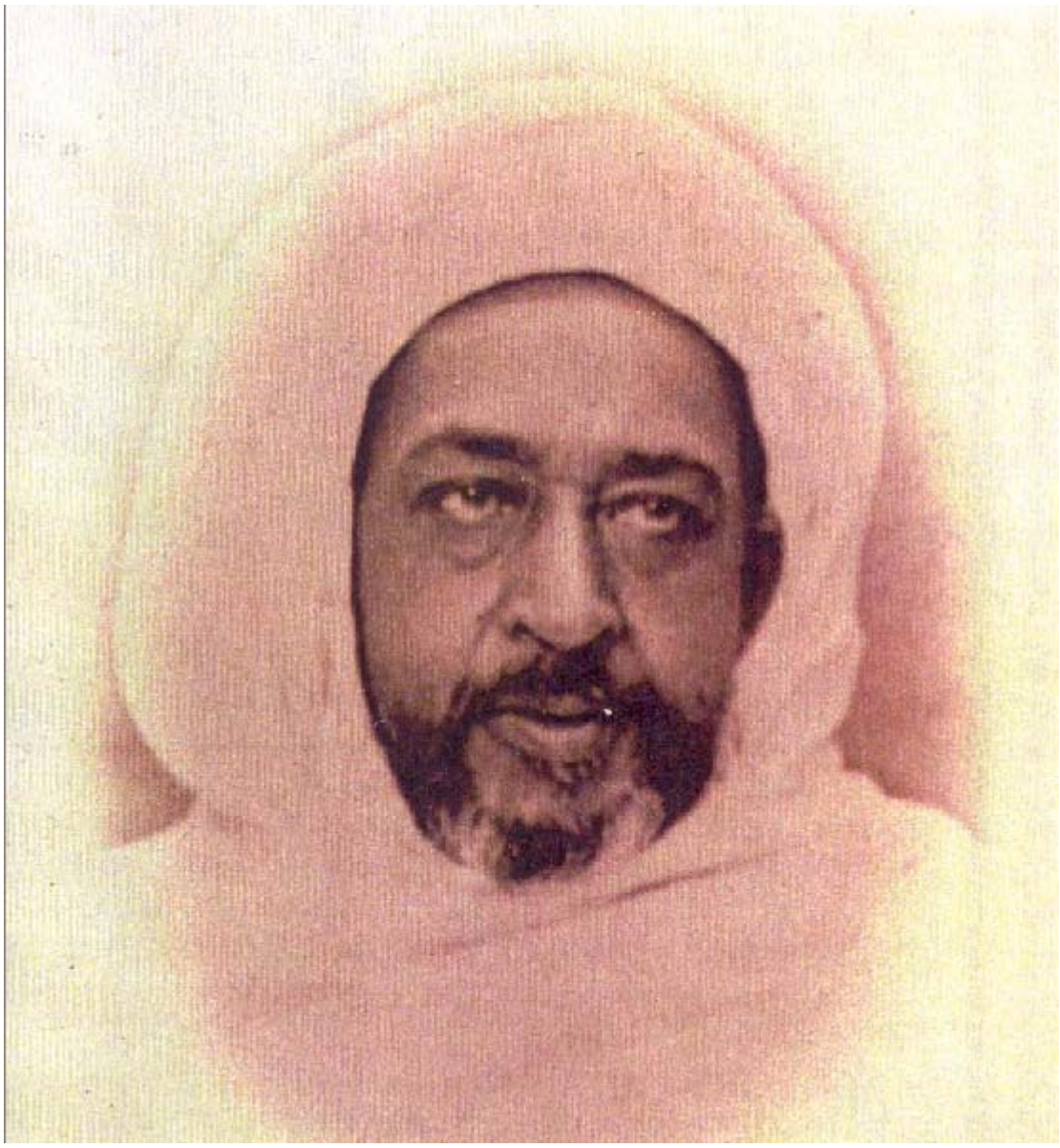

صورة للشريف البركة سيدي محمود نجل سيدي محمد البشير بن سيدي محمد الحبيب بن القطب الرباني الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله تعالى عنه

بمهجته، شاكرين لرفيقه الأسعد، الراقي للمقام الأصعد، خديم سيدنا وخديم أولاده، من فضله بين الخلائق ظاهر وبادي، حبيبنا وصفينا، ورفيع المكانة من قلوبنا، سيدنا الحاج محمد دادي، فقد أتانا بهذه الذخيرة التي لم يأتنا بها غيره، من حيث أنه عمنا بسببها خيره.

ولو أننا قمنا بشكر جنابـــه على ما لنا أسداه لم نوفه شكرا
أتانا بمحمود المساعي وإنه حميد خصال دام في أفقه بـدرا

ذكر قدوم سيدنا محمود للحضرة الفاسية(1)

وكان قدومه لهذه الحضرة الفاسية في يوم السبت 17 شعبان عام 1329هـ، فازدهت فاس بقدومه ووصوله، وبلغ كل واحد من أهل الفضل من سكانها بطلبه وسوله، فكانت هذه الأيام التي قضاها في هذه الحضرة مواسم خيرات، لم تمضي مثلها منذ حياة جده سيدنا قطب الأقطاب إلى هذه الأوقات، فكانت الناس ترد لزيارته أفواجا أفواجا، وسلكوا منها سبلا فجابا، فيعود كل واحد منهم قرير العين، ظافرا بالمقصود من غير مين، وقد كنت استعملت صباح يوم قدومه بزاوية سيدنا رضي الله عنه حين كنا ننتظر دخوله بها، واستحضرته داخلا للضريح الشريف، فقلت مخاطبا سيدنا رضي الله عنه هذين البيتين :

أتيت بسبطك مستشفعـا وها هو قدمته للشفاعـــــة
لتشفع لي عند ربي في بلوغ الأماني ونيل الشفاعة

وقلت هذين البيتين أيضا في تلك الساعة :

يا رب بالقطب التجاني الرضى وبأصله وبنسله الأطهـــــار
كن لي وللأحباب في الدنيا وفي الأخرى منيلا سائر الأوطار

ذكر قصيدتين في الترحيب بقدوم سيدنا محمود
وقد كنت هيأت قصيدتين قبل دخوله بيومين، أنشدهما عشية اليوم الثاني من الدخول صاحب السماع المطرب، والصوت اللذيذ المعجب، الشريف سيدي علال المنصوري، أحد مسمعي الزاوية، نذكرهما هنا بمناسبة الموضوع، نص الأولى :

(1) يوافق التاريخ الهجري المذكور لقدوم سيدنا محمود لمدينة فاس شهر أكتوبر 1911م، وكان المغرب يعيش في تلك الفترة ظروفا قاسية على الكثير من الأصعدة، خاصة بعد انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء بين القوى الأوربية المتنافسة على المغرب، وهما وطيس النزاع بين المغرب وفرنسا التي كانت أطماعها الاستعمارية تتزايد يوما عن يوم في بسط سيطرتها على ربوع المملكة، وعرفت هذه السنة أهوالا كبيرة، ووقائع دامية شهيرة، كمقاومة الدار البيضاء ووجدة والعرائش وغيرها.

أخلاي هذا اليوم يوم سعيـــــــــد ... يحق لنا فيه الهناء المزيـــــد
ولم لا وفيه قد أتى لبـلادنـــــــا ... حميد فعال من علاه يـزيـــد
سليل التجاني الختم حامي مريـــــده ... ومانحه بين الورى ما يـريـــد
متوج من تيجانه تاجـه الـــــــذي ... تنظم فيه در سر نضـيـــــد
فأصبح في أولي المراتب سـيـــــدا ... له طأطأت(2) أهل العلا والعبيد
فأعظم بمحمود سمي مقامـــــــه ... بأوج العلا بين الأنام مـجيـــد
يكاد له القطب التجاني يقوم مـــــن ... ضريح له لما أتـى يستعـيـــد
أتى يستفيد بالزيارة منـــه مـــــا ... به حصنه في الأولياء مشيد(3)
ولولا فإن الناس يفتنـون مـــــن ... خوارق عادات لـقام يـفيـــد
يميد دلالا في بساط احتفالـــــــه ... له بالذي منه عداه تـبـيـــد(4)
ولا عجب إن قام من قبـره لـــــه ... ففي قبره لا شك حـي شهيـــد
وهذا ابنه قد جاءه لـيـــــــزوره ... ومنـه لـه نـور عليـه مـديـد(5)
يمد له من سره مددا ســـــــرى ... لمن عنه في الإمداد ليس يحيـد
وعم بأسرار تسر محـبـــــــه ... وخص بسر الحق عنه المريـد
فيصبح ميمون الطليعة عـنـــــده ... يلقن وردا لم يحزه طـريـــد
ولكنه ما حازه غيـــر مجتـبـــي ... وما ناله إلا مريد رشيـــد
فطوبى لمن أضحـى به متمسكـا ... فيغدو بحفظ الله وهـو سـعيـد
فيا ابن إمام الأوليـــاء وختمهـــم ... ومن سره في العالمين وحيـد
ليهنك يا مولاي منـــه زيـــارة ... بها يومنا المشهود في الناس عيد
ويهنك طول الدهر منـه وراثـــة ... بها أنت محمود وأنت حمـيـد
فلا زلت يا مولاي ملحوظ جانـــب ... وأنت لنا مولى ونحن عبـيـد
وتمنحنا منك الدعـــاء بعطـفـــة ... بها نورك المقصود منا نـريـد
فنحظى بما فيه رضا الله دائمـــا ... ونحرز في الدارين خيرا يزيـد

ونص الثانية

أتى السرور الذي كنا نراقبـــه ... أهلا بمن هو بين الناس جالبـه
فأذهب الغمة(6) التي بها ذهلـت ... عقولنا والحبيب زال حاجبـه
فلا ترى اليوم إلا فارحا جذلا(7) ... من كل ورد له صفت مشاربـه
وقد أقامت له الأفراح نوبتـهـا ... والدين بين الورى ضاءت مذاهبه
واستبشر الكل بالنجاح حين أتـى ... لغربنا ابن بشير عـز جانـبـه

---

(2) طأطأت : خضعت رأسها.
(3) مشيد : مرفوع
(4) تبيد : تهلك
(5) مديد : طويل
(6) الغمة : الحزن والكرب
(7) جذلا : فرحا كثيرا

نجل التجاني الذي تجاه روضتـــه ... اتجاهـه فأتت له مواهـبـــــــه
فكان محمود سعي والرباح لـــــه ... في قصده وبه تقضى مطالـبـــــه
يكاد لما أتاه أن يقـــوم لـــــــه ... من أجل إجلاله لمـــا يقـاربـــــه
أعظم به سيدا تعنو الرؤوس لـــه ... مهابة وبه يجل صاحـبـــــــه
يرقى مراقي عز من يبر بـــــــه ... ومن يعانده المولى يعاقبـــــــه
ومن له قد عنا(8) يحظى بكل هنـا ... ومن يحاربه المولى يحاربـــــه
فإنه الجامع لكـــل مفخـــــــرة ... وكل حمد ومدح فهو كاسـبـــــه
فمنذ شب كبدر وهو في شـــــرف ... تزاحم الرتبة العليا منـاكـبـــه(9)
حتى تجلى على كرسي جلالـتـــه ... بين الورى وعلت فيهم مراتبـــه
لولا تنزله من بينـهـــم أدبـــــا ... ما كان يقدر أن يراد طالـبـــــه
ألقى الجمال عليه والبها حلـــــلا ... وبالجلالة قد حفت مراكـبـــــه
بدا بأوج العلا بدرا تضيء بـــــه ... في الدين من كل منهاج غياهبه(10)
يا ابن الذي لعلاه الأولياء عنـــت ... ولا ترى رتبة منهم تـقـاربـــــه
فكان منفردا في رتبة صعـــــدت ... في أوج مجد ولا ينهد(11) جانـبـــه
له كمال ظهور فـــي ولايتـــــه ... والفوز أضحى يرى لمن يصاحبـه
من نوره غدت الأنوار مشرقـــة ... وقد أحاطت بأسرار مناقـبـــــه
فلا تعد لمن يريد يحصـرهـــــا ... وكيف تحصر في الدنيا عجائبـــه
أنت ابنه وحباك منه نظرتـــــه ... فأنت وارثـــه حقـــا ونائبـــــه
لا شك أن المحب أنت مانـحـــــه ... سرا وكل حسود أنـت سالـبـــــه
ورثت لما أتيت منه سر هـــــدى ... ما ناله قبلك امـرؤ يراقـبـــــه
فأنت كهف أمان جئت تأمنـنـــــا ... من الزمان الذي عمت مصائبـــه
لو لم تكن أنت محمودا لما سعـدت ... فاس بفتح قريب أنت جالـبـــــه
فدم وقدرك محفوظ وفعلك محمـود ... ووردك قد لذت مشـــاربـــــه
والدهر يخدمكم والسعد يلحظكـــم ... وكل من جاءكم تنفى معايبـــــه
ونسأل الله أن يحف(12) مجمعنـــا ... بجاهكم بقبول عـز جـانـبـــــه
وأن يديم علينا ستركم فـنـــــرى ... كمال فضلكم تعلـو مـراتـبـــــه

---

(8) عنا : خضع
(9) مناكبه : مجمع رأس الكتف
(10) غياهبه : جمع غيهب وهو الظلام الشديد السواد
(11) ينهد : ينكسر وينحط
(12) يحف : يحدق

قصيدة الأديب السيد الحسن بنونة
في تهنئة سيدنا محمود بالقدوم

وقد استعمل الأديب الأريب، السيد الحسن بنونة قصيدة تائية في تهنئة سيدنا محمود رضي الله عنه بالقدوم، وتهنئة الإخوان بالنظر لوجهه الشريف، نذكر منها بعض ما اتزن لمناسبة الموضوع، يقول في مطلعها :

إلى بابكم يأوي الفقير أسادتـــــي ومنكم ينال المرء كل سعـــادة
فأنتم كرام لا يخيب نزيلكـــــــم وأنتم ذوو الإحسان أهل سيادة
وأنتم شموس الكون أنجم الإهتدا بنور هداكم يهتدى من جهالــة
أيا آل بيت المصطفى جل ذكركم منحتم من المنان كل كرامـــة

ثم قال :

على ودكم حضت أحاديـث جدكم وفي حبكم فوز بكل سـعـــــــادة
محبتكم آل النبي غنـيـمـــــــة وخدمتكم آل النبي خير طـــاعـــة
موالاتكم آل النبي كـرامـــــــة من الخزي والخسران يوم القيامـــة
فيا سعد من أضحى خديم جنابكم يحوز بفضل الله أعلى مكـانـــــة
ولا سيما من رام خدمة من عـلا على كل ذي قدر بمحض عنـايـــة
ممد جميع العارفين ومن رقـــى مقاما رفيعا لا يـحـد بـغـايـــــة
وخاتم رتب الأوليا فهو خـاتـــم لأعلى مقام لا لختـم الـولايـــة
وذلك فضل الله يؤتيه من يشـــا برغم على أنف لأهل الـغـوايـــة
ملاذي وأستاذي التجاني ابن سالم فذاك أبو العباس كهف السماحـــة

إلى أن تخلص لمدح سيدنا محمود وقال :

به الكون يسمو والعوالم تزدهي به تفخر الأيام في كل ساعـــــة
تلقى له الأصحاب يوم قدومـه فما مثله عيد لأهل العنـايـــــــة
ترائ لنا يوم اللقاء كـأنـــــه هلال له نور عظيم الإضـــــاءة
له طلعة غر تلألأ نـورهـــا تفوق على شمس الضحى بوضاءة

إلى أن قال :

أسيدنا المحمود حق لك الهنـــــا توالت لك الأفراح يا نجل سادة
جمعت صفات الحسن خلقا وخلقة بحلم وإحسان وحسن بشاشـــة

إلى آخرها وهي طويلة، وقد انتقيت بعض ما هو موزون منها، ولصاحبها الباع العريض في عمل القصائد الملحونة، وفيه نجابة تامة، غير أنه لو أتم ذلك بقراءة علم العروض لكان جامعا لفن الموزون والملحون، ونسأل الله لنا وله بجاه هذا السيد العظيم المقدار، أن يفتح لنا باب الفتح الموصل لذخائر الأسرار.

تزوج سيدنا محمود بأخت رفيقه الحاج محمد دادي

ثم إن سيدنا محمودا رضي الله عنه بعد استراحته استعمل العرس بالوردة المكنونة، الياقوتة المصونة، سليلة العلم والأدب، الحسيبة الأصل والنسب، الفاضلة المجيدة، مليكة أقرانها كالدرة الفريدة، أخت المحب الصادق، والرفيق الموافق، التاجر الأبر، سيدي الحاج محمد دادي، وقد عقدنا الصداق عليها مع الفقيه الوجيه السيد الحسن مزور(13)، الذاهب للحج في هذه السنة المباركة، وقد أنعم الله على المحب الصادق سيدي الحاج محمد دادي، بأن كمل الله مقصوده بالمصاهرة مع سيدنا محمود، وذلك سعي محمود، وهذا السيد له أدب فائق، وخلق رائق، يعاشر الناس كلا بما يليق به، وما خالط أحدا إلا وأحبه، وكفاك في مزيته التي اختص بها عن غيره، وهي إكرام أهل القطر المغربي عموما، والإخوان التجانيين خصوصا، بإتيانه بسيدنا ومولانا محمود، سبط سيدنا قطب الوجود، وهو أول قادم من أولاد سيدنا رضي الله عنهم لهذا القطر، منذ سفرهم منه بعد وفاة سيدنا رضي الله عنه.

ولا شك أنه من خاصة أحباء سيدنا رضي الله عنه، وأحباء أولاده، حتى اختاره سيدنا محمود رضي الله عنه رفيقا له دون غيره من سائر الإخوان، لما انطوى فيه من صادق الحب والمودة التامة لهذا الجناب، طبق ما هو معروف لدى العموم، من إخوان الوطن وغيرهم، وقد اختاره لرفقته معه والده المقدس، صاحب المقام الأنفس، خليفة جده التجاني في إرشاد العباد، والوارث سره من بين أهل الرشاد، العارف الكبير، سيدنا ومولانا محمد البشير، حسبما وصفه بذلك في الكتاب الموجه لفقراء زاوية فاس، المؤرخ قبل وفاته بنحو تسعة أيام، معلما فيه بقدومه لهذا القطر، وموصيا على البرور بابنه المذكور، ومودعا لهم، كأنه يخبرهم بانتقاله لدار البقاء، ولم يصل هذا الكتاب حتى ورد الخبر بوفاته رضي الله عنه وأرضاه. ونصه :

---

(13) العلامة التقيه المقدم سيدي الحسن بن عمر بن الحاج إدريس مزور، ولد بمدينة فاس في شهر جمادى الثانية عام 1286هـ، وبعد حفظه للقرآن الكريم دخل لجامعة القرويين عام 1302هـ، فأخذ عن مجموعة من أكابر العلماء، في مقدمتهم العلامة الشريف سيدي محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، والعلامة سيدي محمد فتحا بن قاسم القادري، والتقيه سيدي محمد بن التهامي الوزاني، والعلامة مولاي عبد المالك الضرير العلوي، والعلامة سيدي التهامي كنون وغيرهم.
وتلقد رحمه الله بعهد الطريقة الأحمدية التجانية على يد التقيه سيدي محمد بن محمد بن عبد السلام كنون، وهو الذي أجازه فيها أولا، ثم أجازه فيها بعد ذلك العلامة الولي الصالح سيدي العربي بن إدريس العلمي اللحياني الموساوي.
وله رحمه الله مواقف وطنية كبيرة، منها أنه كان من جملة الموقعين على عريضة طلب الاستقلال عام 1944م، وعند حلول المغرب على استقلاله عين رئيسا للمجلس العلمي لجامعة القرويين، لكنه توفي بعد ذلك بقليل ليلة الخميس فاتح شوال عام 1376هـ، وصلي عليه بعد صلاة العصر من يوم الخميس بالمدرسة العنانية الشهيرة بالمتوكلية، ودفن بزاوية سيدي المكتفي العلوي بدرب مولاي عبد المالك بالطالعة الكبرى بفاس.
ومن مخطوطاته رحمه الله : السيوف المهندة السنان لمستعمل التبرك من الإخوان، فقها وطبا، والحلل السندسية على البردة البوصيرية، في جزءين، وحاشية على تأليف الشيخ الطيب بن كيران في حرف لو، وشرح منظومة الشيخ الطيب بن كيران في المجاز والاستعارة، وتقييد في النهي عن إغلاق المتاجر يوم الجمعة إثر وقوع الندا، وفهرسة جامعة لشيوخه سماها : إتحاف الأعيان بأسانيد العرفان، ومشتمل السقيم بمولد النبي الكريم، وغير ذلك من الختمات والتقاييد الكثيرة، انظر ترجمته في فتح الملك العلام للتقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 130، وفي دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سودة المري ص 192 رقم الترجمة 1149، وفي إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين لابن الحاج ص 100، وفي الأعلام للزركلي ج 2 ص 209.

نص الكتاب الذي وجهه سيدنا محمد البشير للفقراء التجانيين بفاس

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين، من العبد الفقير الفاني، البشير(14) بن محمد الحبيب بن أحمد التجاني، الراجي من ربه بلوغ الأماني، في الدنيا ودار التهاني، إلى كافة الفقراء والإخوان من أهل فاس، الحاملين لواء طريقتنا الأحمدية، كل واحد باسمه وعينه، خصوصا منهم المقدم البركة سيدي الطيب السفياني(15)، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وخيراته وإحسانه.

أما بعد : فالذي ننبه شريف علمكم أني أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون(16) يفعل في ملكه ما يشاء، هذا والذي أوصيكم به هو تقوى الله في السر والعلانية، وتصفية قلوبكم من مخالفة أمره، والتعويل عليه بقلبكم، والرضا بحكمه، والصبر لمجاري الأقدار في جميع أحوالكم، وأوصيكم بما أوصى الله به، قال جل من قائل : "ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا(17) الله" وقال تعالى : "واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا"(18) وقال سبحانه : "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا"(19) وقد أنزل الله في كتابه العزيز نيفا وسبعين آية من آيات الصبر، ولو لم ينزل سوى قوله عز وجل : "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب"(20)، لكفى. واعلموا أن هذا الزمن كثرت فيه المصائب والمحن، نسأل الله اللطف فيما جرت به المقادير، وذلك لما طبعت عليه النفوس من الإدبار عن الله وعن أمره ونهيه، وبسبب ذلك هاج بحر الأهوال والفتن، وطما بحر المصائب والمحن، وغرق الناس فيه كل الغرق، نسأل الله تعالى أن يصحبنا

---

(14) سيدي محمد البشير بن سيدي محمد الحبيب بن الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله تعالى عنه، كان مقيما بعين ماضي مقر أسلافه الكرام، توفي ليلة السبK 3 جمادă الثانية عام 1329هـ، بكردان، ونقل لعين ماضي حيث دفن بjا بجانب قبر والده سيدي محمد الحبيب.

(15) سبق التعريف به في ج 1 ص 42 من ها المجموY.

(16) سورا يس، الآية 82.

(17) سورا النسا، الآية 130.

(18) سورا ل عمران، الآية 103

(19) سورا الأنفال الآية 47.

(20) سورا الزمر، الآية 11.

وإياكم باللطف الخاص، المخصوص به أهل هذه الطريقة الأحمدية، وأن يقبل علينا وعليكم بمحض فضله ورضاه، وأن يمنحنا وإياكم وقفة بين يديه تضاهي وقفة أكابر الصديقين، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

وقد سمعنا ما كدركم من المزعجات التي تراكمت على ربوعكم، بسبب ما تسعرت به نيران الثائرين، فساءنا ما أزعجكم، وما وسعنا إلا التضرع لله عز وجل أن يرفع عنكم جميع الشرور، وأن يهدن روعكم، فترانا مشفقين عليكم، داعين الله لكم أن يؤيدكم بنصره المبين، وأن يحول بينكم وبين من يروم إذايتكم، وقد قال عليه الصلاة والسلام (لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا)(21) الحديث. أما قوله (ﷺ) (لا تتمنوا لقاء العدو) فقد ورد في ميادين الجهاد في قتال الكفار، ففي هذه الأزمنة تقلب في الصفح عن شرور الناس، وعلى العبد أن يسأل الله العافية من تحريك شر الناس وفتنتهم، فإن تحرك عليه من غير سبب فالوجه الأعلى الذي تقتضيه رسوم العلم مقابلتهم بالإحسان عن إساءتهم، فإن لم يقدر فبالصفح والعفو عنهم إطفاء لنيران الفتنة، فإن لم يقدر فبالصبر لثبوت مجاري الأقدار، ونسأل الله لكافتكم وخاصتكم أن يفيض عليكم بحور العناية، والرضا منه سبحانه على طبق ما منح به أكابر العارفين من عباده، من أهل الخصوصية، حتى تكون عنده جميع مساويكم ممحوة غير مؤاخذين بها، وجميع ذنوبكم وآثار سهوكم مقابلة بالصفح والتجاوز غير مؤاخذين بها، ونسأله جلت عظمته أن يكتبكم جميعا في ديوان أهل السعادة الذي ما كتب فيه إلا أكابر أوليائه، وأهل خصوصيته، بوجه لا يمكن فيه لا المحو ولا التبديل، وأن يكحل بصائركم بنوره الذي رشه على الأرواح في الأزل، وأن ينظر فيكم بعين رحمته التي من نظر إليه بها صرف عنه مكاره الدنيا والآخرة.

هذا وقد اقتضت الحكمة القديمة الأزلية أن يقدم عليكم ولدنا محمود، إن قدر الله، ليزور ضريح جدنا القطب المكتوم، ويزور بلادكم المطهرة، التي هي بالعلوم والأسرار والمعارف منورة، فنوصيكم بما يعود عليكم نفعه العميم، اقبلوه ضيف إكرام، أخذ الله بيدكم، فما تنظرون فيه، إلا أن الله هو الذي سخره لكم، كي يجعل على يديه فرجكم، فأكرموا مثواه، واعتقدوا أن إحسانكم له في الحقيقة هو إحسانكم لنا، وإحسانكم لنا هو إحسانكم لشيخكم، لأنه عزيز علينا، وما سمحت نفسنا به إلا لحكمة اقتضاها علام الغيوب، ترانا أمرناه أن ينظر فيكم بعين الوالد لولده، وبيده كتاب بمجرد وصوله يدفعه للمقدم، وعليه فإنه يصحبه حبيبنا وصديقنا وصفينا. المحسوب والمنسوب علينا، السيد الحاج محمد دادي، وأمرناه أن يراقبه في سفره، ولا يفارقه حتى يرجع معه بالسلامة، فامتثل لأمرنا جزاه الله عنا خيرا.

ولا شك أنه داخل في الضمان بسبب إحسانه السابق، وجميله الفائق، جزاه الله عنا خيرا، وأن يعطيه على قدر كرمه مع اللطف والسلامة، وأمرناه هو المتصرف والناظر عليه، لما نعلم من صدق محبته في جانبنا، ولا شك أنه سبقت له العناية الربانية، فعليكم بتعظيمه واحترامه، لأن منزلته عندنا لا يدركها أحد في هذا الزمان، وهو بذلك جدير، لأننا رأينا منه لا شيء له معنا، ولو

(21) انظر صحيح الإمام البخاري كتاب الجهاد رقم الحديث 2966.

نفسه، فقد جاد بها، فالله يقبل عليه بمحض فضله ورضاه، ولا زال الدعاء لكم نصب العين، وأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، من الداعي لكم بخير الدارين، سيدنا المذكور حوله، بتاريخ فاتح جمادى الثانية 1329هـ.

قصيدة للمؤلف رحمه الله يرثي بها سيدنا البشير

وقد كنت رثيته بهذه القصيدة وأنا وقتئذ بثغر طنجة ونصها :

علام دموع العين تذرفها ذرفـــــــا ... ولم تك معتادا على جزع رجـفـــــا
وفي اليوم قد أصبحت مضطرب الحشا ... ومزقت ثوب الصبر من حيث لا يرفى(22)
أمن سوء أحوال الزمـان وفتكـــــه ... بأهل الهدى والدين إن سلكوا العرفـا
وصار يرى للمهتدين معـانـــــدا ... وللمعتدين المسرفين غدا إلـفـــــا
فساد به أهل الفساد علـــــى ذوي ... صلاح ومنه واحد يزن الألـفـــــا
وضاقت بأهل الخير فيه صدورهـــم ... بما شاهدوه من بلاء بـهـم حـفـــا
زمان يسوء المهتدي ويـسـوقـــــه ... إلى يد من يوليه من مكره حتفـــا
زمان وما أدراك ما زمـــن بـــــه ... يعد أخو الإدراك في قومه جلـفـــا(23)
زمان به أضحى المنافق مـحـــرزا ... مناه وذو الإيمان حازبه الـقـذفـــا
فإن دام هذا الحال والحـال زائـــد ... فلا شك أن الدين آثاره تـعـفـــــى
إلى الله أشكو من زمان تكاثـــرت ... بأهوائه الأهوال من حيث لا تطفـــى
ويذهب فيه الصالحون جماعـــــة ... فأخرى إلى الأخرى إلى حضرة الزلفى
نهنيهم بالموت أم نكثر الـبـكـــا ... عليهم وفينا خلفوا بعدهم خـلـفـــا
فعم البلا منا الجميع بفقـد مـــن ... مضى نسأل الله اللطيف بنا اللطـفـا
وإنا لنبكيهم وحق لـنـا الـبـكـــا ... عليهم وأيدي الموت تقطفهم قطفـا
فلو كان يرضى أن نكون لهم فـــدا ... لكنا فديناهم ولا نطلب استـعـفـــا(24)
ولكنهم جدوا المسير ليلـحـقـــوا ... بمن قد مضى منهم وحملهم خـفـا
وقد ثقلت أحمالنا بعد بـعـدهـــم ... وقد سقطت والدهر ينسفنا(25) نـسـفـا
لنبك علينا ثم نـبـك عـلـيـهـــم ... ونبكي ونستبكي إذا دمعنا جـفـــا
أأحبابنا والدهر يضحـك للعـــدا ... ويشمتهم فينا وأنفسهم تـشـفـــا
وقد ذهبت ساداتنا وسراتـنـــا(26) ... وصرنا سكارى بل أسارى نرى الخسفا
لقد خاننا فيهم زمان يسـومـنـــا ... بسوء عذاب من فراقهم عـنـفـــا
ولا يطمئن الصدر منا بسيـــــد ... بدا منهم إلا ويخطفه خـطـفـــا
فنشكو إلى المولى مكايده بـنـــا ... وما قد لقينا من مصاب بنا احـتـفـــا

---

(22) يرفى : رفأ الثوب أي لأم خرقه وخاطه.
(23) جلفا : غليضا جافيا.
(24) استعفا : استبرأ
(25) ينسفنا : يدكنا ويقلعنا
(26) سراتنا : أفاضلنا

أصبنا بفقد الصالحين ولم يـــــــزل يحوزهم الدهر الخئون وما استوفـــى
فقدنا رسول الله من قبل شيخنـــــا ومن بعد هذا قد فقدنا ابنه الأوفـــــى
فكان لنا فقد الثلاثة عـبـــــــرة بها عبرات العين قد ذرفـــت ذرفـــا
فأما رسول الله لو دام لانجلـــــت عموما غموم لا أطيق لها وصـفـــا
وفي موته في فقد من مات أســـوة نسلي بها قلبا بحزن قـد الـتـفـــــا
وفي فقدنا الشيخ التجاني مصيبـــة وأي مصاب قد رجفنا بـــه رجـفـــا
وكنا بمولانا البشير سليلـــــــه نسلي نفوسا نارها بعد لا تطـفـــــى
فكان وحق الله قطب زمانـــــــه وأنواره بين العوالم لا تـخـفـــــــى
وكنا نباهي في الزمان به علـــــى عداة به كنا جذعنا لـهـم أنـــفـــــا
لأن العلا أضحت به مستنيـــــرة وليس له في الفضل في عصره أكفـــا(27)
فيا فوز من قد كان منه حوى المنـى ويا سعد من في وجهه متع الطرفـــا
وكنت أمني النفس مـنـــــي أزوره فيا لهف نفسي في الذي فاتها لـهـفـــا
أعللها أني أزور مـقـامـــــــه فأحرز منه القصد والفتح والـعـطـفـــا
وكنت قرير العين طول حياتـــــه أأمل أن ألقاه أستمنح الـزلـــفـــــى
إلى أن رمانا الدهر عن غرة(28) بما به الشمس صارت فيه مكسوفة كسفـــا
فأصبحت الآفاق مظلـمـــــة بـــه وأمست قلوب الناس من أجله غلفـــا
فلست ترى إلا كئيبا وواجـــــدا عليه ولا صبر لدينا ولا إغـــفـــــا
فلله ما أعطى ولـلـــه أخـــــــذه ولله ما أبدى ولله مـا أخـفـــــــى
فنسأله سبحانه أن يـحـــفـــــه برضوانه حتى نقول قد استكفـــــى
ويمنحنا مما حباه كـــــرامـــــة ويولينا من وروده المورد الأصـفـــى(29)

وكانت وفاة سيدنا ومولانا محمد البشير قدس سره بتاريخ ليلة السبت 3 جمادى الثانية في الساعة 11 بكردان(30)، وبمجرد وفاته نقل لعين ماضي، بعدما كان استودعه سيدنا محمود رضي الله عنه، فبلغه نعيه وهو بالجزائر، فرجع لحضور جنازته، فوجده قد دفن بحذاء أبيه سيدنا محمد الحبيب رضي الله عنه بزاوية عين ماضي.

وقد كنت قبل هذا الوقت استعملت قصيدة في مدحه لا بأس بذكرها في هذا المحل ونصها :

(27) أكفا : من الكفء وهو المماثل
(28) عن غرا : عن غفلة
(29) انظر هذه القصيدة في كتاب النفحات الربانية في الأمداح التجانية للعلامة سكيرج ص 100.
(30) كردان : قرية تجاه غيرا بجوار عين ماضي

حر الصبابة في الأحشاء موقـود والصبر من خلدي بالشوق مفقود
لولا انسكاب دموع بالدما مزجت لذاب قلبي الذي بالبين مقـــدود(31)
ترعى النجوم جفوني في مطالعها وما جفاني مدى الأيام تسهيـــد(32)
وكل كل رقيب كاشـــح ورثـــى لحالتي عاذل في اللوم مجهـــود
ما ضرني لوم عذالي إذا سمحت لي بالوصال فتاة جندها الغيـــد(33)
جادت علي بوصل عندما علمـت بأنني عبدها بالحب مصـفـــود(34)
هي الفريدة في حسن كما انفرد المـــولى البشير بفضل فيه مـوجـود
كنز الفضائل مقصود الأفاضل فـي كل المهمات من بالخير مشهـــود
خليفة الختم بل سليل وارثـــه فحبذا والد ونـعـم مـولـــود
سبط التجاني الذي سمت مكانتـــه في المجد وهو لكل الخير معـدود
هو الهمام الذي طابت سريرتـــه بحسن سيرته للدين تـشـيـيـد
قطب العلا كوثر العرفان من نبعت منه المعارف وهو الحوض مورود
شمس الضحى كوكب الأكوان من سطعت دجى الغموم به والشك مطـرود
غوث الخلائق من بفضله شهـدت له الأعادي وهل في الحق ترديـد
غيث الندى العابد الأواه من خضعت له الرقاب وفيه الخير محـشـود(35)
قد استبد(36) ببذل الوفر منـشـرحـا فكان منه لجيش الفقر تـبـديـد
يا سيدي عطفة أرجو أفوز بـهـا دنيا وأخرى فحبل الحب معـقـود
حاشا يخيب الذي قد أم بابـك أن يغدو بلا وطر ودأبك الـجـود
لا زلت كوكب سعد في سماء هدى وكوثرا لنوال السر مـقـصـود(37)

وكنت قلت في مدح سيدنا محمد الحبيب قدس سره هذه الأبيات :

فوادي بالصبابة فيك عـان فداركني فإني فيـك فـان
وقصر من جفاك ولا تزدنـي عذابا ليس يحصله جنـانـي
أما يكفيك ما كابدت فيـه من الشوق الذي فيه امتحـانـي
أما والله ما لسواك ميـلـي يكون سوى لمدح ابن التجانـي
محمد الحبيب أخو المعالـي ومن هو في العلا قطب الزمـان
ومن هو مفرد بين البرايـا تفرد في الكمال برفـع شـان

---

(31) مقدود : مقطوع
(32) تسهيد : الأرق
(33) الغيد : اسم بمعنى النعومة
(34) مجود : مقيد وموثوق
(35) محشود : مجموع
(36) استبد : انفرد
(37) انظر هذه القصيدا في كتاب النفحا الربانية للعلامة سكيرج ص 48 وفي كشف الحجاب لنفس العلامة ص 67.

ومن هو معدن للخير حقـــا ... وليس له يرى في الفضل ثـــان
ومن هو ملجئ في كل خطب ... ومن هو في الورى كهف الأماني
هو القطب الذي دارت عليـه ... دوائر كل خير وامـتـنـــان
هو الغوث الذي تنمى إليـه ... جميع المكرمات بـــلا تـــوان
لقد نال الخلافة من أبـيـــه ... كما حاز التصرف بالـعـيـــان
ونال مكانة في العز تعلـــو ... فصار مقامه أعلـى مكـــان
فإن ناديته في نيل قصـــد ... فإنك منه تحظى بـالأمـــانـــي
إليك بجاهه يارب أدعـــو ... أجرني من زمان قد دهـانـــي
وخذ بيدي واستر لي عيوبـي ... ولا تجعل رجائي في امتهـــان
وجاه المصطفى خير البرايا ... وجاه ذويه أصحاب التـدانـــي
عليه مع الجميع بلا انتهـاء ... صلاة الله تتـــرا كـــل آن(38)

وقد ذكرتها مع ما قبلها في كشف الحجاب عمن تلاقى مع القطب التجاني من الأصحاب، وذكرتهما هنا لمناسبة الموضوع.

وقد كنت وجهت لسيدنا محمود رضي الله عنه قصيدة في مدحه ومدح والده وجده قدس الله أرواحهم، نذكرها في هذا المحل، ونصها :

بمهجتي الشوق للأحبة اتقـــدا ... والصبر مني على مدى النوى(39) فقدا
يا هل ترى زمني يوما يساعدنـــي ... بقربهم فأرى من جملة السعـــدا
خلعت ثوب اصطباري في غرامهم ... وبعده بالنحول قد لبســـت ردا
تركت غيرهم من أجل غيرتهـــم ... حتى بهم قد سلوت الأهل والـولـــدا
جعلت حبهم ذخري ومدحهـــم ... تجرا به اليوم ربحي قد غدا وغـــدا
هم سادتي وأنا في الناس عبدهـــم ... عليهم في أموري صرت مـعـتـمـــدا
قد عظم الله في الوجود قدرهـــم ... حتى غدا مثلهم في الجود مـا وجـدا
وتوجوا في العلا تيجان مكرمـــة ... وفي معالي العلا مقامهم صـعـــدا
كل الورى بكمال فضلهم شـهـــدوا ... حتى العدا قد عدوا لهم به شـهـــدا
من ذا الذي في الأنام لا يقر(40) لهم ... بالفضل قل لي فمن بفضلهم جـحـــدا
من يجحد الشمس يوما وهي طالعة ... أو ينكر النور منها وهو قد شـهـــدا
الله أكبر ما في الـكـون مـثـلـهـم ... بعد النبي وبعد صحـبـــه أبـــــدا
فما أحبهم إلا السعيـــد ومـــا ... في الناس يبغضهم إلا الذي طـــردا
لا أحرم الله نفسي من لقائـهـــم ... قبل الممات عسى بهم أنـال هـــدى
كل الذي لا يرى عليـه طابعهـــم ... فإنه لم يزل رسمـــا بـغـيـــــر أدا

(38) انظر هامش الفايدا في كتاب النتحا الربانية للعلامة سكيرج ص 87.
(39) النوى : البعد
(40) يقر : يعترف

إني بنفسي أفديهم وأسألهم قبول نفسي لهم في العالمين فردا
يا قوم إن تسألوا عن سادتي فهم من فضلهم في جميع الكائنات بدا
من نسل شيخي التجاني من له اشتهرت فضائل كملت وبالعلا انفردا
فهو الولي الذي أوراده عظمت مريدها في ضمانة النبي غدا
طريقة من رسول الله جاء بها من سار فيها ينال في الورى رشدا
يا فوز من صار من أصحابه الفضلا أو من موارده التي صفت وردا
قد كان للأوليا ختما به فتحت باب النجاة التي من أمها سعدا
يا قوم إن التجاني حل مرتبة في المجد لستم ترون مثله أحدا
أولاده في الورى أحكامهم نفدت وفضلهم للذي يحصيه ما نفدا
لو أن كل الورى عدوا مناقبهم لم يبلغوا حصر ما قد أحرزوا أبدا
فكلهم سادة فاقوا الورى شرفا يا حبذا والد ونعم ما ولدا
إذا البشير أتى من الحبيب فقد أتى بمحمود سعي في الورى حمدا
أما محمد الحبيب سيدنا فكان في حومة الوغى(41) يرى أسدا
ونال أعلى مقام في الولاية في زمانه وغدا للأوليا سندا
وبعده جاءنا البشير سيدنا قطب الزمان الذي ما فضله جحدا
خليفة المصطفى ونجل وارثه ومن بسر التجاني صار منفردا
أعظم به سيدا الله صرفه في الكون رغما لأنف من له حسدا
إذا اعتقدنا بأن الله شرفه على سواه فلا تخشى الذي انتقدا
ونجله المرتقى المحمود سيدنا محمود في الناس كل الخير منه بدا
قد جل مقداره في العالمين علا وفضله قد جلا مذ صار بحر ندى
وحل مرتبة لمجدها خضعت أسد الشرى ولها رأس العلا سجدا
والله توجه تاج الخلافة في زماننا وغدا غوثا لكل ندا
أضاء نهج الهدى للمقتدين به وكل من أمه ينال منه هدى
قد شب في طاعة المولى وخدمته ولم يزل في اتباع الحق مجتهدا
يرى حريصا على فعل الجميل وفي دنياه بين الورى لله قد زهدا
لا زال سيدنا بالحفظ مهتديا وهاديا لطريق أهلها سعدا
لا زال محمود سعي راقيا رتبا ترقى به في العلا أوج العلا أبدا
ونسأل الله أن يزيده شرفا حتى يرى في الورى بالفضل منفردا
مولاي مولاي يا محمود يا أملي يا من يجود لمن إليه مد يدا
إني مددت يدي في الناس مفتقرا إليك خذ بيدي في دفع كل ردى
فانظر إلي بعطفة أنال بها من بحركم سادتي بين الورى مددا
ولتسألوا الله لي بجاه جدكم إصلاح نفسي فقلبي بالهوى فسدا
ولتعطفوا سادتي على عبيدكم ولترحموا من على حماكم استندا

(41) الوغى : الحرب

فأنتم سادتي محل مـكـــرمـــــــة وحاشاكم أن يخيب من له قـصـــــــدا
عليكم وعلى من انتمى لـكـــــــم أزكى التحية ما حاد حـــــدا وشـــــدا(42)

وقد كنت وجهت لسيدنا محمود رضي الله عنه هذه القصيدة قبل هذا الإبان بزمان، فحلت عنده محل القبول، ودعا لنا ببلوغ السول، وقد كانت سبب معرفته بي، حتى أنه لما قرأها ودخل لمحله، وخطرت القصيدة بباله، إلا أنه نسي ناظمها ما اسمه، فسمع قائلا في أذنه يقول له : ناظمها سكيرج، حسبما أخبرني بذلك من كان وجهها له على يده، ففرحت بذلك أتم فرح، وقلت لنفسي مبشرا لها بكشف الحرج، متمثلا بقول بعض الأكابر ممن رقى أعلى الدرج :

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثم على ما فيك من عوج

ثم إن المولى جل اسمه، أنعم علينا بقدومه لهذا القطر السعيد، وكان يوم قدومه يوم عيد، فرأيناه والحمد لله من غير تعب ولا مشقة، بعد أن انكسر خاطري من عدم زيارته، حيث شددت الرحلة بقصد الذهاب إلى عين ماضي من طنجة في رحلتنا الوهرانية، ولم يقدر المولى الوصول لتلك البقعة الشريفة، لموانع اقتضاها الوقت والحال، فرجعت من حيث أتيت إلى أن وصلت لفاس، منكسر القلب، مطأطئ الرأس، وكنت أتمنى الوصول لذلك المقام، لنزوره ونزور بقية أولاد سيدنا رضي الله عنهم، ونطالع هناك نسخة جواهر المعاني التي هي بخط مؤلفها الخليفة الأفخم سيدي الحاج علي حرازم قدس سره، المكتوب على أولها وآخرها بخط سيدنا الشيخ رضي الله عنه تصحيحه لها، وأن العمل عليها لا على غيرها مما خالفها من النسخ(43)، وعزمت على أن أقابل إحدى النسخ بها، لما أنا متشوف إليه بهمة الشيخ رضي الله عنه وأرضاه من شرحها بشرح يكون حافظا لها بحول الله وقوته من التدليس، ويبين ما انطوت عليه من خبايا الأسرار، ورفع ما يشكل على مطالعها في بعض المواضع من التلبيس، لأن جل النسخ الموجودة بيد الإخوان فيها بعض مخالفة في مواضع بزيادة أو نقصان.

ولا شك أن الشرح يضبط المشروح في الغالب، خصوصا إذا حفت العناية الشارح بنظرة خصوصية من ذي قلب مفتوح. ولم تحملني على الإقدام على ذلك إلا نظرة تجانية ونفحة عرفانية، هبت علينا من شيخنا العارف بالله، الدال على الله، سيدي ومولاي أحمد العبدلاوي رضي الله عنه وأرضاه وعنا به، فإنه بشرني في بعض مبشراته بأني سأشرح هذه الجواهر، وما ذلك على الله بعزيز، سائلا منه أن يصلح لنا الباطن والظاهر، وحين حركتني الأريحية لشرحها صممت على أن لا أشرع في ذلك إلا إذا اطلعت على النسخة المشار لها(44)، ولما لم يتيسر لي في الرحلة المذكورة

---

(42) أنظر هذه القصيدة كاملة في كتاب النفحة الربانية في الأمداح التجانية للعلامة سكيرج ص 54.

(43) ذكر العلامة سكيرج في كتابه تيجان الغواني في شرح جواهر المعاني ما نصه : ووجد مكتوبا بخط سيدنا رضي الله عنه في آخر ورقة من كتاب جواهر المعاني المكتوب بخط ملكه الواسطة المعظم سيدي الحاج علي حراز ما نصه : يقول العبد الفقير إلى الله أحمد بن محمد التجاني : قد كمل تبييض هذا الكتاب وتنقيحه، ونقلته بعون الله عز وجل مساره وتذييله، برواية عنا وسماع منا، فلا جرم أن العمل فيه على هذه النسخة المكتوب على آخرها هذا الرسم، وأن ما سواها من النسخ راجعة إلى هذه، وكل ما فيها مما يخالف هذه النسخة يجب تركه، وأجد في جميع ما فيها راويها عنا سيدي الحاج علي حراز جامعها، فكل ما فيها أمليناه عليه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(44) كانت هذه النسخة أولا في ملكية أبناء الخليفة العارف بربه سيدي الحاج علي حراز برادا، ثم اشتراها منهم بوغالب الجوطي متأخر بتاريخ عام 1232هـ، وفي نفس هذه السنة وجدها الشريف المقدم سيدي عبد الواحد بن محمد بوغالب الجوطي عند بعض علماء فاس أثناء موسم الحج، فاشتراها منه بأربعة

الظفر بها تحققت بأن الإذن لم يحصل في ذلك، وأن من علامة الإذن التيسير، حتى يسر الله قدوم سيدنا ومولانا محمود رضي الله عنه، ومعه هذه النسخة التي بمجرد اجتماعنا به أطلعنا عليها، وكأنه ما أتى بها إلا لنا، فذهبت بالجزء الأول منها، وبقي عندي أياما، فقابلت نسختي بها مع بعض النسخ، وكان مجمع المقابلة بالزاوية المباركة بفاس، بالسارية الميمونة، قبالة ضريح سيدنا رضي الله عنه، بحضور فئة من خاصة الأعيان منهم شيخنا العلامة الرئيس، سيدي الحاج عبد الكريم بنيس(45)، وهو السارد لها، ونحن الناظرون لنسخنا، مع حضور العلامة الذي انتفع به أهل الحواضر والبوادي، سيدي محمد الفاطمي الشرادي(46)، وجماعة من الإخوان، أصلح الله لي ولهم الشان، إلى أن كملت المقابلة، وإني أسأل الله تعالى الهداية للصواب فيما رمته من ذلك، مع التوفيق لما فيه رضاه في كل معاملة.

أمر سيدنا محمود لنا بالرحيل معه للجولان في نواحي القطر المغربي

ولما قضى سيدنا محمود رضي الله عنه حق الزيارة، التي هي لقطرنا المغربي بالفلاح بشارة، أمرني بالرحيل معه للجولان في نواحي هذا القطر المغربي لينتفع به الخاص والعام، حرصا منه رضي الله عنه على نفع الإخوان، وإيصال الخير إليهم على أي وجه كان، فإن بنظرته تنكشف الأحزان، بما له من كمال النظرة الموروثة من الحضرة المحمدية بين ذوي العرفان، مع ما ناله من بلوغ المقام المضمون لأولاد سيدنا ومولانا العارف الرباني، القطب التجاني، من النبي صلى الله عليه وسلم، كما أشار له صاحب المنية :

وكان من أدرك من ذريته يعطى مقاما ساميا كبغيته

وقد انشرح والحمد لله صدري بهذا الأمر الذي هو من كمال النظرة التجانية ولا فخر، غير أني صرت أقدم رجلا وأؤخر أخرى، خوفا من الوقوع فيما لا تحمد عاقبته من إساءة الأدب على هذه الحضرة الكبرى، لما أنا مقيد فيه من الحظوظ النفسانية، وتشوقي لما لا أستحقه من إدراك المقامات العرفانية، ولو أنني تحريت غاية التحري لخشيت على نفسي من المرتبة التي لا تسامح من أساء الأدب عليها، فاخترت المقام مع أهلي دون السفر، وبقيت من عدم امتثال أمره على حذر، فصرت أبدي له الأعذار، وكلما فتحت بابا سده، ولم يقبل مني أن أتخلف بعده، بعدما كفانا المئونة، بما جعلت للأهل من الضروريات معونة، مع أن غيري لو وجد ذلك لأنفق نفسه وماله لمرافقة هذا السيد الجليل في ترحاله، لإصلاح نفسه وحاله، فلم يسعني إلا امتثال أمره، منشدا لنفسي بلسان الحال :

وعشرين مثقالا، ولما عاد بنا لمدينة فاس حبسنا على الزاوية الميمونة عام 1234هـ، ولما بعدما أعطى للمقدم الجليل سيدي بوعزا مبرادا مبلغا قدره 34 مثقالا دراهم مقابل تناوله له عنا.

(45) سبق التعريف به في ج 1 ص 40 من هذا المقال.

(46) سبق التعريف في ج 1 ص 35 من هذا المقال.

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

غير أني قد أخذت الإحتياط لنفسي بواسطة المحب الصادق، الرفيق الموافق، صهر سيدنا وحبيبه، ومحبه بين كل حاضر وبادي، سيدي الحاج محمد دادي، بأن أكون مأمون الجانب عند سيدنا محمود ما دمت في رفقته، ولا يؤاخذني بما يصدر مني من سوء الأدب مع حضرته، فحل هذا المطلب منه محل القبول، وذلك من كمال المرام وبلوغ السول. وبعد هذا كله قمت على ساق الجد، في الوفاء بالعهد، وأنشدت هذه الأبيات :

قفولا مع ابن الشيخ كي تفتح القفلا فما الفتح إلا في يديه متى احتلا
وشد مطايا الحزم واشدد ركابه وسر حيث سار فهو قد أوضح السبلا
ولا تتراخى في اختدام جنابه برعي احترام حفه حيث ما حلا
وإياك والإمهال فيما يرومه فما أمره يعصيه كل امرئ جلا
ولو أنه يدعو الجبال التي رست أجابت دعاه كلما سار أو ولى
فبادر إلى شد المطايا مسارعا إلى فعل ما يرضيه ترضي به المولى
وسافر مع الخدام تحسب منهم فخدمته فيها السعادة للمولى
كفاك بأن الله يغفر ذنبه ويوليه من إنعامه المنصب الأعلى
ويستغفر الحيتان في بحرها له وتسأل مولاه يبلغه السؤلا

ولما عزمت على الرحيل معه صرت أودع كل من لقيته من الأصحاب والإخوان، وأستشير معهم، مع طلب دعائهم بالتوفيق، للسلوك على أقوم طريق، فكان كل واحد منهم يبدي لي رأيه على حسب ما يظهر له، إلا أن غالبهم يحضني على هذا الرحيل، ويعده من السعي الجميل الجليل، وممن استودعته يوم السفر شيخنا البركة المسن العلامة الفاضل، سيدي أبو بكر بن العربي بناني(47) أمنه الله، اجتمعت به في الزاوية المباركة، مقابلا لضريح سيدنا رضي الله عنه، حيث كان يزوره، وهو ممن يحب أهل الله قاطبة، خصوصا الحضرة التجانية، منذ جاور الزاوية بالسكنى، فقد حدثني أنه رأى سيدنا رضي الله عنه في بعض مرائيه قرب مجاورته فقال له : أنت ضيف عندنا، ثم أنشدني شيخنا المذكور مخاطبا لسيدنا رضي الله عنه :

أنا جاركم يا آل بيت محمد وعلى الكرام إجارة الأضياف

(47) سبق التعريف به في ج 1 ص 42 من هذا المؤلف.

فقلت له : أبشر، فإن سيدنا يقول فيما ثبت لدينا من كلامه : جيراني لا نجوزهم في الدنيا ولا في الآخرة، ثم طلب مني أن أبني هذا البيت ببيتين أضمنهما مدح سيدنا رضي الله عنه، مع مطلب خصوصي فقلت :

يا أيها القطب الجليل ومن له	فضل به يحظى ذووا الإنصاف
أنا جاركم يا آل بيت محمد	وعلى الكرام إجارة الأضياف
فلتمنحوني عطفة أحظى بها	بمناي والرزق الوفي الكافي

ثم دعا لنا بما نرجو من الله قبوله، وحث علي في السفر مع هذا السيد الجليل، وقد استودعني بعد موادعته بالزاوية المباركة ذو الأخلاق العذبة المذاق، الدالة على طيب الأصول والأعراق، الشريف الماجد، والجامع لمفاخر المحامد، أبو المواهب، سيدنا العربي المحب العلوي(48)، قبالة ضريح سيدنا رضي الله عنه، بمحله المعد له بها في المواجهة، زاد الله في أسراره، وأشرق غياهب الهموم بأنواره، وكذلك استودعني العدل الزكي، الفقيه الذكي، الجامع للأدب الرائق، مع التواضع الفائق، سيدي عبد الوهاب السراج، وأنشدني :

يا مزمعا بالرحيل عنا	أسعدك الله في المسالك
كان الله خير واق	أمنك الله من مهالك

(48) العلامة الشريف البركة مولاي العربي المحب بن مولاي عبد السلام بن عبد الله بن محمد الحبيب بن محمد عين العابدين بن السلطان العلوي الشهير مولانا إسماعيل رحمه الله، ولد في ربيع الأول عام 1276هـ بمكناسة الزيتون، وبها تربى ونشأ في حجر والده وديانة، وسنده في العلم عن شيوخ أجلاء، أكبر منهم العلامة مولاي عبد المالك الضرير العلوي، والعلامة مولاي عبد الله بن إدريس البدراوي، والعلامة مولاي عبد الله الكامل الأمراني، والعلامة مولاي إدريس بن عبد الهادي العلوي، والعلامة المحقق سيدي عبد السلام الهواري، وأجازه في القراءات العلامة القاضي مولاي محمد فتحا العلوي، أما الطريقة التجانية فقد أخذها على يد المقدم سيدي محمد البوكيلي، وعن شيخ الجماعة سيدي أحمد بن أحمد بناني كلا، ثم أجازه فيها الولي الصالح سيدي محمد العربي بن الساسح رضي الله عنه، وهو الذي سماه بالمحب، وقد استفاد منه أسرارا وعلوما كثيرا، ثم أجازه فيها كذلك الشريف البركة سيدي أحمد محمود دفين البحيرا بقبيلة الرحامنة، ثم أجازه فيها العلامة سيدي محمد بن محمد بن عبد السلام كنون وذلك بالنسبة العامة.

وفي حق مولاي العربي المحب قال الفقيه سيدي محمد الحجوجي في كتابه فتح الملك العلام في تراجم بعض علماء الطريقة التجانية الأعلام : وبالجملة فالرجل جزيئة أخبار طريق أهل الله، وله معرفة كبيرا بدقائق علم التوحيد والتصوف، وخاصة التوحيد المكية، فله دراية بمسائلها العويصة والأجوبة عنها، وهو ممن منحه الله تعالى معرفة نكاة غريبة في التصوف، فتراه يبدي من العجب العجاب، مما لم يتفطن له إلا أكابر العارفين الأنجاب، إلخ ...

توفي رحمه الله ورضي عنه صبيحة يوم الأربعاء 26 محرم الحرام عام 1351هـ، وصلي عليه بعد صلاة الظهر بالزاوية الأحمدية التجانية الكبرى، ودفن في روضة سيدي ابن عمرو داخل باب عجيسة أحد أبواب مدينة فاس. انظر ترجمته في فتح الملك العلام للفقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 169 وفي نيل المراد لنفس المقام ج 2 ص 44-52.

قائلا أن هذين البيتين بلغه فيهما أن سيدنا جبريل عليه السلام كان يستودع بهما النبي (ﷺ) عند سفره، وما استودع أحد بهما إلا ورده الله سالما، فجازيته بدعاء الخير، وقلت : إني أحفظهما عن شيخنا العلامة الوحيد، سيدي الحبيب الداودي(49) رحمه الله، إلا أني لا أعرف صاحبهما، غير أني أحفظ من بعض التقاييد أن سيدنا جبريل كان يستودع النبي (ﷺ) بهذا البيت :

وحيث اتجهتم صاحبتكم سلامة ويرعاكم الرحمان من كل جانب

ثم إني استودعت أهلي بعد صلاة العصر من يوم الإثنين الرابع عشر من ذي القعدة الحرام، وهو يوم السفر، بعدما كتبت بمحلي الآية الشريفة التي جربها كل واحد، في كونه إذا كتبها في المحل الذي خرج منه أنه لا بد أن يرجع إليه سالما بحول الله، وهي قوله تعالى : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)(50) وذلك من خواص هذه الآيات المودعة فيها، ولا ينكر مثل هذه الخاصية إلا من نفسه عن الأسرار قاصية، وقد جربناها غير ما مرة، فرجعنا إلى المحل الذي كتبناها فيه، حتى تعود أهلنا بركتها، فيؤكدون علي في كتابتها عند موادعتهم، وكذلك جربها غيرنا فوجدوا بركتها، ولا بدع في ذلك، فإن أسرار الآيات القرآنية من اللطائف الربانية، مع ما اشتملت عليه الآية الشريفة من الفأل الحسن بالعود إلى المعاد، وقد ورد في الأحاديث النبوية أنه صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن، وقد قيل :

تفاءل بمن تهوى يكن فلعلما يقال لشيء كان إلا تحققا

والظن في الله جميل، أن يردنا إلى الأهل سالمين وهو بنا وبهم كفيل، وأقول متمثلا :

أستودع الله أولادي وأمهم والنفس والأهل والأصحاب كلهم
وكل ما أنعم الله الكريم به وفي جوار الإله تحفظ الذمم

ثم ذهبت إلى سيدنا محمود رضي الله عنه للرياض النازل به، وبقيت معه لاستوداع الإخوان، وبين العشائين ذهبت معه لزيارة ضريح جده سيدنا رضي الله عنه، فدخلت معه للمقام الشريف وزرناه كما ينبغي، وذلك من أكمل المقصود، حيث أني أزور مقاما شريفا، مع إمام شريف، ولا شك أن النفحة التي هبت علينا ذلك الوقت تكون خاصة، حيث أني لم أظفر مدة عمري بذلك المشهد الذي يغبطني فيه أكابر الطريقة، ولله الحمد على هذه المكرمة الفائقة، التي هي من كرامات سيدنا رضي الله عنه على الحقيقة، ثم خرجنا بعد أداء الزيارة، وموادعة المقام الذي تركنا قلوبنا فيه، وقصدنا وادي الجواهر المضروب عليه الخزانات المعدة لنا، فبتنا ليلتنا في أمن وأمان.

وكان في رفقتنا هذه الفقيه النزيه، الأريب النبيه، كاتب سيدنا محمود، القادم صحبته من عين ماضي، بعد قدومه من تونس، أبو حفص سيدي عمر بن سعد الريعي الواسطي، وقد أحسن إليه سيدنا محمود رضي اله عنه، ولم يقصر معه، من الإنعام المناسب لحاله، فكان لإحسانه شاكرا، وهذا الفقيه له توجه تام لتلقي العلم والأدب، وقريحة وقادة تبلغه غاية الأرب، ومن شدة حزمه في طلب العلم والحرص على أخذه وتلقيه، حتى لا يفوته وقت لا يستفيد فيه فائدة، طلب مني أن أجعل درسا خصوصيا في هذه الرحلة، فاتفقنا على أن نسرد الألفية بتقييد عليها، ومتن الكافي في علم العروض، فشرعت في ذلك تطييبا لخاطره، واغتناما لدعاءه الصالح، طالبا من المولى أن يصلح أعيالنا، ويوفقنا لما فيه رضاه.

---

(49) سبق التعريف به في ج 1 ص 29 من هذا المؤلف.
(50) سورة القصص، الآية 85.

إجازة سيدي محمود للمؤلف

وقد كان كتب لنا هذا الفقيه الإجازة بالتقديم من سيدنا محمود، ووجهها لي، مطبوع عليها بطابعه الشريف، وبداخله مكتوب : محمود بن محمد البشير التجاني سنة 1329هـ، وبدائرته مطوقا (يا عالما بالخفايا، يا رازق البرايا من العطايا، اغفر لنا الخطايا) ونص الإجازة.

بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، الحمد لله، حمدا لمن ألهم الإنسان وفهم، وعلمه بما لم يكن يعلم، وأهل أقواما بمحض كرمه ومنته، بحمل أمانته وشريعته، ورفعهم بذلك درجات، إذ فتحوا أبوابا متبرجات، فنهجوا للعباد طريق الهدى والرشاد، وسلكوا بهم ما هو في الشرع معروف ومعتاد، والصلاة والسلام المضمخان بعبير التعظيم، المتوجان بتاج المبرة والتكريم، على عروس المملكة الربانية، وواسطة السلوك إلى الحضرة القدسية الرحمانية، وعلى آله السراة، وأصحابه الصالحين الهداة، ما أجيب داع، وأجيز في سماع، ورضي الله تعالى عن ساداتنا الأولياء الكرام، خصوصا القطب المكتوم، والبرزخ المختوم، سيدنا ومولانا أحمد التجاني، سقانا الله وجميع المحبين من بحره الرباني، آمين.

وبعد : فيقول أفقر الورى وأحوجهم إلى عفوه، محمود بن البشير بن محمد الحبيب بن أحمد التجاني، بلغه الله من الخير كله الأماني : إن ممن شمر في طلب العلم عن ساعد اجتهاده حتى بلغ منه بيمن الله نهاية مراده، وصدق عليه المثل السائر، "كم ترك الأول للآخر"، سند الأفاضل الأعلام، وبدر العلماء الكرام، من حوى جميع الفضائل، وحاز من حسن الشيخ ما لم تحزه الأواخر والأوائل، الفقيه الوجيه، المدرس النزيه، صاحب الفهم الغواص، الذي يعجز عنه كثير من الخواص، حبيبنا وصفينا، رفيع القدر والمكانة عندنا، الشيخ سيدي أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، أدام الله وجوده، وأرقى في سماء المعالي صعوده، طلب من العبد الحقير، المعترف بالقصور والتقصير، أن يجيزه فيما عنده من أصول وفروع، في طريقه التجانية الأحمدية، حمله ما جبل عليه من حسن النية، وخلوص الطوية، ظنا منه أني أهل لذلك، ولست كذلك، فأجبته إلى ذلك، جبرا لخاطره، ورعيا لما عسى أن يكون له فيه من النفع الحاضر، إذ ليس سلوك هذا السبيل سهلا، ولكن لي قصد جميل، في سلوك هذا السبيل، وهو ضمانة النبي (ﷺ) المختار لشيخنا وأولاده، ولحسن ظننا عولنا، وعليه توكلنا، فأقول، وعلى قدم الشكر أجول : قد أجزت له جميع ما في جواهر المعاني، وأذنت له إذنا مطلقا من الأوراد اللازمة وغيرها، كما أجازني شيخي ووالدي سيدي البشير، رحمه الله رحمة واسعة.

والله أسأل أن يمنحنا وإياكم الرضا والقبول، فإنه أكرم مسئول، وندعو لكم في سائر الأسحار، أدعية خالصة بدوام المجد والوقار، وبدوام بقائك، وعلو ارتقائك، وأن يقر عينيك بما يرتاح له الفكر، وينظر إليك بعين عنايته الربانية، ويجعلك في زمرة نبيه المصطفى، ووليه المرتضى دنيا وأخرى، والله يجعلنا وإياكم ووالدينا ووالديكم وأشياخنا وأشياخكم في أعلى عليين مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين آمين، إن شاء الله مطمئنين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، ودمتم محفوظين بالتكريم، مخصوصين بأفضل التحية والتسليم. كتب في 13 شوال عام 1329هـ.

إجازة سيدنا محمد البشير لولده سيدي محمود

ولا بأس بذكر إجازة سيدنا ومولانا محمد البشير المشار لها في هذه الإجازة، تبركا بها، وحفظا لها من الضياع ونصها :

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين، بعد حمد الله جل ثناؤه، وعز كبرياؤه، وتقدست أسماؤه وصفاته، فإني أذنت في تلقين ورد جدنا الأكبر، والعلم الأخضر. والكبريت الأحمر، القطب المكتوم، والخاتم المحمدي الأشهر، مولانا أبي العباس أحمد ابن محمد التجاني الحسني، أدامنا الله في حماه في الدارين، قد أجزت بعد الإستخارة بعلم الله، والإستقدار بقدرة الله، مستعينا به سبحانه، مستندا إلى حوله وقوته، لولدنا البار سيدي محمود أن يلقنه لكل من طلبه منه، ورغبه إليه فيه، وقبل شروطه قبولا تاما. آنس صدقه من المسلمين والمسلمات أيا كان، وعلى أي حالة كان، جاعلا له في هذا الإذن وهذه الإجازة أن يقدم من ظهر له لإعطائه وتلقينه، سواء طلب منه التقديم أو لم يطلبه، إن دعت الحاجة إلى ذلك، كبلد فيها بعض الفقراء، وليس فيهم مقدم، أو كبعد المسافة على البلد الذي فيها المقدم، أو نحو ذلك، لكن لا بد في التقديم من مراعاة الأهلية المعتبرة، بنعوتها المقررة، وهي مسطرة في كتب طريقتنا، مفصلة تفصيلا كافيا شافيا، وأقل مراتبها، الواجب اعتبارها، معرفة حقيقة الورد اللازم، وأركانه وأحكامه، ومعرفة شروطه المعتبرة فيه صحة وكمالا، ومعرفة الأذكار اللازمة بلزومه، وما يقضى وما لا يقضى إذا خرج وقته، وما ينجبر به السهو، إن وقع شكا أو تحقيقا. فهذا أقل ما يعتبر فيمن يراد للتقديم، وليأمر من قدمه أن لا يباشر كفه كف امرأة ليست بذات محرم منه عند التلقين، بل يلقنها بواسطة محرم منها، ولو لم يكن من أهل هذه الطريقة(51)، وإن كانت متجالة أو أمة فلا بأس أن يلقنها بنفسه، لكن باللفظ فقط، من غير مصافحة، فلا يظن ظان أننا نستنبط في الطريق شيئا قل أو جل مما لم يبلغنا نص فيه عن الشيخ رضي الله عنه، عياذا بجلال الله من ذلك، وعليك يا ولدي بتقوى الله في السر والعلانية بقدر الإستطاعة، كما قال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم)(52).

---

(51) للتوسع جيدا في هذا الموضوع انظر بغية المستفيد للعلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن الساحل ص 367.

(52) سورة التغابن، الآية 16.

وعليك أن تعامل إخوانك في الله بالرفق واللين والتسهيل والتيسير ما أمكنك، مراعيا فيهم كونهم عبيد الله، وسره سبحانه خفي علينا، وأن تلاحظ فيهم أيضا حرمة الشيخ المضافين إليه، فرب إضافة بأدنى ملابسة تلحق العبد بأعلى مراتب أهل الله، إذا وقعت عليه المحبوبية، وكان ممن سبقت له العناية بفضل الله، وعليه أن يأمر من يقدمه أو يلقنه الورد بذلك، وبالتباعد من الرئاسة وأسبابها، فإن حب الرياسة كعبة تطوف بها الشرور، ومن ابتلي بها لا يفلح أبدا، نطلب الله العظيم أن يجعل ذلك طهارة لآبائنا ومحوا لسيئاتنا، وأجارنا بفضله، والحمد لله رب العالمين. وقع بتاريخ 8 ذي الحجة الحرام سنة 1324هـ، البشير بن محمد بن أحمد التجاني، ثم طابعه الشريف بداخله محمد البشير بن محمد الحبيب التجاني سنة 1301هـ، وبدائرته مطوقا : يا منفردا بالقدرة ليس لك ثاني كن لعبدك.

الخروج من فاس والتوجه لمكناس وما جرى أثناء الإستعداد لذلك

ثم إننا بتنا هذه الليلة ومعنا الفقيه الأمجد، المقدم الأسعد، سيدنا أحمد بن العياشي السلامي القادم مع إخوان شراكة(53)، بقصد ذهاب سيدنا محمود إلى قراهم، عند المقدم ابن سلطان(54)، المشهور بهذه الكنية عند الإخوان، وقد كانوا تهيئوا لقدومه عليهم، واستعدوا لملاقاته، إلا أن سيدنا رضي الله عنه ظهر له أن يذهب على طريق مكناس، وذلك من لطف الله بذلك المقدم مع أولئك الناس، مع ما شملنا من العناية بنا في المسير على طريق بني مطير، وقد قلت بعد الإستراحة :

(53) شراكة منطقة جبلية مشهورا، تقع على بعد 70 كيلومتر شمال مدينة فاس، وهي مأهلة بالتقراك التجانيين، وبه عدا قويا، أكبرها الزاوية التي كانت مقرا للمقدم العارف بالله المربي سيدي محمد بن سلطان الشركي.

(54) المقدم البركة العارف بالله سيدي محمد بن الحاج أحمد بن علي بن سلطان، مقدم الزاوية التجانية بشراكة، وهو من مواليد عام 1234هـ، أخذ الطريقة الأحمدية التجانية عن المقدم سيدي سحنون عام 1255هـ، وكان عمره وقتها 21 سنة، ثم التقى بعد ذلك بجماعة من أكابر رجالات الطريقة، منهم لسانها العلامة سيدي محمد بن أحمد أكنسوس، والمقدم التقيه سيدي محمد بلقاسم بناري المكناسي، والعلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن الساحي، فانتفع بصحبتهم غاية الانتفاع، حتى صار من أهل الكشف التام، المقرون لهم بالتصريف بين الخاص والعام، وكانت وفاته رحمه الله في الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة 13 شعبان الأبرك عام 1336هـ، انظر ترجمته في إتحاف أهل المراتب العرفانية للتقيه الحجوجي ج 7، وفي نيل المراد لنفس المقلاف ج 2 ص 52.

يا ليلة وصفت بكل محمود لما اجتمعت بها بالقطب محمود
نلنا المبيت على حسن الوفا معه حتى ظفرنا به بكل مقصود
فالله يحفظه لنا ويحفظنا بين الورى معه بالفضل والجود

وبمجرد كتب هذه الأبيات، جاء لخزانتنا سيدنا محمود بقصد تفقد أحوالنا في المبيت، وذلك من شدة اعتنائه رضي الله عنه وعنا به، فقمت لملاقاته، وأنشدتها عليه، فنشط لذلك، ودعا لنا بما نرجو من الله قبوله، وبعد صلاتنا لصلاة الصبح أنشأت هذه الأبيات في وصف هذه الليلة، التي تجر ذيلها فخرا على كل من يجر ذيله :

بتنا على وادي الجواهر وبساطنا زاه وزاهر
فكأننا في جنة فيها علينا الخير ظاهر
عن كل مكروه خلت والقلب بالأفراح عامر
ما مثلها من ليلة فيما مضى عند المفاخر
من حيث كون إمامنا قطب عليه الفضل دائر
نجل التجاني من سمت رتب له بين الأكابر
بدر العلا محمودنا بين الأوائل والأواخر
لازال محمودا يرى ملحوظ قدر منه باهر

ثم لما طلع النهار، خرج الإخوان أفواجا أفواجا لوداع سيدنا ووداع رفقائه، حتى كاد أن يضيق البساط بكثرتهم، من جملتهم المقدم الأجل الشريف سيدي الطيب السفياني، وناظر الزاوية الأبر السيد العربي بن السيد محمد بن العربي برادة، وحاجب الضريح الأغر سيدي محمد الزيزي(55)، مع المسمعين، وما انضاف إليهم من المحبين، وبقي الكل هناك في انتظار زيارة سيدنا محمود ووداعه، وكل قلب كاد أن ينصدع لفراقه بعد اجتماعه، ولم يقدروا على الفراق، والكل يود أن لو بقي بفاس من شدة الأشواق، حتى كاد الجميع أن لا يفارقه، ولسان حال كل واحد ينشد :

---

(55) المقدم البركة سيدي محمد بن محمد بن محمد بن الحاج علي بن الحاج عبد الكريم الحيحي، فقيه، توفي، كان رحمه الله ملتحما بالزاوية التجانية الكبرى بفاس، مكلفا بإعانة ضريح سيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه، وبناء على ذلك كان يتولى بنفسه تجمير الضريح كل جمعة بالعود والطيب، وهو من مواليد فاس عام 1270هـ، حفظ القرآن الكريم على يد الفقيه المدرر بمكتب الفاغة الأستاذ العربي العيساوي، وأخذ تلقيا من الفقه عن جماعة من علماء فاس منهم : الفقيه السيد الحاج محمد فتحا بن محمد بن عبد السلام كنون، والفقيه سيدي محمد فتحا القادري، وسيدي محمد الفاسي، وسيدي أحمد بن المامون البلغيثي، وسيدي محمد بن الحاج التازمامي بناني، وسيدي أحمد بناني كلا، وغيرهم.
وأخذ الطريقة الأحمدية التجانية عن المقدم الجليل سيدي محمد بن العربي العلوي الدرهوني، وهو الذي أجازه فيه، ثم أجيز بعد الإذن من طرف مجموعة من الأكابر منهم : سيدي محمود التجاني حفيد الشيخ رضي الله عنه، وسيدي محمد العيد بن محمد الصغير بن القطب الحاج علي التماسيني رضي الله عنه، وأجازه كذلك العلامة السيد ألفا هاشم التوتي، كتابة من المدينة المنورا.
وكانت وفاته رحمه الله في الساعة الثالثة والنصف من ليلة الأحد 13 جمادى الثانية عام 1345هـ، وكان قد أخبر بموته قبل الإذن، وصلي عليه بالزاوية الأحمدية التجانية عقب صلاة الظهر، ودفن بزاوية سيدي علي الجمل من حومة الرميلة بفاس. انظر ترجمته في رياض السلوان للعلامة سكيرج ص 181، وفي نيل المراد للعلامة الحجوجي ج 2 ص 65-77، وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية لنفس المؤلف ج 7.

فلو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا اختيار مع الزمان

وما زالوا في تلك الساعة منتظرين، وأهل السماع ينشدون مطربين، وعند الإفتراق أنشد الشريف المنيف، أحد مسمعي الزاوية بصوت لطيف، سيدي علال المنصوري التلمساني، بترجيع الصوت مع المنشدين السيد الطيب عمور وأخيه هذين البيتين لبعضهم :

استودع الله قوما ما ذكرتهم إلا تحذر من عيني ما سكنا
اشتاقهم كاشتياق الأرض وابلها والأم واحدها والغائب الوطنا

ثم أنشد أيضا باتصال :
لاغرو إن جعلوني من تفضلهم سلمان بعدهم من بعد سلمان
أو شرفوا قدر مدحي وهو شيمتهم أو بشروني بالحسنى كحسان

ثم أذنهم سيدنا رضي الله عنه بالإجتماع به والدخول عليه، بقصد الموادعة، وهو بداخل القبة العجيبة، ذات الإتقان العجيب، التي أتحفه بها الوزير الأفخم، السيد المدني الكلاوي(56)، وهي من أحسن القباب التي لا تكون إلا للملوك، أو لمن له مالية وافرة، وقد أخبرنا أنها صنعت بثمن قدره خمس عشرة مائة دورو، فدخل الإخوان إليها فكادت أن تسعهم، واستودعوه واستودعهم، وأمرهم بالرجوع لمحالهم، فرجعوا وقلوبهم من ألم الفراق، تكاد أن تتصدع بانشقاق. ثم ركب سيدنا وركبنا، وكان من جملة المسافرين مع سيدنا محمود في هذه الرحلة المباركة، صهره الأبر سيدي الحاج محمد دادي، وأخوه لأبيه سيدي محمد دادي، وأخوه للأب شقيق زوجة سيدنا محمود السيد الطاهر دادي، وخديم سيدنا محمود السيد سعد، مع بقية الأصحاب، ثم شرعنا في المسير في الساعة الثانية نهارا من يوم الثلاثاء، إلى أن وصلنا لوادي النجاة، وبه نزلنا في الساعة الخامسة عشية، وفيه أنشأت هذين البيتين :

بوادي النجاة أتانا النجا ح بنيل النجاة ونيل الأماني
وصاحبنا في الطريق الهنا وفزنا به ببلوغ الأمان

فبتنا فيه ليلة هنية، بعدما تأخرت القبة عن القدوم، لكون الأصحاب الذين معها ظنوا أن النزول برأس الماء، فذهبوا مع طريقه حتى وصلوا إلى خيام مضروبة على الطريق النافذة للمحل المعروف بالحاجب، فسألوهم عنا فلم يجدوا أثرا، إلا أنهم استيقظوا عن غفلتهم وأننا ذهبنا لوادي النجاة، فسألوهم عن الطريق إليه، فأرشدوهم إليها، فساروا مع الوادي إلى أن وصلوا للمحل الذي نزلنا به، بعد أن فات وقت العشاء، فنصبت القبة لسيدنا محمود، وبلغنا بالمبيت معه غاية المقصود، وفي صباح يوم الأربعاء أنشأت هذه الأبيات :

(56) التهامي بن محمد المدواري المراكشي الكلاوي، باشا مدينة مراكش وقتا ما، توفي أوائل عام 1375هـ - 1956م، وهي السنة التي نال فيها المغرب حريته واستقلاله. انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج 2 ص 89.

بوادي النجا فزنا بنيل النجاة ولم نرا سوءا من جميع الجهات
ولم لا ومحمود المساعي مجيرنا يدافع عنا سوء كل العداة
يدافع بالسر الإلهي كل من يروم وقوع الشر دون افتيات
له همة فعالة في عداه ما يهدهم أو يرجعوا من هداة
فلا زال يرعانا ويرعاه ربنا ويمنحه من فضله المكرمات

ولما طلع النهار وقع الإذن بالتهيء للرحيل، فخرجنا من قبتنا التي كنا تحت ظلها نستظل ونقيل، فحمي الوطيس علينا، ولكن خفف الحرارة جلوسنا على بساط هذا الوادي الزاهر، الذي هو نسخة من بساط وادي الجواهر، وأنشأت فيه هذه الأبيات :

أقمنا بواد لو أقمنا بغيره مللنا ولكنا انبسطنا ببسطه
كأنه من وادي الجواهر قد أتى يجر ذيول الفخر من حسن سمطه
ولا عجب إن كان من أصله جرى ولكنه يجري على غير شرطه

ولا زلنا كذلك إلى الزوال، وبعد ذلك خرج الإذن بأن نتباعد عن محل النزول، ليركب حريم سيدنا بالمحفة، فقمت مع القائمين، إلا أني كتبت مباسطا لرفيق سيدنا، صهره الأبر سيدي الحاج محمد دادي ما نصه : حفظك الله بعد تحية الأدب أقول :

هل نرى من ورا إذا ما قربنا أو بعدنا بالله قل لي ماذا
حسبنا إن ترد كمال احترام أن نغض العيون في مثل هذا

عملا بقوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)(57) الآية، ونعوذ بالله أن تتشوف أنفس العبيد للنظر لحريم سيدهم، والسلام، وقد استحسن هذا، إلا أننا لما أطلعنا على بعض أخلاق سيدنا محمود رضي الله عنه، وما فيه من الحزم التام، خصوصا ما فيه من الغيرة على حريمه، واعتنائه بإبعاد أنفاس الرجال عن النساء، وراثة أحمدية تجانية، عذرنا صهره عن الأمور التي كنا نظن أنها من تلقاء نفسه، ولو كان اطلع على ذلك إخواننا الفاسيين لأقروا له بالفضيلة التامة، وشكروه على صبره الجميل، وصدق خدمته لصاحب هذا المنصب الجليل، وذلك أن سيدنا محمودا آخذ بالحزم في جميع أموره، مع علو همته، لا يرضى بسفاسف الأمور، بل يحب معالي الأمور، والإسراع بتنفيذ ما يأمر به، من غير رد ولا مراجعة، ولا شك أن صهره المذكور، هو القائم بمثل هذه الأمور، والمتكفل بكل ما يجلب له الرضا به، فيرضيه بعد السخط، ويسليه بعد القنط، وقد قلت : إن من وراثته الأحمدية أنه يحب مباعدة أنفاس الرجال عن النسوان، خصوصا فيما له من الحريم والخدام، لأن سيدنا ومولانا الشيخ جده التجاني قد كان كذلك، حتى أنه كان لا ينام حتى يسد أبواب البيوت على الخدام والعبيد، ويجعل المفاتيح عنده، وهكذا دأب سيدنا محمود رضي الله عنه، لا يحب أحدا أن يحوم حول المحل الذي هو به مع أهله، ولو من أقاربها إلا مع حضوره، ومن أعجب هذا أنه لا يحبنا أن نمر حول المحفة، ولو مرورا بها، وقد كنا في هذا اليوم مارين من أحد جهات المحفة، فأشار بيده إلي أن نباعد عنها، ونذهب من الجهة الأخرى، حتى لا تقع منا التفاتة، فهاجت القريحة ونظمت هذين البيتين:

(57) سورا النور، الآية 30.

وقائلة جنب بجنب محفتي لكي لا ترى ما تحتوي من تزاويق
فقلت بعيني الكهربا تنظر الذي تواري عن الأبصار طي الصناديق

وقولنا (بعين الكهرباء) على حذف همزة الإستفهام، مشيا إلى الآلة المخترعة التي يستطلع بها على ما في داخل الظروف، ثم خرج الإذن بالرحيل بعد أن ركب سيدنا وركب الأهل، فشرعنا في المسير في الساعة الثانية من هذا النهار، فوصلنا للمهدومة في الساعة الخامسة، فحططنا بها، بعد مرورنا على قنطرتها الجديدة التي وجدنا بها الجم الغفير من الخدمة الفرنسيين المشتغلين بإصلاح الطريق، أحاطوا حولها لإتمام عملها، والطريق مخطوطة على وتيرة واحدة، واتساع واحد، تارة تذهب على الطريق القديمة، والسلك ممدود على أعمدته من دار الدبيبغ(58) من قرب فاس إلى مكناسة، وتارة ينعطف منها.

وقد وقع الإصلاح في قنطرة وادي النجاة التي كنا عهدناها في رحلتنا الزيدانية(59) التي كنا سافرناها قبل هذه الرحلة، قد كادت أن تنهدم، وهكذا غالب القناطر الممدودة على المقاطع والخنادق المارة على الطريق، كلها قد دخلها الإصلاح في الجملة، وعما قريب على ما رأيناه من اعتناء الخدام بالإصلاح سيتم أمرها، فتكون على وتيرة واحدة، لا يرى سالكها تعبا ولا مشقة، وكأني بها وسكة الحديد ممدودة على الطريق إلى فاس، لما شاهدناه من تمهيدها وبسطها، كأنها في القديم كانت ممرا للسكة الحديدية، ولا يبعد أن يكون في القديم كانت هناك سكة، ولا عجب في ذلك، فقد اكتشف أهل الإختراعات الوقتية على أن السلك وبابور البر قد كان منذ زمان، ولم يشتهر أمره إلا في هذه الأعصار القريبة العهد، ولا زالوا يكتشفون، على أن هذه العجائب المخترعة قد كانت في القديم، إلا أن تهذيبها قد حصل على يد المتأخرين، وقد صدق القائل :

لم يدع من مضى للذي قد غبر فضل علم سوى أخذه بالأثر

ثم إننا بتنا هذه الليلة مطمئنين، لا نخشى من طوارئ الليالي حادثا، من الأمن الواقع في هذه الطريق التي كانت يمر عليها المارون، وقلوبهم ترتعد من الفرق عند المسير، مما يحصل من الفساد من الساكنين بسائس من البربر وبني مطير، وما ذاك إلا لما ضربوا به من عصر الذل والهون، بعدما كانوا في تعصبهم وجهالتهم يهرعون، حتى جلبوا لنفسهم ما جلبوه، وجلبوا لغيرهم ما كانوا قد ارتقبوه.

(58) درا دبيبغ : موضع معروف أتى اليوم من الأحياء الراقية بضواحي مدينة فاس.
(59) الرحلة الزيدانية : باستدعاء من نقيب السادة الشرفاء العلويين، العلامة المؤرخ مولاي عبد الرحمان بن زيدان العلوي الإسماعيلي، وذلك بمناسبة حفلة زفافه، وقد جمع العلامة سكيرج جميع جوانب هذه الرحلة في تأليف له سماه : الرحلة الزيدانية.

الوصول لمكناس

ولما طلع الفجر ذهب صهر سيدنا محمود مع أحد الإخوان إلى مكناسة ليعلم الإخوان بالقدوم، وكان الوقت صاحيا، إلا أن الريح قد كان قويا، وفي الساعة الثانية عشرة من نهار الخميس، أمر سيدنا بالرحيل، فتقدمنا للمسير، والمطر يسيل، إلى أن توغلنا، والسماء تبكي على الأرض التي نمشي عليها من سرعة ذهابنا عليها، حتى كاد دمعها أن يغمرنا، ولم نرى مثل هذا اليوم المطير، أصاب مثلنا ممن سلك في بلاد بني مطير، ولم تشفق إلا على سيدنا، مما حصل لنا من التعب، وما صبته علينا السماء بالقرب، ولكن قد أحسن سيدنا رضي الله عنه بالركوب مع أهله في المحفة من أول الأمر.

ومما يدل على كمال حذاقة سيدنا محمود رضي الله عنه مما تفطنت له، أنه في اليوم الأول أركب مع حريمه أمة صهره الأديب الوحيد سيدي الحاج محمد دادي، حتى تحقق بأن المحفة تحمل اثنين ليركب مع أهله في مثل هذا اليوم، ثم إننا تقدمنا أمامه في المسير، فوصلنا لمكناسة قبل وصوله، قرب الساعة الرابعة، فوجدنا المحلة الفرنسية المشتملة على الجم الغفير من أعراب الواسطة والعبيد ضاربين خزائنهم خارج المدينة بزيتون حمرية، وهناك محل خصوصي لحاكم الجيش، وقد بنوا جملة من البيوت حوله من الخشب، وبعضها بالبناء المستعمل بالآجر الطيني على أحسن ما يكون. وقد انتشرت تلك المحلة، وامتدت بامتداد الزيتون، وهناك بحمرية من وراء سيدي على مكراز أبنية لهم على نسق واحد، وكأنه محل معد لوقوف القطار المعروف في اللسان (لكار) ولما وصلنا لباب أبي العمائر(60)، وجدناهم قد بنوا على العين التي هناك وأصلحوها وأعدوا منها مواضع للسفر والورود، وصانوها عن الخبث الذي كانت ملطخة به من غسل الثياب والصوف بها، ومنعوا نساء البلد من استعمال مثل هذا بها، غير أنه لم يصونوها من غسل ثياب عبيد المحلة بالماء الجاري من ساقيتها، ويا حبذا لو كان منع الجميع من ذلك، أو أبقوا الأمر على ما كان عليه، حتى لا يقع امتياز على أهل البلدة، ولا ينافي التمدن الذي قرب إبانه، وأقبل بأعوانه زمانه، ولكن المستقبل قاض بالتفطن لمثل هذا، وتكون الأمور جارية على القانون الذي يتمشى عليه الخاص والعام، ولو بعد هذا العام، خصوصا في هذه المدينة التي اتسعت طرقها اتساعا يقضي بعمارتها في الغابر، وكأنها أعدت من قديم لمرور الكروسات، والآلات المخترعة للركوب مثل السيارة، ومثل (الطران) القطار وغير ذلك، مما اقتضت قرائن الأحوال باستعماله، ولو بعد زمان له أهل الاعتبار يستعدون، وربك يخلق ما لا تعلمون.

---

(60) قال العلامة المؤرخ عبد الرحمان بن ڤيدان : وإلى وادي أبي العمائر المذكور تنسب باب أبي العمائر من أبواب المدينة، وهو واقع في شمال غربي مستقبل حمرية إهـ... وقال المؤرخ ابن ڤيدان في موضع آخر ما نصه : وباب أبي العمائر المذكورا قد هدته الدولة الحامية عند حلولها بالعاصمة المكناسية، ولم تبق له عينا ولا أثرا، والقاصد من الإزالة إزالة الحاجز بين العاصمة القديمة والمدينة الجديدا، حتى لا تسد باب الأولى في وجه الثانية، ويتيسر سير العربا والسيارا بين المدينتين بدون أدنى حرج، ولإمكان المواصلة بينهما في سائر الأوقا، إلخ ... انظر إتحاف أعلام الناس للعلامة ابن ڤيدان ج 1 ص 50-51.

ذكر بعض ما يتعلق بتاريخ مدينة مكناس (61)

ولنذكر هنا بعض ما يتعلق بهذه المدينة من التاريخ، حتى لا يفوتنا في هذه الرحلة الكلام عليها، مع ما اشتملت عليه من المآثر العجيبة، والآثار الغريبة، ووقوعها موقعا لم تقع مدينة في المغرب مثلها فنقول : ذكر المؤرخون، خصوصا من تأخر منهم أن مكناسة الزيتون من الأمصار القديمة بأرض المغرب، بناها البربر قبل الإسلام، وكانت قبل فتحها ديار كفر من مجوس ونصارى، وحاضرتها إذ ذاك مدينة يقال لها (وليلي)(62) سميت باسم ملكها، وآثارها عظيمة، باقية لهذا العهد بأرض خيبر(63) من ناحية جبل زرهون، ولم تكن مكناسة في القديم متمدنة، وكانت الحارات مفترقة(64)، لمن كانوا قاطنين بها، منها تاورا(65)، وهي أقرب الحارات إلى المدينة، وورزيغة، ويذكر أن أصل أهلها روم، وكانت ورزيغة مخصوصة بالأمن، يسكن أهلها الخيمات بالجنات، فلا يلحقهم خوف ولا ضرر، إلا ما يتوقعونه من الأسد الضارية المتوحشة في الغابات القريبة منها.

وقد كانت كل حارة من الحارات قائمة بنفسها، وكان أهلها مطمئنين بعد الإسلام، منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين(66) بلاد المغرب، وأخمد الله تعالى بسيرتهم نيران الفتنة البربرية، قيل ولم يكن لهذه الحارات قديما بمكناس مدينة مسورة، وكان واليها يسكن قصرا أدركه القدماء خرابا، يعرف بقصر (ترزجين)(67) جوفا من المدينة الآن، فلما ظهر أمر الموحدين(68) أحدث المرابطون على الوادي الموجود بها حصنا سموه تكرارت بالقاف المعقودة، فلما أخذوا في بنائها اجتهدوا فيه، وأعجلهم الأمر حتى احتاجوا على ما يحكى إلى إقامة شقة من سوره بالأهرية المتخذة لادخار الأطعمة، وملئوها ترابا، وقاتلوا دونها حتى أكملوا البناء بعد ذلك.

---

(61) مكناس : من أهم الحواضر المغربية الحديثة، تبتعد عن مدينة فاس غربا بـ 60 كيلومتر، وعن مدينة الرباط شرقا بـ 140 كيلومتر، وتبعد المدينة تاريخ حافل وعريق، انظر إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس للعلامة عبد الرحمان بن زيدان العلوي الإسماعيلي، وفي الروض الزيتون في أخبار مكناسة الزيتون للعلامة سيدي محمد بن غازي العثماني.

(62) انظر التعريف بوليلي في ج 2 ص 127 من هذا الكتاب.

(63) يطلق لفظ خيبر اليوم فقط على الجهة الشرقية العليا لمدينة زرهون، وهي الجهة المواجهة للداخل من باب الحجر أحد أبواب المدينة المذكورة.

(64) انظر الروض الزيتون في أخبار مكناسة الزيتون لابن غازي ص 13.

(65) تاورا : حارة كبيرة تقع شرق مدينة مكناس، عن يمين الخارج من باب البرادعيين الذاهب إلى زرهون، وتشتمل هذه الحارة على مجموعة من الحواضر، لكن لم يعد اليوم معروفا باسمه القديم من حواضرها سوى حارة بني موسى، كما لم يبق اليوم من نسل سكانها بمدينة مكناس غير فخذتين وهما بنو حمو وبنو زغبو ، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 58، وفي الروض الزيتون لابن غازي ص 16.

(66) المراد بهم ملوك الدولة المرابطية، وهي الدولة العظيمة المشهورة التي حكمت المغرب العربي الكبير مع بلاد الأندلس زهاء مائة سنة، ومن أهم ملوكها الخليفة المجاهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني، باني مدينة مراكش ، وقائد معركة الزلاقة الشهيرة.

(67) ترزجين : ينطبق وصف هذه القرية حاليا في هذا الوقت على المكان المعروف ببرج العريفة، الكائن بحارة بني موسى، قريبا من الجنان المشهور بجنان العريفة، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 84، وفي الروض الزيتون لابن غازي ص 17.

(68) نسبة للدولة الموحدية، وهي من أعظم الدول الإسلامية المتعاقبة على الحكم بالمغرب، اتسعت حدودها الشرقية إلى برقة بليبيا، والجنوبية لأقصى شمال سينغال، بالإضافة لبلاد الأندلس التي عرفت أيام هذه الدولة استقرارا كبيرا، ومن أشهر ملوك هذه الدولة الخليفة عبد المومن بن علي الكومي، وابنه يوسف، وحفيده يعقوب المنصور مؤسس مدينة الرباط.

وكان الموحدون حينئذ يسمون الناس المجسمين ويقاتلونهم قتال كفر، وكان الناس يسمونهم خوارج(69)، ولم تزل الغارات تشن عليهم، ولا زال الجيش محاصرا للمدينة، وصاحب المدينة يبالغ في نكايتهم بالأخذ منهم، والخنادق لا تغني عن محلتهم شيئا، قيل أنهم حفروا أول خندق قريبا من المدينة، فضيق عليهم المرابطون ومن معهم في المدينة حتى رجعوا وراءهم، ويخندقون حتى أكملوا سبعة خنادق، وقيل : إنهم كانوا يحرثون وراءها ولا يخشون المحاصرة التي كانت قريبة من سبع سنين، حتى استعجل أمر الموحدين وافتتحوها وخربوها، حتى جاء بنو مرين(70) بعدهم، فبنوا قصبتها(71)، وشيدوا لها المساجد والمدارس والزوايا(72)، وكانت هي كرسي الوزارة، كما أن حضرة فاس الجديد هي كرسي الإمارة.

وكان أمير المؤمنين المولى إسماعيل(73) رحمه الله لا يبغي بها بدلا، فلما فرغ من أمر فاس رجع إليها، وشرع في بناء قصوره بها، بعد أن هدم ما يلي القصبة من الدور، وأمر أربابها بحمل أنقاضها، وبنى لهم سورا على الجانب الغربي، وأمر ببناء دورهم به، وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة، وزاده في القصبة القديمة، ولم يبق أمامه إلا الفضاء، فجعل ذلك كله قصبة، وبنى سور المدينة، وأفردها عن القصبة، وأطلق أيدي الصناع في البناء ومداومة العمل، وجلبهم من جميع حواضر المغرب، ولما لم يقنعه ذلك فرض العملة على القبائل مناوبة، فصارت كل قبيلة من قبائل المغرب تبعث عددا معلوما من الرجال والبهائم كل شهر، وفرض الصناع وأهل الحرف على الحواضر، واستمر المولى إسماعيل مقيما بمكناسة، قائما على بناء حضرته بنفسه، وكلما أكمل قصرا أسس غيره، واعتنى كل الإعتناء بما يلي القصبة، وجعل لها عشرين بابا عادية في غاية السعة والإرتفاع، مقبوة من أعلاها، وجعل في هذه القصبة بركة ماء عظيمة تسير فيها الفلك والزوارق المتخذة للنزهة والإنبساط، وهي المعروفة بصهريج السواني(74).

---

(69) انظر الروض القرطاس لابن غازي ص 19، وفي إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 87.

(70) نسبة للدولة المرينية التي حكمت المغرب العربي الكبير مع بلاد الأندلس مدة قرنين من الزمان، ومن أهم ملوكها السلطان يعقوب بن عبد الحق، وأبو الحسن المريني، وولده أبو عنان، وغيرهم.

(71) القصبة : بناها السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الزناتي في شهر شوال عام 671هـ، وتقع هذه القصبة اليوم وراء سورها المقابل للزمن وظهر السمن، وكان مسجد للا عودة الموجود داخلها يدعى سابقا بمسجد القصبة، ويقع في الوقت الراهن ضبط حدود هذه القصبة نظرا للتغييرات الكثيرة التي أحدثها بها السلطان المشهور مولاي إسماعيل.

(72) انظر الورقات القرطاس لابن غازي ص 36-37.

(73) إسماعيل بن محمد بن علي الشريف المراكشي العلوي، من خيرة ملوك الدولة العلوية الشريفة، اتخذ مدينة مكناس عاصمة لحكمه، بويع له بعد وفاة أخيه المولى رشيد عام 1082هـ، وكانت أيامه أيام ظفر وفتوحات، ومن أهم منجزاته تحرير الكثير من المدن الشاطئية من الاحتلال البرتغالي والاسباني، وكانت وفاته رحمه الله بعاصمته مكناس، عام 1139هـ، ومدة حكمه 57 سنة، انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 2 ص 50-76، وفي الدرر الناثرة لنزهة الحادي ص 29، وفي الأعلام للزركلي ج 1 ص 324.

(74) انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 138.

وجعل بها هريا عظيما لاختزان الطعام من قمح وغيره، مقبو القنانيط، يسع زرع أهل المغرب(75)، وجعل بجواره سواقي للماء في غاية العمق، مقبوا عليها، وجعل في أعلاها برجا عظيما مستدير الشكل لوضع المدافع الموجهة إلى كل جهة، وجعل بها اصطبلا(76) عظيما لربط خيله وبغاله، مسيرة فرسخ في مثله، مسقف الجوانب على أساطين وأقواس عظيمة، في كل قوس مربط فرس، وبين الفرس والفرس عشرون شبرا، يقال : إنه كان مربوطا بهذا الإسطبل اثني عشر ألف فرس، مع كل فرس سائس من المسلمين، وخادم من الأسرى يتولى خدمته، وفي هذا الإسطبل ساقية من الماء دائرة عليها مقبوة الظهر، وأمام كل فرس منها ثقب كالمعدة لشربه، وفي وسطه قباب معدة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة.

وفيه أيضا هري عظيم مربع الشكل، مقبوا لأعلى على أساطين عظيمة، وأقواس هائلة، لوضع سلاح الفرسان(77)، وينفذ إليه الضوء من شبابيك في جوانبه الأربع، وفوق هذا الهري من أعلاه قصر يقال له : المنصور(78)، ولا يقصر ارتفاعه من مائة ذراع، خمسون في الأسفل وخمسون في الأعلى، وفيه عشرون قبة، في كل قبة طاق عليه شباك من حديد يشرف منه أهل

(75) انظر إتحاف أعلام الناس لابن عيدان ج 1 ص 137.

(76) انظر إتحاف أعلام الناس لابن عيدان ج 1 ص 142.

(77) قال العلامة المؤرخ ابن عيدان : ومن المباني الفائقة بهذه المدينة الاسطبل أيضا هيكل الهري الماثل الآن فيه، وهو هيكل عظيم هائل اشتمل على أهرية منها : هري سبع قبب، وقد دخلنا هري سبع قبب هذا فوجدناه انتهى ب من بناء مهول مدهش ، يماثل عظمة بانيه، وكمال اقتداره، وبه سبع قبب محيطة بالقبة الوسطى التي هي سابعة القبب، يقال إن هذا الهري كان معدا لوضع السلاح الحربي فيه حتى يحتاج إليه، وقد كان السلطان العظيم الشان المولى الحسن عين هذا الهري لخزن البارود، ثم بعد مدا طرأ عليه ما أوجب نقل البارود منه، والطارئ الطارئ هو حدوث بال بمرضه لم يعهد فيه قبل، فنقل منه ووضع بهري مخر هذه، ولم يدخل مهما وما به إلى أن حل الدولة الحامية وألقته في يمين السواني، حيث التقمته أفواه قنوات مجاري مياهه أيام امتلائه، انظر إتحاف أعلام الناس لابن عيدان ج 1 ص 142.

(78) انظر إتحاف أعلام الناس لابن عيدان ج 1 ص 143.

القبة على بسيط مكناسة من الجبل إلى الجبل(79)، ويجاور هذا الإسطبل بستان على قدر طوله، فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب، طوله فرسخ، وعرضه ميلان، ويتخلل هذه القصور التي في داخل القلعة شوارع مستطيلة متسعة، وأبواب عظيمة، فاصلة بين كل ناحية وبين الأخرى، ورحاب عظيمة، مربعة معدة لعمارة المشور في كل جانب إلى غير ذلك، ولم تزل تلك البناءات على طول الدهر قائمة كالجبال، لم تسقطها عواصف الرياح، ولا كثرة الأمطار والثلوج، ولا آفات الزلازل، وكأن هذه البناءات نسخة من الأهرام، لتشييدها وعرضها واتساعها، وبالجملة إن مآثر هذا الملك العظيم، لو اجتمعت آثار دول جميع ملوك الإسلام لرجح بها ما أسسه في مملكته، وقد كان رضي الله عنه من أهل التصرف الظاهري والباطني، لم يزل في مقارعة أعدائه إلى أن دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها حتى تخوم السودان، وما وراء النيل، وانتشرت دولته في عمائرها، وبلغ في ضخامة الملك ما لم يبلغه غيره من ملوك الإسلام.

وقد فتح ثغورا ومراسي عديدة، وامتدت مملكته في جهة الشرق إلى بسكرة من بلاد الجريد ونواحي تلمسان، (والله أعلم حيث يجعل رسالاته(80)) وكل ما في هذه البلاد العجيبة الوضع من الآثار الهائلة فهي له أو لأحد بنيه، وكانت ولادته رحمه الله سنة 1056هـ، وتولى الخلافة وهو ابن ست وعشرين سنة، وتوفي سنة 1139هـ، فكانت مدة جلوسه على كرسي مملكته سبعة وخمسين سنة، وضريحه مشهور لدى الخاص والعام، مقصود للزيارة، وقد اشتهرت هذه البلدة التي أسسها على تقوى من الله ورضوان بالإسماعيلية، نسبة إليه قدس الله ثراه، ومن اليوم الذي توفي المولى إسماعيل، والملوك من بنيه وحفدته يخربون تلك القصور على قدر وسعهم، وبحسب طاقتهم، ويبنون بأنقاضها من خشب وزليج ورخام وقرمود ومعدن وغير ذلك إلى وقتنا هذا، فلم يبق في غالبها إلا الجدارات التي هي كالجبال الشامخة، مع ذهاب رونقها بمرور الأزمنة، وقد زالت سقفها، وذهبت أبوابها، ولم يبق منها إلا بعض المآثر من وجود سواري الرخام وقواعده التي أضحت على الطرق مرمية، وكل من شاهد تلك الآثار يعجب من عظمتها ويقول : ليس هذا من عمل بني آدم، ولا يقوم به مال، وغالب الناس من سكان المغرب، خصوصا أهل مكناس يعتقدون بأن ذلك من عمل الجن المستخدم، وصفة هذه المدينة على الحالة التي عليها الآن فيما رأيناه وشاهدناه أنها بلدة في فضاء متسع، حاطت بها أسوار من خارج، دائرة عليها بمن حولها متينة جدا، إلا أن لطولها دخلها التلاشي في بعض المواضع للمارة.

---

(79) في حدّ فخامة هذا القطر قال الوزير الإسماعيلي العلامة الأديب أبو حفص عمر الحراق رحمه الله الأبيات :

أنا قطر العتاق من الجياد ... بناني الله في نحر الأعادي
على يد عبده المنصور حقا ... وطبق على القطر بكل نادي
وكيف لا أطول على المباني ... وإسماعيل قد أسمى عمادي
وشيدني بتوفيق ويمن ... وعمرني بالجزاد
وروى بي الطليب وعابديه ... فنال العز من رب العباد
أدام الله ملكه في هنا ... وأعقاب إلى يوم التناد

(80) سورا الأنعام، الآية 124.

وقد دارت المدينة بسور متين، اتصلت به أبنيتها مصونة بأبراج لا تحصى كثرة، معدة لدفع ما يطرأ من الحوادث، وفي هذه البلدة جنات بهيجة داخل البلدة وخارجها، ولها أبواب وحومات وحارات، وهي أحد عشر بابا مشهورا، منها باب أبي العمائر(81)، وهو الباب الذي يدخل منه لمكناس من فاس على زيتون حمرية، وبجواره حومة أروى مزين، وقد وجدنا الإصلاح يستعمل في عقبة هذا الباب التي كانت مرتفعة، بقلع ترصيفه وتهيئته لترصيف جديد، وتوطئة القنطرة قبله، ثم باب تيزيمي(82)، وبجوارها حومة قاع وردة(83) والحبول(84)، وهو المحل المعد لربط دواب البقر، ومنه يخرج لجنات ورزيغة(85)، ثم باب البراذعيين(86)، بجواره قصبة تيزيمي(87)، ومرس جناح الأمان(88)، ومنه يذهب إلى جنات تاورا، وتقرب منه من خارج قصبة حرطان(89)، يسكنها الخلط(90)، ثم باب السيبة(91) بجوارها رحبة الزرع، وبالساحة المتصلة بها تباع الدواب يوم الخميس، ومنه تخرج الطوائف العيساوية لضريح الشيخ الكامل سيدي محمد بن عيسى(92)

---

(81) سبق التعريف به ج 2 ص 56 من هذا المجموع

(82) قال المؤرخ ابن حيدان : وموقع باب تيمي في الجانب الغربي الشمالي من المدينة، تنفتح دفتاه بين قوسين يسترهما سقف أعلاه غرفة معدة للقيم بحراسته، وخارج هذا الباب كانت سقاية السبيل المعروفة بسقاية الذهب، ولقد وصل إلى الآن سور آخر هذه السقاية شاخصا للعيان وكذا غاربها، إلخ ... انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 227.

(83) قال المؤرخ ابن حيدان : ومن تقسيس السلطان مولانا إسماعيل قبة قعر وردة التي لقاسمة العين والآسم إلى الحين الحالي، وكان تقسيسه إياها عام 1101هـ، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 158.

(84) قال المؤرخ ابن حيدان حول موقع الحبول : كان فيما ساف مربضا لبقر الأهالي المتجرين في بيع اللبن، الذي هو من أهم حاجيات تموين العاصمة ومن ضروريات مستشفياتها، وقد اختار الأقدمون من أهاليها مكان الحبول المذكور لاستقرار بقرهم، لما فيه من الجمع بين منفعة القرب والتحصين بسور العاصمة وبابها، ودفع مضرة عدوناتها بالتحاله بالباب والتحاله عن غالب المناحل، إلخ... انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 51.

(85) ورزيغة : من حواضر مدينة مكناس، انظر روض الآس لابن غازي ص 14، وفي إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 80.

(86) باب البراذعيين : باب واقع في غرب المدينة معروف بالآسم إلى اليوم، وهو مقابل لحجة درهون، ومنه يخرج القادون لها، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 226، وفي الروض الآس لابن غازي ص 31.

(87) قبة تيمي الكبيرا : تقع داخل باب البراذعيين، ولقاسم هذه القبة محهولة بالسكان إلى الآن، وسميت بتيمي لكون ساكنيها من قبيلة تيمي إحدى قبائل سجلماسة، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 170.

(88) انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 158.

(89) قبة حرطان : تقع بالجهة الغربية من مدينة مكناس، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 170.

(90) نسبة لقبيلة الخلوط القريبة من مدينة القصر الكبير، وهم عرب نقلهم للقبة المذكورا السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان، في شهر رمضان الحرام من عام 1270هـ، بهدف تدعيم وتعضيد الجيش البخاري، وعددهم على حسب رواية المؤرخ ابن حيدان 1500 رجل، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 171.

(91) باب السيبة : قال المؤرخ ابن حيدان : موقعه في الجانب الغربي الجنوبي خارج باب الجديد، بنى على عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، ولما أضرمت نار الفتن البربرية، وتشاحت عبث أهل الصيح والبغي، وآثار وآثام توالي النهب لكل ما وجدت إليه سبيلا خارج باب الجديد وبريمة، وتشاحت الضرر بالأهالي من سكان البلد وضاقوا ذرعا من ذلك، فبنى هذا الباب إذ ذاك على يد الباشا القائد محمد بن العواد الكبير، وهذا وجه إضافته للسيبة، إلخ... انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 228.

(92) الشيخ سيدي محمد فتحا بن عيسى الحادي السكياني المختاري المكناسي، من أكابر مشائخ الوفية في القرن العاشر الهجري، ولد بقرية مختار من قبيلة بني حسن بمنطقة الغرب بالمغرب عام 872 هـ، أخذ عن جماعة من الشيوخ منهم : الشيخ أبو العباس أحمد الحارثي السكياني، والشيخ الكبير

رضي الله عنه، ولجنات بني موسى، ثم باب سيدي سعيد(93)، ومنه تخرج الطوائف العيساوية للولي الصالح سيدي سعيد(94) فيزورونه، ويذهبون قاصدين للشيخ الكامل من خارج البلد، على طريق المحل المعروف (بوجه العروس)(95) يجاور هذا الباب اتصالا من داخل ملاح اليهود(96)، والصاكة، وقصبة بريمة(97)، ومن خارج قصبتا سيدي سعيد(98)، وقصبة تولال(99)، ثم باب زين العابدين(100)، ويجاورها المحل المعروف بالهديم، وفيه يعمر سوق البقر والغنم والمعز يوم الأربعاء.

سيدي عبد العزيز التباع، وعلى يده فتح له، والشيخ سيدي الحاج السنوسي، وأخذ عنه الطريقة التجانية مباشرة عن الشيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي.
وكانت وفاته رحمه الله بمقر سكناه بمدينة مكناس عام 933هـ، ودفن بمقبرة شيخه أبي العباس الحارثي خارج باب السبيبة، وقبره مقصود يتبرك به، انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 4 ص 11، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 186، وفي شجرة النور الزكية لمخلوف ص 264 رقم الترجمة 971، وفي ممتع الأسماع لمحمد المنوني القاسمي ص 80 رقم الترجمة 32.

(93) باب سيدي سعيد : قال المؤرخ ابن زيدان : ومنها باب سيدي سعيد، ويقال له باب الملاح، وباب وجه العروس، وموقع هذا الباب في الربع الغربي الجنوبي، وهو من تقسيس السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، أنشأه عند شدة البرابر عقب الطاعة، وامتداد تمردهم وإضرارهم بقبائل الزمة بناحية مكناس، حيث كانت حارتهم خارج سور البلد عن يسار الخارج من باب بريمة، إلخ... انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 229.

(94) الشيخ الجليل أبو عثمان سعيد بن أبي بكر المشنزائي، وفي جليل، قال في حقه الحاج محمد المحاسن : وكان من أكابر الأولياء، ومشاهير المشايخ، من زوي الهمم العالية، وقال في محل آخر : وشهرته بالولاية والبركة بلغت الغاية إهـ... وهو من تلامذة الشيخ الشهير سيدي سعيد الداعي الدغوغي، انظر ترجمته في ممتع الأسماع لمحمد المنوني القاسمي ص 124-127 رقم الترجمة 73، وفي الأعلام بمن حل مراكش للعباس بن إبراهيم ج 10 ص 141.

(95) وجه العروس : هو باب الملاح، ويسمى كذلك بباب سيدي سعيد، وفي تسميته بباب وجه العروس إشارة للمكان الذي يطل عليه هذا الباب، وهي حقول وبساتين خضراء، فيها بهجة ونضارة، ومعظم الخضر والفواكه التي تجبى للمدينة إنما تزرع في هذا الموضع.

(96) قال المؤرخ ابن زيدان : ومن تقسيساته (يعني السلطان مولانا إسماعيل) حارة اليهود التي بنى سكناهم الآن، أسسها عام 1093هـ، كما بتأليف الضعيف وغيره، وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة وإسكانهم بالمحل المقدس لأجلهم، فسكنوه، وأخلوا دروهم التي كانت وسط دور المسلمين بالمدينة، ثم سكنها أهل تافيلالت الذين بقاس بقمر من السلطان، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 157.

(97) قال المؤرخ ابن زيدان : ومن تقسيسات مولانا إسماعيل قصبة بريمة التي لاصقة قامة العين والآسم إلى الحين الحالي، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 157.

(98) قصبة سيدي سعيد : تقع خارج باب وجه العروس، ولاصقة إلى يومنا هذا قامة حافلة بالسكان، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 170.

(99) قصبة تولال : بناها السلطان مولانا الحسن الأول، وأول ساكنيها من تافيلالت بالحراك، أتي بهم بعد تمردهم بالمنطقة المذكورة، فسكنوا أولا بدار دبيبغ بضاحية فاس، ثم نقلهم السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان لمدينة مكناس عام 1282هـ، وأدرجهم في الجيش البخاري، وكانت سكناهم إذ ذاك في الخيام، ثم بنى لهم السلطان مولانا الحسن الأول القصبة المذكورة التي هي مستقرهم الآن، وموقع هذه القصبة غربا من المدينة، وقد أحدث بها اليوم عدة دور ومسجد للصلاة، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 217.

(100) قال المؤرخ ابن زيدان : ومنها باب عين العابدين، وموقع هذا الباب في الجانب الغربي الجنوبي، على يسار الخارج من باب منصور العلج لبطحاء الهديم، بنى هذا الباب المولى عين العابدين بن السلطان الأعظم المولى إسماعيل أيام إمارته، تنفتح دفتاه بين قوسين يعلوهما سقف فوقه غرفة، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 229.

وفيه باب منصور العلج(101) الذي كان قديما باب دار المخزن، وعلى دكاكينه يحكم عامل البلد الآن، ومنه ينفد للمحل الخاص بالشرفاء العلويين، المعروف بالستينية(102)، والدار الكبرى التي كانت دار الملك المولى إسماعيل قدس الله روحه، والستينية قصر من جملة قصورها، ويجاور الباب المذكور من داخل المدينة جامع الأنوار(103)، وقد صار اليوم محلا لمأوى المساكين المخزنية، واتخذ قشلة لهم، وبجواره قبة الخياطين، وهي قبة عظيمة مرتفعة، معدة لوضع آلة الحرب، وبساحتها حبس قارة(104) المبني تحت الأرض ببناء عجيب متقن الوضع بالبلاطات، مفصول بعضها من بعض، وأقواسها مرتفعة تحت الأرض، يمر عليها المارة ولا شعور لهم بما تحتهم من هذا البناء الذي اتسع وامتد، ولم يقفوا له على حد لكونه تحت الأرض.

وهناك باب يقال له باب البوصلي، يفضي لضريح المولى إسماعيل، ومنه لأسراك(105) الممتد إلى المحنشة(106)، ثم باب ابن القاري(107)، وتجاورها قصبة بني محمد، وقصبة توراكة، وقصبة سيدي عياد، ومن هذا الباب يخرج لصهريج السواني، وهناك الهريان العجيبان، وهذا الصهريج مع الهريين يدهش الناظرين من اتساع أركانها، وإحكام بنائها، المضروبة كلها في قالب

---

(101) انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 190.

(102) من أعظم وأفخم القصور الإسماعيلية بمكناس، يمتد طوله على 100 متر وعرضه على 50 مترا، وفيه من الروعة والجمال ودقة الصنع ما ليس في غيره، ووجه تسمية هذا القصر بالستينية وجود قبب به لها مثيد أبهة وبهجة، ومن جملته كونها مسقفة بالعمل المعروف عند أهل حرفة النجارة بالستيني، فتعطيه التسمية للقصر كله من باب تسمية الكل باسم الجزء الأعظم إلخ ... انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 124.

(103) جامع الأنوار : لا زال يعرف بهذا الاسم إلى يومنا هذا، وهو عن يمين الداخل إلى القبة الإسماعيلية من باب منصور العلج، شيده السلطان مولاي إسماعيل، وكان في غاية الجمال والسعة لما احتوى عليه من قبب بديعة، وقوائم رخامية، من الزخرفة الأندلسية الرفيعة الطابع، أنظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 159-164.

(104) قال المؤرخ ابن زيدان : ومن تقسيساته السرداب الهائل الكائن تحت أرض فسيح قبة الخياطين، وهو الأساطين المحكمة البناء، والأقواس الضخمة الشاهقة، تمر فوقه الركبان، وتجر الدواب عليه الصخور العظيمة، وتسير عليه السيارة البخارية المشحونة بالأثقال الهائلة بال، كذا الليل وأطراف النهار، بل جعلت فوقه جنات وأشجار وبقول، وتارة تسقى بالماء كل يوم فلم يظهر عليه شيء مما ذكر.
يعرف هذا البناء اليوم بحبس قارا، ويقال أنه كان من جملة السجون المعدة لأسارى وغيرهم من أصحاب الجرائم العظيمة، يبيتون به ليلا ويخرجون نهارا للخدمة، قال أبو القاسم الزياني : وكان في سجونه من أسارى الكفار خمسة وعشرون ألف أسير ونيف، وكان يخدمون في قصوره، منهم الرخامون والنقاشون، والحجارون، والحدادون، والبناءون، والنجارون، والسواقون، والمهندسون، والمنجمون، والأطباء، ولم تسمح نفسه بفداء أسير بمال قط، وإنما كان يفدي ببعضهم من أسر من المسلمين، وكان في سجونه من أهل الجرائم العظيمة كالسارق والقاطع والقاتل نحو 30000، كلهم تقيل بالخدمة من أسارى الكفار، ويبيتون بالسجون والدهاليز تحت الأرض، إلخ... انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 135.

(105) انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 216.

(106) المحنشة : من أفخر قصور السلطان مولاي إسماعيل بمدينة مكناس.

(107) قال المؤرخ ابن زيدان : ومنها باب ابن القاري، موقعه في الجانب الغربي من المدينة، وهو باب محكم البناء، يعلوه برج هائل، يشتمل هذا الباب على بابين، إحداهما يدخل منه لناحية القصور الملكية من جهة الصريح السواني، والآخر يدخل منه لناحية الأروقة الإسماعيلي ومساكن الجيش الملكي الذي كان بمثابة الحرس، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 229.

واحد، علوا وعرضا، وفيه أحد أبواب أكدال، وفي هذا المحل قصبة الوصفان المعروفة بباب مراح، ثم باب البطيوي(108) بجوار القصر المعروف بالمنصور، وهو باب عجيب، ويجاور المسجد المعروف بجامع الأزهار، وهو مسجد عظيم وحذاءه هربان عظيمان تحت الأرض، وهناك أحد أبواب أكدال، وبخارج هذا الباب قصبة الكدارة(109)، ثم باب كبيش(110)، تجاوره حومة الجبابرة وحومة المعاركة، وحومة زعير، وحومة الشاوية، وكراوة، وحومة الزيتون، ثم باب الناعورة(111)، بجواره دار المخزن المسماة بالمحنشة، مع جنان ابن حليمة(112) المستع الأكناف، المتصل بأكدال، ومن خارج تتصل به قصبة هدراش(113)، ثم باب المرس(114)، بجواره قصبة سيدي عمرو الحصيني(115)، ومن خارج غرسة اليزيدية، وجنان كيتان، والمنصورية، إلى غير هذا مما يكل اللسان عن وصفه.

---

(108) قال المؤرخ ابن حيدان : ومنها باب البطيوي، موقعه في الجانب الغربي، وهو باب متقن البناء في غاية الإحكام، يدخل منه لناحية الأروى الإسماعيلي، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 230.

(109) قبة الكدارا : أسسها السلطان مولاي إسماعيل، قال المؤرخ ابن حيدان : أما قبة الكدارا فنسبتها لقرقة من فرق الجيوش المولوية، أنشأها بها مؤسسها على ضريحه طيب الرحماء، وموقع هذه القبة في الجهة الجنوبية من المدينة، وهي الآن خراب بيد المكلف بالأملاك المخزنية يكتريها منه من شاء، لكون عمارتها الأصلية بطلت، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 171.

(110) باب كبيش : قال المؤرخ ابن حيدان : ومنها باب كبيش بصيغة التصغير، موقعه في الجانب الشرقي في ناحية الأروى الإسماعيلي.

(111) باب الناعورا : قال المؤرخ ابن حيدان : ومنها باب الناعورا، وموقعه في الجانب الشرقي الشمالي، يعلوه برج عظيم هائل، محكم البناء، عجيب الإتقان، وقد أحدث السلطان العظيم الشان المولى الحسن في هذا البرج بيتا هذا الباب بابا فخر قبالة قصر المحنشة السعيد، ومنه اليوم مرور كل صادر وارد ممن يأتي من ناحيته، ووراء هذا الباب باب فخر يعرف بباب الناعورا البراني، وهو حديث البناء، ولم أستحضر الآن بانيه، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 230.

(112) انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 193.

(113) قبة هدرا : أنظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 146.

(114) باب المرس : قال المؤرخ ابن حيدان : ومنها باب المرس، وهو لناحية القبلة، وإنما أضيف للمرس لوقوع المرس الإسماعيلي الهائل خارجه، والمرس المذكور هو من أعظم الآثار الإسماعيلية، وقد أدركنا هذا المرس يعمر بما يجبى إليه من فكوك الإيالة المولوية المجاورا للديار المكناسية، وعليه قيمون يحرسونه، وأمناء على محتوى ما تجبى إليه سنويا، إلى أن اختل الحال بحدوث الترتيب والضرائب الوقتية، انظر إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 1 ص 230.

(115) الشيخ عمر بن مبارك الحبيني، نسبة لحبين بالتصغير، فخذ من قبيلة بني حسن، بمنطقة الغرب، بشمال غرب المغرب، فقيه زاهد كثير التنسك والإنقطاع إلى الله تعالى، أخذ عن الشيخين الجليلين سيدي أحمد بن عمر الحارثي السكياني، وسيدي عبد العزيز التباع، وكانت وفاته رحمه الله بمكناس عام 910هـ، ودفن بروضة رأس التاج، وضريحه من أشهر المزارات المتبرك بها بمكناس، انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن حيدان ج 5 ص 495. وفي ممتع الأسماع لمحمد المنوني القاسي ص 81 رقم الترجمة 33.

وقد وجدنا العسة على كل باب من هذه الأبواب من العسكر المنظم للحراسة، فدخلنا من باب أبي العمائر، بعدما تلقانا الجم الغفير من الإخوان خارج البلد، فأخبرناهم بأننا افترقنا في الطريق مع سيدنا محمود رضي الله عنه عن مسافة بعيدة، فمنهم من واصل المسير كالجماعة التي تلاقيناها مع صهره الأبر سيدي الحاج محمد دادي، حيث كان تقدم صباحا لمكناسة لينظر المحلات المعدة للنزول، وبعد قضاء مأموريته رجع ومعه نحو أربعين بغلة من الإخوان، فكان محل ملاقاتنا معهم قرب الجديدة، وقد واصلوا المسير حتى يتلاقوا مع سيدنا محمود، وسرنا قاصدين مكناسة، والمطر غزير، ثم تلاقينا مع نحو الستين من الإخوان راكبين، خرجوا أيضا للملاقاة بالمحل المعروف بالعواج، فرجعوا معنا للمدينة، حيث أن دخول سيدنا محمود لا يمكن إلا بعد الغروب، وأخبرونا بأن حاكم المحلة التي هناك كان مستعدا لملاقاة سيدنا محمود، مع بعض الحكام بها، إلا أن المطر صار مانعا من الإحتفال لهذه الملاقاة عند الدخول، لكن أخر الإجتماع إلى اليوم الثاني من يوم الدخول لمكناسة، فاجتمعنا به.

فرأيت من تعظيم الجنرال وخليفته، والكمندار وترجمانه لحضرة سيدنا محمود ما تعجبت له غاية التعجب من الإحتفال التام، والبشاشة المنوطة بالأدب اللائق مع سيادته، ومقابلة سيدنا محمود لهم بما يناسب مقامهم، لإعطائه المراتب حقها بموجب التجلي الإلهي الوقتي الذي يجب الإذعان إليه، وكنت حالة الإجتماع بالجنرال معه، وثالثنا صهره الأبر سيدي الحاج محمد دادي، فكانت ساعة من عجيب السوائع التي قل ما رأيت مثلها في عمري، وأتمنى لو رأى ذلك إخواننا المغاربة ليتأدبوا بآداب سيدنا محمود، وينظروا ملاقاة حكام الوقت لحضرته، فيتحققوا بأن هؤلاء الحكام يقدرون قدر أهل الديانة، خصوصا أهل هذه الطريقة التجانية، التي هي عندهم معظمة، محترمة في الوطن وفي غيره، لكونهم مشتغلين بما يعنيهم، ولا يتداخلون في أمر من الأمور، وهكذا رأيت احتفال حاكم المحلة النازلة بدار الدبيبغ قرب فاس حين تلاقيا، وكنت معه في تلك الملاقاة، فهش لملاقاته وبش بعد أن استدعاه، وقد ذهب معنا ترجمانه للتلغراف البرقي هناك، لنرى استخدامهم، فرأينا ما أبهرنا عندما صار البرق يلمع باحتكاك الكهرباء بدوران مكينتها التي يتعجب ناظروها، مما اشتملت عليه من العجائب، مما لم تفصح عبارة عن وصفه، ولا يفي به بيان، ولا يقبل ما يقوله الإنسان فيه، إلا من رآه بالعيان.

وقد دفع إلي هناك المهندس الكبير المكلف به آلة السمع التي تستعمل على الأذن لتلقي الكلام البرقي عند المخاطبة، فسمعت صوتا مهموسا نحو الثلاث كلمات ما عرفت لها معنى، إلا أن المتلقي لها كتبها، ونحن ننظر إليه، ذاكرا أن ذلك الصوت من قرب الشاوية، ورأينا هناك ما لم نقدر له وصفا، كل ذلك مع مراعاة الأدب اللائق بسيدنا محمود، ومقابلته لهم بما يليق بهم، من الإحترام الذي يقتضيه المقام، رعاية للقوانين المرعية لدى الخاصة والعامة بين أهل الوطن وغيرهم، مما لا يعرف قدره إلا من سافر ورأى من الأجانب وما لهم من الإحتياطات، والمحافظة التامة على إجراء الأمور على منهاجها لديهم، فلا يدخل داخل إلا بتسريح(116)، ولا يخرج إلا بتسريح، وإلا رأى من المكر ما يستحقه، بترك المطلوب منه، في اتباع الطريقة القانوية، فيتعين حينئذ السلوك عليها بين العامة والخاصة، ولا فرق في ذلك بين من صغر شأنه أو كبر، إما بعز أو بذل.

(116) التسريح : الترخيص والإذن.

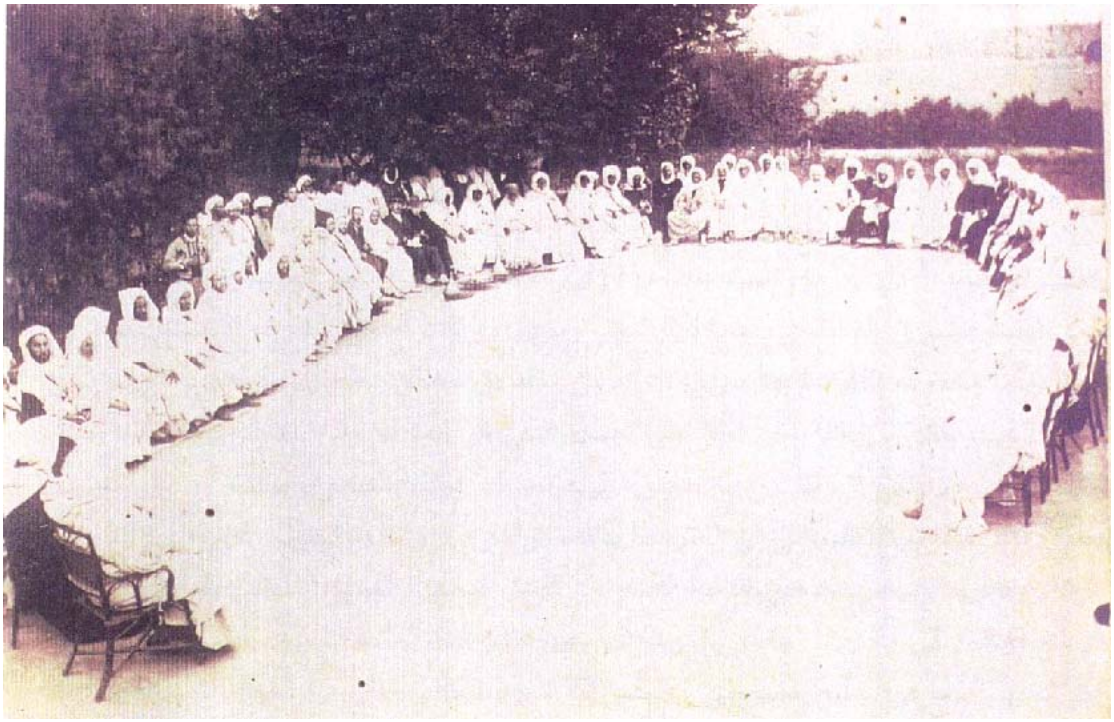

صورة لإحدى احتفالات الفقراء التجانيين بمدينة مكناس بمقدم الشريف البركة سيدي محمود التجاني و قد التقطت هذه الصورة عام 1329ه_1911م

وقد شاهدنا في ملاقاة هؤلاء الحكام لسيدنا محمود باحترام له ما تحقق لنا بأن ذلك غير مستعمل باليد، وإنما هو لسر رباني، ظاهر لدى كل واحد، وقد اقتضى المقام ذكر هذا على سبيل الإختصار، حتى لا يفوتنا الكلام على مثل هذا ونحوه مما شاهدناه في هذه الرحلة، لتكون مرآة يرى تمثال ما رأيناه متجليا فيها، مصورا على هذه العجلة.

ذكر بعض من تلقانا بمكناس، وكيف كان التلقي

ثم إن الإخوان الذين تلاقونا رجعوا معنا، وكان من جملتهم المقدم الأمجد، الفاضل الأسعد، الفقيه الوجيه، العدل النزيه، السيد بلقاسم(1) بن المقدم الأفضل، أحد خاصة أصحاب سيدنا سيدي محمد بلقاسم بصري المكناسي، فتلقانا بترحيب وتأهيل، وتقدم أمامنا لداره، فدخلت مصاحبا لرفيق كاتب سيدنا محمود، الفقيه النبيه سيدي محمد بن سعد بن مسعود الريعي لمكناسة، ولم ندر إلى أي محل نذهب، حتى أتى الله بمن دلنا على المحل الذي هو معد لنزولنا، إلا أنه ذهب بنا لدار المقدم فنزلنا بها عنده، فتلقى نزولنا بوجه طليق، فوجدناه قد استعد لدخول سيدنا عنده بالحليب والتمر، فتلقانا بعد الجلوس بذلك، إلى أن استرحنا بذلك، وأكرم نزولنا، وتغدينا عنده، وأزلنا أولا ثيابنا المبلولة، وقدم لنا مجامر التبخير المشعولة، وعند قصد تبخيره لثيابي حدثني بما تتروح به النفس والروح قائلا : في الحديث "عليكم بالعود الهندي، فإنه فيه ثلاثة أشفية، منها ذات الجنب" أقول : لفظ الحديث كما في جامع السيوطي "عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفية، يستعط به من العذرة، ويلد من ذوات الجنب، خ عن أم قيس(2) إهـ.

ولما استرحنا طلبنا منه أن يوجه معنا من يوصلنا للمحل المعد لنزولنا، فخرجنا من عنده شاكرين لجميله، وذهبنا لمحل النزول، فدخلنا لدار متسعة الأرجاء، ذات بيوت ثلاثة، مفترشة بفرش نظيفة، عليها رونق بهيج، وهي دار السيد إدريس بن بوشتة، أحد الإخوان المستخدمين مع المخزن، وكان نزول سيدنا برياض المرحوم السيد المكي التراب، أحد أصحاب سيدنا رضي الله عنه، بالمحل المسمى بين العراسي، بين العشائين، ومحل نزولنا قريب منه بحومة جامع الزيتونة(3)، وعلى الطريق التي مررنا عليها مررنا على المجذوب مولاي أحمد الوزاني، أحد المجاذيب المسلم لهم بهذه البلدة، ومحل جلوسه في المحجة الفاصلة بيننا وبين طريق الرياض المذكور، وهذا الشريف له أحوال تعتريه، وهو بمحله منذ أزمان، لا ينتقل عن ذلك المكان، لا صيفا ولا شتاء، ولا ترى له فضلة على ما أخبرونا بهذه الأحوال، وقد أصبح في وجهنا يوم الجمعة المباركة، ونحن بهذا المنزل على أحسن حال ولله الحمد.

---

(1) انظر التعريف به في ج 2 ص 110-120 من هذا المجموع.

(2) ذكره السيوطي في الجامع الصغير ج 2 ص 65، وعزاه للبخاري عن أم قيس، ورواه البخاري في صحيحه في كتاب الطب، باب السعوط بالقسط الهندي والبحري رقم 5368.

(3) مسجد الزيتونة : من خيرة مساجد مدينة مكناس، أسسه السلطان المولى إسماعيل عام 1099 هـ، انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 169.

وبعد صلاة سيدنا لصلاة الجمعة بجامع الزيتونة ذهب قاصدا لدار المقدم بلقاسم، حيث أنه هيأ له الغداء، وقدم معه الجم الغفير من الإخوان، فكانت ساعة مباركة، من كثرة الأنوار الساطعة بحضور سيدنا، مع ذلك الجمع المبارك الذي حف الحاضرون فيه بسور الحفظ والعناية، وفازوا فيه بالتوفيق للنظر في وجه سيدنا المنوط بالرعاية. وقد هنيت الإخوان الحاضرين بالتمتع بالنظر في وجه هذا السيد المحمود فعله، المشمول برداء الشرف الأتم أصله، ولا شك أن النظر في وجهه مثل النظر في وجه سيدنا رضي الله عنه، والنظر في وجهه يوم الجمعة ويوم الإثنين يقضي بالسعادة الأبدية، من عام النظرة الخصوصية، التي قيل له فيها : اخرج لعبادي فمن رآك فقد رآني(4)، وهذه النظرة الخصوصية موروثة عن سيدنا رضي الله عنه، ورثها عنه الخاصة من أصحابه، فمن رأى الوارث كان كمن رأى موروثه، وأفضل وارثيه على الإطلاق أولاده، وأولاد أولاده ما امتدت فروعهم وتناسلوا، زاد الله في مددهم.

ولا شك أن سيدنا محمودا رضي الله عنه رأى والده سيدنا محمد البشير، وهو رأى والده سيدنا محمد الحبيب، وهو رأى صاحب هذه الخصوصية القطب الرباني، سيدنا ومولانا أحمد التجاني، سقانا الله من بحر عرفانه بأكبر الأماني، فمن رآه بهذه النية نال هذه المزية، خصوصا مع اعتقاد أنه من أهل الإصطفاء، لأن النافع هو النظر مع الإعتقاد، وعدم الإعتراض والإنتقاد. وقد حكوا أن بعض الأمراء شد الرحلة لزيارة أبي يزيد البسطامي قدس سره، فلما وصل إلى المحل الذي كان به وجده قد توفي، فسأل عمن يعرفه من أصحابه، فقيل له : هنا شيخ كبير، فأتى إليه فقال له : هل رأيت أبا يزيد ؟ فقال : رأيته وسمعته يقول : من رآني أو رأى من رآني لا تمسه النار، فقال : كيف يكون هذا ؟ وأبو لهب قد رأى النبي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك فقد دخل النار ؟ فقال له الشيخ : إن أبا لهب لم يرى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما رأى يتيم أبي طالب إهـ...

اجتماعنا بنقيب الشرفاء العلويين مولاي عبد الرحمان بن زيدان(5)

وبين العشائين جاء للإجتماع بنا بمحل نزولنا، نقيب الشرفاء العلويين، العلامة الفاضل، الجامع لشتات المكارم والعرفان خصوصا، مولانا عبد الرحمان بن زيدان، وقد تأسف على عدم خروجه لملاقاتنا، وشرع في المعاتبة، على ترك إعلامنا له بالمكاتبة، وكنت أعلمته بفاس على طريق البوسطى(6) الفرنسية، إلا أن الكتاب لم يصله، كما لا تصل غالب المكاتب إلى أهلها غير ما مرة مع هذه البوسطى التي كانت فائقة على غيرها من البوسطات، وقد صارت لهذا العهد تضيع المكاتب العديدة على طريقها، ونفرت نفوس غالب المغاربة من توجيه مكاتبهم معها، مع أنه من حقها ينبغي تقدمها على غيرها أمام البوسطات، خصوصا في هذا الإبان، بما لها من التداخل في الإصلاحات بحكم المجاورة المغربية، ورعاية حقوق الوطنيين، والتهاون في هذا غير سائغ، ولا بأس بالتنبيه على مثل هذا عسى أن يجد له آذانا واعية، فينظر لذلك بعين التبصر من المكلفين بالمراقبة على الأمور، ليقع التمشي على القوانين المرعية، حتى لا تضيع الحقوق العمومية والخصوصية، وقد كنت وجهت له طي الكتاب المذكور هذه الأبيات :

---

(4) للعبادا في التوضيح انظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 289.
(5) سبق التعريف به في ج 1 ص 16 من هذا المجموع.
(6) البوسطى : بمعنى البريد

دعاني داعي الشوق من بين إخواني إلى حضرة الولي النقيب ابن زيدان
وأزعجني حتى غدوت مولها بـما بالجوى لاقيته منذ أزمان
ولما احتملت ما احتملت ولم أجد لنفسي اصطبارا للذي فيه أفناني
أتيت إليه طالبا منه قربه وجئت بمحمود المساعي ابن تجاني
وها أنا ذا استظللت تحت جناحه لعلي أن ألقاه من بين إخواني
وغاية مطلوبي دوام وداده وحبي فيه كامل دون نقصان

ثم صار الإخوان يتواردون عليه لزيارته في كل يوم، وإذا خرج من عنده قوم جاء آخرون، وقد ذهبنا مع سيدنا محمود إلى بعض مواقع سكناهم، حيث ألحوا عليه للقدوم عندهم للتبرك به، فذهبنا يوم السبت للمحلة التي هي خارج البلد من باب أبي العمائر، للإجتماع بالجنرال بعد الإستدعاء منه، فذهبنا عنده رعاية للقوانين التي يجب سلوكها، حتى لا يقع تشويش للجانبين في الجولان في هذه الأقطار، خصوصا في هذه الأوقات التي اتقدت فيها نيران الفتن، وفي يوم الأحد بعد صلاة العصر ذهب سيدنا محمود وذهبنا معه لدار السيد محمد بن المكي ابن القاضي، باستدعائه للتبرك به، فدخلنا عنده مع جماعة من الإخوان، فوجدناه قد هيأ وليمة حافلة لدخول سيدنا عنده، وكان ذلك موافقا لاستعمال عرس أحد أبنائه، فكان بحضور سيدنا محمود مباركا سعيدا، ومن الساعة التي دخلنا عنده وأصحاب السماع ينشدون، وأول ما أنشدوه قول أبي مدين(7) رضي الله عنه :

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

ثم نهض سيدنا محمود ونهضنا معه، وركب وركبنا، وذهبنا في تكميل هذه العشية بصهريج السواني، فكانت عشية مبتهجة، تتسلى بها كل مهجة، على اتساع ذلك الصهريج الذي هو بحيرة تضاهي بحيرة سارة في الإتساع، وهو مع الهري المتصل به من أعجب ما يراه الناظر، وتعجب له أهل الإختراع، وكأن لسان حال هذه المآثر الموجودة بهذه المدينة الغراء، يقول على لسان من بناها من القدماء :

(7) الشيخ الجليل أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني، من أعيان المشايخ الTوفية، أTله من أحواs إشبيلية بالأندلس، بقرية تدعى : قطنيانة، وبهاا ولد عام 515هـ، ثم ارتحل للمغرب فقام بفاس مدا غير قTيرا، ومنهاا انتقل لبجاية بالقطر الجsائري، وكانK وفاته رحمه الله عام 594هـ، ودفن بقرية العباد المجاورا لمدينة تلمسان، عن 85 سنة من عمره، انظر ترجمته في سلوا الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 364، وفي جRوا الاقتباس لابن القاضي ج 1 ص 530، رقم الترجمة 609، وفي الطبقاK الكبرğ للشعراني ج 1 ص 154 رقم الترجمة 275، وفي شجرا النور الزكية لمخلوف ص 164 رقم الترجمة 508، وفي الديباج المRهب لابن فرحون 127. وفي شRراK الRهب لابن العماد ج 4 ص 303، وفي الأعلام للزركلي ج 3 ص 166.

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ثم رجعنا مارين على الطريق الموصلة لضريح الولي الصالح المشهور بسيدي سعيد(8)، محل جلوس المجذوب المعروف بسيدي منصور(9)، المشهور عند أهل مكناسة بالكشف الصريح، فسمع به سيدنا محمود فأحب الوقوف على حقيقة أمره فقصدناه، غير أني استعملت في الطريق هذين البيتين، في خطاب هذا المجذوب بلامين :

يا سيدي منصور لست بزائر لكنني قد جئت خلف إمام
لا أبتغي مددا لديك لأنني شيخي كفاني نيل كل مرام

ومن الأمر العجيب من أحوال سيدنا محمود رضي الله عنه، أنني استعملت هذين البيتين، وخطر ببالي معنى الزيارة التي منعنا منها في طريقتنا المحمدية، حتى لا نجتمع بولي من الأولياء مما تخل به الرابطة بين المريد وشيخه، وكان هذا الخاطر موافقا لوصولنا لضريح الولي المذكور، فبمجرد وصولنا لوى العنان عن ذلك المكان، ورجعنا معه لمحل النزول.

وفي زوال يوم الإثنين قدم لمكناسة مقدم زاوية شراكة المشهور بين الإخوان بالمقدم ابن سلطان(10)، وهو رجل ذو شيبة منورة، وسريرة مطهرة، قد تلاقى مع جل أكابر الطريقة فيما حدثنا، مثل المقدم الكبير العارف الشريف سيدي محمد بن أحمد أكنسوس(11)، والعارف بالله الولي الصالح سيدي العربي بن السائح(12)، والولي الأشهر سيدي العربي الشهير بالموساوي العلمي(13)، ويحكي عنهم أمورا عجيبة، وأحوالا غريبة، حصلت له معهم، وقد جاء من محله

---

(8) سبق التعريف به في ج 2 ص 62.

(9) أبو عبد الله سيدي محمد منصور بن محمد بن عبد القادر، من قرية الولي الشهير سيدي سعيد بن أبي بكر المشنقي، دفين خارج باب الخميس من مدينة مكناس، مجذوب ساقط التكليف، وكشف واضح وأحوال خارقة، أخذ عن الولي الصالح سيدي عبد القادر العلمي، ولم يعده عن سيدي عبد الكريم بن الرضي الوزاني، وكانت وفاته رحمه الله عند ظهر يوم الأحد 22 ربيع الثاني عام 1334هـ، ودفن من يومه بضريح جده المذكور، في قبة الذكر، انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 4 ص 296.

(10) سبق التعريف به في ج 2 ص 51 من هذا المجموع.

(11) سبق التعريف به في ج 1 ص 202 من هذا المجموع.

(12) سبق التعريف به في ج 1 ص 308 من هذا المجموع

(13) الولي الصالح العلامة الشهير سيدي العربي بن إدريس بن محمد بن العربي بن عمر العلمي اللحياني، ولد بمدينة فاس، ومنها انتقل لقبيلة زرهون، فاستقر بقرية موساوا، وبها لقي الله تعالى في ليلة السبت 15 جمادى الثانية عام 1320هـ، وشيوخه في العلم كثيرون منهم : أبو عبد الله سيدي محمد بدر الدين الحمومي، وسيدي محمد الأمين الزيتي الحسني العلوي، وأبو الحسن سيدي علي التسولي، وسيدي علي المريني، وسيدي محمد بن عبد الرحمان التيلالي الحجرتي، وسيدي محمد الطالب بن حمدون بن الحاج، وسيدي أبو بكر بن كيران، وسيدي الحاج الطالب بن عبد الرحمان السراج، وسيدي إدريس بن عبد الله الحسني الودغيري الملقب بالبكراوي، وغيرهم.
وهو رحمه الله من أكابر المقدمين في الطريقة الأحمدية التجانية، أخذها عن البركة المقدم سيدي

لزيارة سيدنا محمود رضي الله عنه، حيث أنه لم يعرج على طريقه في سفره، بعدما كان هيأ لملاقاته ما هيأه، وأعلم الإخوان القاطنين بشراكة والحياينة وأولاد عيسى وغيرهم ممن أتوا لملاقاته بمحله، وبقي في نفسه شيء من عدم مرور سيدنا محمود على طريقه، وكان قبل السفر وجه بعض البهائم لحمل أثقال سيدنا محمود لرباط الفتح، إلا أنه لما لم يمر بطريقه طلب رد البهائم إلى أهلها، معتذرا بأنها ليست له، وأنه كان هيأ بهائم أخرى توصل سيدنا محمودا لأولاد عيسى، ومنها إلى الإخوان بعددهم، فيحملون أثقاله، وهكذا إلى أن يصل للرباط، فلما سمع بهذا سيدنا محمود رضي الله عنه، كلف سيدنا رضي الله عنه صهره الأبر سيدي الحاج محمد دادي بشراء عشرة دواب لحمل بقية أثقاله، وهذا هو المناسب لحاله.

ذكر استدعاء النقيب مولاي عبد الرحمان بن زيدان لنا

ثم جاء لمحل نزولنا في هذا اليوم الشريف النقيب، لانتظار ذهاب سيدنا محمود لرياضه البهيج، ولما طال انتظاره كتب هذين البيتين ووجههما إليه :

يا من بهم قد زها(14) الوجود	بوصلكم للغريم جودوا
طال انتظاري إلى علاكم	ونار شوقي لكم وقود

وبعد ساعة زمانية ركب سيدنا بقصد الذهاب إليه، ولما وصلنا صلينا العصر هناك، وحضر عنده جماعة من السادة الشرفاء العلويين، وغيرهم من الفقهاء المبجلين، مثل الأخ الأفضل الفقيه الكاتب الأجل، أبو بكر سيدي محمد الغالي السنتيسي(15) التجاني طريقة، تلاقى مع سيدنا محمود رضي الله عنه بعد الفراغ من الصلاة، وأتى مصاحبا لقصيدة في مدحه، فقرأتها بحضرته، يقول في مطلعها :

بوعزا بن الخليفة المعظم الحاج علي حراكم برادا التاسي، كما أجاه فيها آخرون، وانتظم كثيرا بالحبة الولي الصالح أبي المواهب سيدي محمد العربي بن الساحل، حيث نال منه فوائد وفرائد وأسرار عالية.

وله عدا ما ذكرنا أشارها : رسالة الترغيب والترهيب، في جزئين، حول الطريقة التجانية، ومنها الجواهر الأرجوزا في نفس الموضوع سماها : منحة الإخوان، مشتملة على 1913 بيتا، ومنها قيدا عينية جميلة في نفس الموضوع، وتقييد في آل البيت سماه : العتب والحجر لمن واجه بعض أهل البيت بالسب والبجر، وتقييد في الرد على المنكرين للطريقة التجانية، ومن أهم كتبه تأليف نفيس في علم القراءات، في بيان مخرج الضاد المعجمة والتاء الفوقية سماه : القول الناوي والجواب الفامي، وغير الجواهر من الرسائل والتقاييد المهمة.

انظر ترجمته في فتح المالك العلام للفقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 45، وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية لنفس المؤلف ج 5، وفي نخبة الإتحاف لنفس المؤلف الجواهر رقم الترجمة 139 وفي نيل المراد لنفس المؤلف ج 1 ص 86، وفي التحتين الأخيرتين من كتابه الترغيب والترهيب حيث عرف به فيهما تلميذه الفقيه العلامة سيدي محمد الحسن بن عمر مزور.

(14) زها : أشرق وزهر

(15) سبق التعريف به في ج 1 ص 398 من هذا المجموع.

باب السعادة فتحت في الحال أم شمس فتح أشرقت لوصالي

إلى آخرها لتنظر في ترجمته، وقد حلت محل القبول من سيدنا محمود، ودعا له بما يرجى قبوله، ثم ركبنا مع سيدنا رضي الله عنه، وخرج للمحل المعروف بأكدال للتفسح، فشاهدنا هذا المحل المتسع، ورأينا فيه النعامة والظليم(16) من الطيور القاطنة به منذ قديم، ثم بعد الرجوع للمحل أطلعني سيدنا الشريف النقيب على هذين البيتين في خطاب سيدنا محمود، في بلوغه للمقصود، وهما :

بلغت القصد يا صدر الصدور بعز في الورود وفي الصدور
ودمت مدى المدى محمود سعي وبالمحمود تشرح للصدور

في يوم الثلاثاء استدعى سيدنا محمودا لداره الشريف المنيف مولاي المهدي العلوي، أحد الإخوان، القائم بتنظيم حلقة يوم الجمعة بزاوية مكناس، فذهبنا إليه بعد صلاة العصر، ولم يقصر في الإكرام، مع الإحتفال المنوط بالإحترام، ثم خرجنا قاصدين التفسح بخارج البلد، فخرجنا من باب تيزيمي، وذهبنا على طريق باب القرمود إلى المحل المعروف بورزيغة، وهي محل منخفض، مشتمل على جنات عديدة، تسلي الناظر إليها، ورجعنا على طريق عين الكبير رسغين، ثم شققنا في الطريق الأولى وقصدنا الدخول، من باب أبي العمائر لمحل النزول.

احتفال عامل مكناس بنا وغيره من الإخوان

وفي يوم الأربعاء استدعانا المحب الأرشد، الباشا الأسعد، السي بنعيسى بن عبد الكريم عامل مكناس، فدخلنا لداره مع سيدنا محمود رضي الله عنه، وقابلنا بأحسن مقابلة، وأقبل عليه سيدنا محمود بقبول، نال به الباشا المذكور غاية المنى والسول، وبعد الغداء رجع سيدنا محمود لروض نزوله، وفي صباح هذا اليوم كان توجه لفاس السيد محمد أخو سيدي الحاج محمد دادي من أبيه، لقضاء بعض الأغراض بها، فكتبت معه أخاطب شيخنا العلامة الرئيس، سيدي الحاج عبد الكريم بنيس(17)، مع جماعة الإخوان :

(16) الظليم : الذكر من النعام وجمعه ظلمان وأظلمة.
(17) سبق التعريف به ج 1 ص 40 من هذا المجموع.

يا سادة في فؤادي حبهم راسي وباقترابي لهم تطيب أنفاسي
ودعتكم وقليبي ضاع عندكم من أجل بينكم قد ضاع إيناسي
أستودع الله جمعا كنت أحضره وأنتم نوره من ساكني فاس
أملت من بعد بعدي أن يساعدني دهري بقربهم لأنهم ناسي
حتى إذا جاد لي دهري بقربهم صار الزمان حسودا قلبه قاسي
ففرق الدهر من بيني وبينهم يا هل ترى بعد هذا مذهب باسي
لا تجعلنه أخير العهد بينهم يا رب واحفظهم في سائر الناس

فوجه لي معه عند رجوعه هذه الأبيات :

يا مفردا بلطافة وإيناس وجهبذ العلم في ذكاء إياس
سارت سيارة سبقكم تأجج ما قاسى قليب على ترحالكم آسي
ودعتم إثر تسليم كأنكم واصلتم بالكرى(18) من غير إحساس
اشتقت وصلكم من بعد بعدكـــــــم فأعقب الوصل بعدا فعـل خـــلاس(19)
أعقب ذا البعد وصلا عاجلا فلكم جادت بواشر إيحاش بإيناس
إن الرجا في كريم لا يخيب من دعاه يجمع شمل الناس بالناس
أستودع الله جمعكم وبدركم إن السلامة في سلامة الراس
أهدي إليكم سلاما زاكيا عطرا من مستهام(20) بكم قد قر في فاس
وحي سيدنا محمود من جمعت له المكارم ساقي السر بالكاس
نجل التجاني أبي العباس أحمد من حاز المعالي فضلا دون مقياس
فالله يحفظنا فيه ويسعـــــــدنا بعوده سالمـا في طيـب أنـفـــاس
بجاه غوث الورى وآلـــــــه وبعميـــــــــه الشريفيـن حمزة وعباس
والقطب أحمد ختم الأولياء ومن والاهم بصفاء دون وسواس
على النبي صلاة الله يتبعها أزكى سلام كطيب الورد والآس
وآله وصحاب والمحـــب ومـــن حاز اللطافة في فـــاس ومكنـــــاس

(18) الكرǎ : النعاس
(19) الخلاس : السالب للشيء بمخادعة عاجلا
(20) مستهام : الزائم القلب

وفي يوم الخميس بعد صلاة العصر ذهبنا معه لدار الشريف سيدي محمد بن عبد الرحمان الإسماعيلي للغذاء عنده، وفي صباح هذا اليوم اجتمعت مع الشريف، الأديب الغطريف، سيدي محمد بن إدريس الإدريسي الشبيهي(21)، وفي يوم الجمعة صلينا صلاتها بالجامع الكبير، والخطيب به هو المقدم الفقيه سيدي بلقاسم بصري، وبعد الصلاة دخلنا لدار السيد محمد بن حبيبي بصري(22)، وما قصر في الإكرام، وحضر معنا جماعة من الإخوان، فكانت ساعة تتسلى بها النفس من الأشواق المؤججة في الحشا نيرانها، وكان المنشدون يطربون بأصواتهم السامعين، مع من يحسن الآلة، تستلذ بها الأسماع، مع كمالها بتطريب أهل السماع، فأخذ كل واحد من الحاضرين من ذلك على قدر نصيبه

وفي يوم السبت بعد صلاة العصر، ذهبنا مع سيدنا محمود رضي الله عنه لرياض سيدنا النقيب مولانا عبد الرحمان بن زيدان، بعد المرة الأولى، وكتب إليه هذه الأبيات :

أسيدنا المحمود لازلت راقيا مراقي عز في الفخار فريد
أتاك ابن زيدان بجدك شافعا يريد بفضل للوصال تعيد
فبالختم لا تجعل جوابي لن ترى فوصلك يا مولاي عندي عيد
وأرجو جوابا شافيا منك لي يفي بما أرتجي إذ لست عنك أحيد
فلا زلت منا للخواطر جابرا وفعلك بين العالمين حميد

فأجابه سيدنا محمود، بهذه الأبيات التي ختم عليها بطابعه الشريف، ونصها :

ألا أيها المولى النقيب ومن له مكارم أخلاق وفضل يزيد
تشفعت لي بالمصطفى لتنال ما به تبلغ المقصود مما تريد
فها أنا ذا آتيك في السبت بالمنى فدم في رضى المولى وأنت حميد

وقد أنجز وعده، وبلغه في هذا اليوم قصده، فكتب النقيب هذين البيتين :

زال عنا العنا(23) ونلنا الأماني بورود المحمود سبط التجاني
دمت يا مفرد الزمان أمانا لرقيق الجناب طول الزمان

(21) انظر ترجمته في ج 2 ص 120 من هذا المجموع.
(22) انظر ترجمته في ج 2 ص 121 من هذا المجموع.
(23) العنا : التعب والتعب.

وكان النقيب المذكور، وجه لسيدنا محمود، مشموما من الأنوار، منظما بأحسن تنظيم، التقطه من روضه البهيج، ووجه لي معه هذين البيتين لأدفع الجميع لحضرته المنيفة، وهما يخاطبه بهما :

هذه الأنوار للنور البهي أهديت تطلب منه الوصل لي
فتفضل سيدي عني وقل أنت مقبول لدينا يا أخي

وكان وجه لي صباحه، بعد موادعتنا له بالفطور عنده، هذه الأبيات :

يا إماما صار في العلم علم وغدا بدرا شريقا في العلم
قد أتى منكم جواب مطرب دره من خالص التبر(24) انتظم
عجلوا الوصل فإني شيق ومن البين(25) الحشا مني انكلم (26)
واصحبوا لي ما يلي ما بيدي من بلوغ القصد إذ رقمه تم

وقد ذهب سيدنا محمود من عنده قاصدا للزاوية المباركة، لوداع الإخوان بها، وهي بحومة رحبة الزرع القديمة، عليها رونق بهيج، بجوارها جامع صغير، تصلى به الأوقات الخمس، وقد لبست هذه الزاوية حلة القبول، بما اشتملت عليه من التحسينات والتحف التي فيها سلوة الخواطر، ونزهة للناظر، فقد أسست على تقوى، وبنيت على سواري لحمل ما هو عليها تقوى، وعن يمين الداخل سقاية مبرزة، وهي قبالة المحراب، تفيض منابعها ماء، معدة للوضوء، ومنها يجري لسقاية بيوت خلائها الأربع، التي عن يسار الداخل، أما محرابها فقد زاد بهجة بالنقش المحيط به، وقبالته السقاية التي نقش خدها بالزليج المصنوع بالعمل الدقيق، على أحسن تنظيم، ولا بأس أن ننقل هنا ما شاهدناه مكتوبا بها بغاية الإتقان في التزويق، والخط المرونق بالحسن والتدقيق، فبالباب الكبير، عن يمين الداخل :

باب السعادة والرضوان والظفر لداخليه جميع السول والوطر

وعن يساره :
وحاج(27) من حج ذا المقام قد قضيت وصب فيه عليه الخير كالمطر

(24)التبر : ما كان من الذهب غير مضروب أو غير مصوغ
(25) البين : الفرقة
(26) انكلم : بمعنى جرح
(27) حاج : جمع حاجة وهي ما يحتاج إليه

وعلى الباب الصغير :

لك البشارة يا من خده وضعا بذا الرحاب وحط الرحل وانتجعا(28)
ومد راح الرجا لله مبتهلا وأمر أحمد من قد رامه وسعا
كل الذي شئته قد نلته كرما يا سعد مستصرخ بذا الحرام دعا

ومكتوب على السقاية :

شاهد بديع الحسن في أفقي وفي أرضي وفي مائي المعين الجاري
واشرب هنيئا ها ينابيع الرضى تجري بقطب المصطفى المختار
فكأنني وتبارك المولى الذي أبدى جمالي هالة(29) الأقمار
بسنا التجاني نار سعدي في العلا فسطعت بالصلوات والأذكار
أكرم به أعظم به أعزز به من هاشمي شامخ المقدار
الله أكرمه وأظهر سره في سائر الأقطار والأمصار
ولنشأتي إن تبتغي تاريخها أرشيف مائي فزت بالأوطار

وبدائرة الخزانة، عن يمين الداخل للقبة بالصف الأول، قول البوصيري رحمه الله :

بشرى لنا معشر الإسلام إن لنا من العناية ركنا غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم
راعت قلوب العدا أنباء بعثته كنبأة أجفلت(30) غفلا من الغنم
ما زال يلقاهم في كل معترك حتى حكوا بالقنا(31) لحما على وضم (32)

وبالخزانة المقابلة لها بالصف الأول أيضا :

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها(33) تجم(34)
من يعتصم بك يا خير الورى شرفا الله حافظه من كل منتقم
ولن ترى من ولي غير منتصر به ولا من عدو غير منفصم
أحل أمته في حرز ملته كالليث حل مع الأشبال في أجم

---

(28) انتجع : انتزع وأفلح.
(29) هالة : مدرد هالك وهي دارا القمر.
(30) أجفل : أنذر وشرد.
(31) القنا : الرمح.
(32) وضم : مدرد أوضام وأوضمة وهي خشبة الجدار التي يقطع عليها اللحم.
(33) آجام : جمع أجمة وهي مدوة الأسد.
(34) تجم : أجم الأسد أي دخل أجمته.

وبدائرة الخزانة عن يمين الداخل بالصف الثاني : الحمد لله وحده، لا إله إلا الله، اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم، صلاة تفتح لنا بها أبواب الرضى والتيسير، وتغلق عنا بها أبواب الشر والتعسير، وتكون لنا بها وليا ونصيرا، أنت ولينا ومولانا، فنعم المولى ونعم النصير. وبالخزانة عن يمين المحراب سورة : قل هو الله أحد، بالكوفي، وكذلك بالخزانة عن يسار المحراب سورة قل هو الله أحد، بالكوفي أيضا، ومكتوب بالمحراب قوله تعالى : (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا، وكفلها زكرياء، كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب(35)). وبالدائرة الأعلى بالصف الثاني للداخل الموالية للسقف (الملك لله) بالكوفي، ودائرة تحتها مكتوب عليها (سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده) والدائرة الثالثة مكتوب فيها (العافية الباقية) بالكوفي أيضا، والزاوية كلها مزلجة.

وفد فرشت قبتها بالزرابي الثمينة، وبها اثنا عشرة مكانة، وخمس سواري، وسبعة للخدود على ما رأيناه، وبها خمس خزائن لحفظ أزر الوظيفة والشمع. ولما قرأنا الوظيفة قام الإخوان لزيارة سيدنا محمود، وتزاحموا عليه، وكادوا أن يقتتلوا عليه، من شدة الزحام، والكل منهم يقبل يديه إلى أن قام لركوبه، ولم يخرج من بينهم إلا بمشقة، ولا يخسر خاطر أحد منهم لما له من الصبر الجميل، والصدر السليم، والمنصب الجليل، رضي الله عنه.

وهذه الزاوية تسع نحو الخمسمائة نفر من الإخوان، وتضيق يوم الجمعة عن سعتهم، ويقرؤون الوظيفة على نسق لطيف، إلا أنه يجب التنبيه على أمور أربعة وجدناهم يفعلونها خارجة عن عمل زاوية فاس، وذلك من الأمر الذي ينبغي اجتنباه لما فيه من الزيادة في الطريق، وعدم السلوك على الوجه الذي يليق.

أولها أنهم يغيرون الجلسة عند الشروع في الهيللة، مع أن تغيير الجلسة إنما يطلب عند السابعة من جوهرة الكمال، لما فيه من الأدب، والإشعار بحضور الرسول عليه السلام.

ثانيها أنهم إذا ختموا صلاة الفاتح بسورة اليقطين أسرع الذي يفتتح الوظيفة بذكر الهيللة مرة واثنين من غير ذكر الباقين معه، وبعد ذلك يتبعونه، كأنهم ذكروا معه، وهم لا يشعرون، فتكون وظيفتهم ناقصة، وكان من حق الجميع أن ينطقوا دفعة واحدة من غير أن ينتظروا من يبتدؤها لهم.

(35) سورا ٓل عمران، الآية 38.

ثالثها أنهم يذكرون الهيللة والست الأولى من جوهرة الكمال بترتيل ثقيل جدا، وفي بعض المرات يسرعون، حتى إذا وصلوا للجوهرة السابعة أسرعوا سرعة، كأنه من ورائهم شيء يتبعهم، وكان من حقهم إذا وصلوا للسابعة أن يتأدبوا ويذكروا بترتيل لائق بالمقام، لكونها محل حضوره عليه السلام.

رابعها أنهم إذا ختموا الوظيفة ورفعوا أيديهم للدعاء قرأوا بعد ذلك الفاتحة جهرا، وذلك كله من الأمور المحدثة في الطريق التي ينبغي اجتنابها، وإن كان في البعض منها استحسان، لكن الوقوف على ما كان يفعله الشيخ وخاصة أصحابه هو الأولى في كل مكان وزمان، والله الموفق(36).

ذكر ترجمة بعض من اجتمعنا بهم في مكناس

وقد تعين أن نترجم لبعض الأفاضل من الإخوان وغيرهم ممن أتوا لزيارة سيدنا محمود واجتمعنا بهم في هذا البلد، حتى لا تكون هذه الرحلة خالية من مثل التعريف بهم، وجمع بعض مدائحهم لسيدنا محمود، ونحوها ممل يتجلى به جيد هذه الرحلة، مع بعض ما راج بيننا معهم من المفاوضة والمذاكرة في المحاضرة والمسامرة.

---

(36) كان العلامة سكيرج يعارض بالكلية أي عمل مخالف لما عليه عمل الزاوية الكبرى بمدينة فاس، ويرى أن من عوامل التفرقة والخروج عن النظام السديد، وغالبا ما تكون لتلك المحدثات عواقب وخيمة على الإخوان التقراث، فتؤدي للاختلاف والنزاع بينهم، وهذا مما لا يقبله عاقل، والأجدر بالمسؤولين عن كل زاوية سواء كانت بالمغرب أو خارجه أن يسلكوا النظام الذي عليه العمل بالزاوية الكبرى بفاس، لأنه النظام الذي كان عليه عمل الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، وعلى هذا النسق والنظام حافظ أصحابه من بعده إلى غاية يومنا هذا.
والسبب عمد العلامة سكيرج لتأليف كتب خاصة في فقه الطريقة الأحمدية التجانية، هادفا بذلك لتوضيح مناهجها عند الخواص والعموم، وتبيين ما كان عليه السلف الصالح من أهلها من الجد والحزم والمثابرة، مع نبذ كل بدعة دخيلة عليها، ودفعها ومحاربتها بسلاح الرجوع للأصول المذكور، ويعد كتابه : الكوكب الوهاج، من أهم كتب الطريقة التجانية التي سار نحو هذا المنحى، ويضاف إليه كذلك كتاب : نور السراج في شرح إضاءة الداج، وغيرهما من التآليف الأخرى التي تطرق لهذا الموضوع وساهم في علاجه لحد بعيد.

1- ترجمة الفقيه العلامة الأديب الشريف مولاي الكبير بن زيدان (37)

فمنهم أديب عصره، ووحيد مصره، ذو الأدب الرائق، والحسب الفائق، العلامة الأمجد، نقيب الشرفاء العلويين بها، بما خص به من كمال الفضل بين الأقران، مولانا عبد الرحمان ابن محمد بن عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عبد المالك بن زيدان، بن أمير المؤمنين مولانا إسماعيل قدس الله روحه في الجنان، ولا أحتاج إلى التنويه بقدر هذا الشريف الوحيد، والطالع السعيد، لما هو مشهور به من اشتغاله بما يعنيه، ساعيا فيما فيه صلاح حاله، ونجاح مآله، لا يتداخل في فضول، ولا يميل إلى من يشتغل بما لا يعني في فعل أو مقول، فلأجل هذا يحبه القريب والبعيد، ويثني عليه كل من يعرفه وخالطه من موال وعبيد، وإني بشهادة الله ما رأيت منه منذ أزمان إلا الجمال في جميع أحواله، ولم أشاهد ما لا يرتضى في سائر أعماله، وبهذا يشهد له غير الحسود من أبناء جنسه، ويعترف له بذلك في خاصة نفسه، وماذا أقول فيه، وقد جمع شرف العلم والنسب، وكمال العقل والأدب، ورقى بتواضعه إلى أعلى الرتب، ففاق بذلك أقرانه، وما ارتكب مدة عمره شيئا عند العقلاء شانه، فبهذا عهدته منذ عرفته، حتى استويت على محبته، ولا زلت أحبه ما دام سالكا على المنهاج القويم، مراعيا للمودة والحب القديم، فقد كان استدعاني من حضرتنا الفاسية، لحضرته المكناسية، بعدما اتصل حبل الوداد بيننا في زمان كان السعد مساعدي بقربه ووصله، وقلبه ممتلئ بحبي مثل امتلاء قلبي بحبه، فشددت في ذلك الوقت الرحلة إليه، وشملتني موائد الإكرام الذي أقله البرور لديه، فإنه هو الحر الذي يراعي وداد لحظه، ويشكر مفيد لفظه، والفضل له على كل حال، ومن أجله ألفت رحلتي الزيدانية المشتملة

---

(37) العلامة الأديب مولاي عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عبد المالك بن سيدان بن السلطان الشهير مولانا إسماعيل، هو نقيب الشرفاء العلويين بمدينتي مكناس وسرهون، ولد رحمه الله في ربيع الثاني عام 1295هـ بقصر المحنشة، أحد القصور الإسماعيلية بمكناسة الزيتون، وبها حفظ القرآن الكريم، ثم التحق بفاس حيث أخذ عن كبار فقهاء القرويين فبرع في الأدب والتاريخ والبلاغة والفقه والحديث والسيرا وغيرهم من العلوم الأخرى، وشيوخه رحمه الله كثيرون، منهم قاضي مكناس العلامة سيدي محمد بن محمد القصري المكناسي، والعلامة الشيخ سيدي أحمد بن الخياط الدكاري، والفقيه سيدي أحمد بن الجيلاني الأمغاري، والعلامة سيدي محمد بن قاسم القادري وغيرهم، كما أجازه من خارج المغرب عدا شيوخ من الحجاز ومصر والشام واليمن وتونس والجزائر، وتقلد رحمه الله بعدد الطريقة الأحمدية التجانية عن العارف بربه العلامة سيدي العربي العلمي اللحياني الموساوي، وقد ذكر الكتاني في ترجمة العالم الصالح من كتابه إتحاف أعلام الناس ج 5 ص 439 حيث قال : وقد لقيته بداره بمدشر موساوا، وزرته والتمس مني بركته، ودعا لي بخير، ولقنني الورد التجاني وسار أذكار الطريق وأسرارها، وأجازني عامة في الكتاب برد الله ثراه، أما وظائفه : فقد انتخب من بين علمائه وقته مدرسا لتلامذة المدرسة الحربية بمكناس، ثم مديرا للمدرسة المذكورا، وله رحمه الله مصنفات كثيرا منها :

- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرا مكناس، وإرشاد المستفيد لما لابد منه من التقاييل في طبقات أهل التقليد، والدرر التاخرا بمفاخر الملوك العلويين بفاس الزاهرا، والعز والدولة في معالم نظم الدولة، والمناهج السوية في تاريخ الدولة العلوية، والنهضة العلمية في عهد الدولة العلوية، والنور اللائح بمولد الرسول الخاتم الفاتح، وبلوغ الأمنية في مدح خير البرية.

وله غير الكتاب من التاليف والرسائل والتقاييد، وكانت وفاته رحمه الله سنة 1365هـ -1946م، انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج 3 ص 335 وفي الأدب العربي في المغرب الأقصى لمحمد بن عباس القباج ج 1 ص 81. وفي دليل مؤرخ المغرب الأقصى لابن سودا ص 13 رقم 2.

على ما جادت به الفكرة في ذلك الإبان، بذكر من اجتمعنا به بمكناس من أفاضل الأعيان، وما لهذا النقيب من أدبيات، وقصائد وأبيات، كان أنشأها في ذلك الوقت وقبله، مما يحق أن يكتب على أوراق الذهب، عند المعتنين بعلم الأدب، وناهيك بما فيه من الإستسلام بالتسليم لأهل الله، والمحبة الصادقة في جانبهم.

وقد كان يود أن لو نزل عنده سيدنا محمود رضي الله عنه، حتى أنه كتب لأكابر فقراء فاس يلتمس منهم التوسط في استعطاف سيدنا محمود في النزول عنده حين كان بطرفهم(38)، ولكن حال بينه وبين هذا الإقتراح كون سيدنا محمود لا يحب النزول إلا في محل خصوصي، حتى لا ينفرد به زيد دون عمرو، وذلك من كمال اعتنائه بالإخوان، ليبقى كل واحد منهم على خاطره، حيث أنه يود كل منهم النزول عنده، لما انطبع في قلوبهم من محبته رضي الله عنه، ولصاحب الترجمة -أمنه الله- دواوين من الأمداح التي أنشأها في الحضرة المحمدية، والتغزلات العجيبة المخترعة، في الأمور الهزلية والجدية.

وقد جمعت منها النزر اليسير في رحلتنا التي كنت استعملتها أيام وفودنا عليه من فاس، الملقبة بالزيدانية، وفي هذه المرة قد أطلعنا على النصف الأول من شرح الأخ في الله العلامة الأفضل، سيدي محمد الغالي السنتيسي(39) على همزيته المسماة (كفاية المحتاج) وسماه "بهداية المنهاج" وهو شرح حفيل، بكل نبذة علمية كفيل، مما يحق أن يكتب بسواد العيون، وينفق فيه الدر المصون. كما أنه أطلعني على طرف من شرح العلامة الشريف سيدي محمد بن أحمد العلوي(40) القاطن بزرهون على ميميته المسماة "بغية المستهام" المسمى "بتكميل المرام" وهو شرح عجيب الوضع، مفروغ في قالب لم أرى مثله في التنميق، بتحقيقات رقيقة، ونكات دقيقة، يشهد بطول باع مؤلفه في علوم الصناعة، والتضلع في العلوم التي لم يدرك بعضها إلا من أنفق ما له من البضاعة، أتمه الله بالقبول.

وأطلعني أيضا على تأليفه المسمى : "بتغيير الأسعار، على من عاب الأشعار" وهو تأليف لم يتقدم مثله في موضوعه، جمع فيه جل ما افترق في غيره من الدلائل على الفضيلة التي يختص به أهل القرائح السيالة، خصوصا إذا مدحوا صاحب الرسالة، وأنكر على من ادعى أن الجناب المحمدي لا ينبغي مدحه بالأشعار، ولعمري أنه أحرز قصب السبق والمرتبة الرفيعة، في الرد على قائل هذه المقالة الشنيعة، وقد أنشد في تقريظه رفيقنا الأديب الأريب، سيدي عمر بن سعد الريعي هذه الأبيات :

---

(38) وقد كتب على رسالة في هذا الموضوع بعنوان العلامة ابن زيدان لبعض مقدمي الطريقة الأحمدية التجانية بمكناس، يطلب منه فيها أن يتوسط في استعطاف الشريف البركة سيدي محمود التجاني لاختيار دراه كمقر ومكان للنزول حين قدومه لمكناس، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة كرم العلامة ابن زيدان وتعلقه المتين بمحبة شيخه القطب أبي العباس التجاني رضي الله تعالى عنه وعن أولاده ومحبيه وأصحابه من مقدمين وفقراء.

(39) انظر التعريف به في ج 2 ص 91-97 من هذا المجموع.

(40) انظر التعريف به في ج 2 ص 147-154 من هذا المجموع.

هذي الجواهر في التيجان منتظمه — على غوان أتت تهتز مبتسمه
فلم نطق عندما رأيت منظرها — نطقا ولكنني قد قمت محترمه
لم لا أقوم بمدح من إذا ذكرت — أوصافه ارتدعت(41) عن غيها الظلمه
ذاك النقيب ابن زيدان الذي شرقت — أنواره فأضاء للفضا ظلمه
قد خاض في كل بحر دونه وقفت — أهل النهى وجميع السر قد علمه
لله ما قد أتى من الدليل على — جواز مدح نبي لا أفي قيمه
سماه تغيير أسعار لمن سمعت — آذانه وأزال سره صممه
لا يهجر السر إلا من إذا شعرت — به الأفاضل لا ترى له قسمه
لو كان يعلمه ما كان يهجره — حاشا النبي الذي تحفه الحشمه
عليه أزكى سلام الله ما سردت — في الناس أمداحه لمن بها اختدمه

ومما أنشأه سيدنا النقيب المذكور في قدوم سيدنا محمود هذه الأبيات الرائقة :

أبدر السعد أشرق بالتهاني — وشمس اليمن ضاءت بالأماني
أم الأفراح للأرواح راحت — وريح النصر هبت بالأماني
أم القمري(43) بالتيسير يشدو — وصبح الفتح أسفر للعيان
أم الأزهار في الأكمام(44) فاحت — فأحيت مغرما بالحب فاني
بلى شمس الفلاح بأفق بشر — تبشرنا بطلعة ذي التدان
هنيئا مرحبا أهلا وسهلا — بمحمود المساعي في الزمان
سليل المصطفى خير البرايا — حفيد العارف الفرد التجاني
ملاذي قدوتي وطبيب دائي — مزكي النفس مرهم(42) كل ران
رفيع الشأن من لعلاه تعنو — الأكابر بل ويصغر كل شان
رجوت بجده المحبوب حفظا — وعطفا سابغا(45) في كل آن
وإتمام المرام بكل خير — بجاه المصطفى عالي المكان
عليه من المهيمن كل حين — صلاة مع سلام طيبان
يفوح شذاهما ما قال صب — أبدر السعد أشرق بالتهاني

---

(41) ارتدعت : كفت
(42) المرهم : ما يطلى به الجرح وجمعه مراهم
(43) القمري : ضرب من الحمام حسن الصوت وهو مذكر قماري
(44) الأكمام : جمع كم وهو الغلاف الذي يحيط بالزهر أو الثمر فيستره ثم ينشق عنه
(45) سابغا : رغدا متسعا

وقال أيضا في مدح جده العدناني، ووارث سره النوراني، ومدح حضرة سيدنا محمود، بلغه الله غاية المقصود، هذه القصيدة الطنانة، أمنه الله ونصها :

نزه الطرف في ريـاض الـمـعـانـي وتمتع بنور تـلـك الـمـغـانـــي(46)
وأدر لاستماع صب معنى ذكر من فيهم جميع الأماني
وصف المعنى أنني ذو ولوع وغرام بذكر وصف الحسان
ودع اللوم فالملامة لؤم وأجب صرفه عن الآذان
واطرح العذل(49) فهو عدل لعمري عن طريق الصواب والإذعان
فعذاب المحب في الحب عذب(50) سائغ شائع مدى الأزمان
وهوان الغريم في الحب هين مستطاب مزري بعرف القيان
كيف والعشق جنة ليس فيها من لغوب(47) ولا عناء يعاني
وجنان الغرام لا غول(51) فيها إنما فيها راحة للجنان
لائمي في هوى العذاري فعذرا إنني عذري مرامي التداني
في هواكم قد طاب خلع عذاري وعذولي طول المدى ما غواني
فبحـــق الـقـدود عـني كـفـانـــي قد قلبي ولا عـج(48) الأشجـــان
وبورد الخدود مع جوهر الثغـر(52) وعطـف الخصـور(53) والأجـفـــان
وبشمس الجبين مع حالك القو س وشهد يروى عن الرمان
فك أسري بجبر كسري بوصل دون فصل فبينكم أفناني
وارحموا مغرما غريم سـنـاكـــم في قيود الـهـوى وقيـد الـهـوان
فر صبري وقر مـدمـــع عيـنـي فاقعا(54) تارة وأحـمـر قـان(55)
وتولى السرور لما جفوتم وتوالت كتائب الهيمان
فامنحوني ولو بوعد بقرب كي يزول الذي أذاب جناني
إنني رقكم(56) فرقوا ومنوا بخلاصي مما جرى قد كفاني
قسما بالهوى فما لي ملاذ غير خير البرية العدناني
أحمد الخلـــق لـلإلـه ومـحـمـــو د الورى صاحب اللـوا والبيـــان
رحمة الخلق أجمل الخلق لب الرسل سر السريرة الحقاني

---

(46) المغاني المناجل.
(47) لغوب : الكلام التاسد.
(48) اللاعج : النار المحرق.
(49) العذل : الملامة.
(50) عذب : طيب.
(51) غول : بمعنى المشقة.
(52) الثغر : مقدم الأسنان.
(53) الخصور : جمع خصر وهي من الانسان جنبه فوق رأس الورك.
(54) فاقعا : شديد في اللون.
(55) قان : يقال أحمر قان أي شديد الحمرة.
(56) رقكم : عبدكم ومملوككم.

بهجة الكون نكثة الخلق روح الحق نـــــــور الوجود مـن غيـر ثـــان
طالع السعد في سماء المعالي برجه اليمن وهو في الميزان
نوره قد جلا الغياهب عنا قد تجلى لنا بكل الأمان
وتحلى بحلة الفخر فردا ما له في الوجود ند(57) مداني
مجتبى مرتضى مهاب مطاع مقتفى منتقى منيف المكان
الحبيب المختار خير رسول باذخ القدر صفوة الرحمان
من رقى للسمـــاء ليـلا وجـــلا ه الإلـه بأفخـر التيجـــــــان
وله الجذع حن شوقا ولبتـــه الغصـــون تسعـى بـجزءي العيـــــان
وبـصـــاع غـدى وروى جيـاعا وأوانـي والـصـاع فـي رجـحـان
شـهـد الذئـب بـالـرسـالـــة والـضـب لـــه فـــي جـمـع من الأعـيـان
وله العود جاء يشكو ظلوما قد سقاه الردى وطعم الهوان
وله ظبية أتت في التجاء في غدو لنسلها الغرثان(58)
حبه زاد في معادي وذخري مدحه حصني من كروب الزمان
عطفة عطفة ولطفا وأمنا ونوالا في سائر الأحيان
وسرورا ينفي الشرور ويسري لجميع الأنام في كل آن
يا رحيما رحماك لي وتفضل يا حليما علي بالرضوان
فبكـم أســـأل الإلـــه يـقـيـنـــي كـل هـول وشـر ذي طـغـيـــان
وبذات الفخار فاطمة الزهراء والبـــعـــــل والـبـدور الـحســـــان
وصحاب ومن تلاهم خصوصا قدوتي عمدتي ملاذي التجاني
قطب كل الأقطاب من حـاز فـخـرا شامخا باذخـــا(59) بـكـل أوانـــي
شيخ كل الشيوخ قطب رحاهم منه نالوا الأسرار بالبرهان
ما له في الأقطاب والله مثل كيف لا وهو وارث العدناني
لم يقاربه في السمو ولي لا ولا يبلغنه ذو شان
وله أذعنت(61) ليوث وغاهم(62) وعنت مذ علت له القدمان
آية قد جلت(63) فجلت عن الإ دراك والفهم مدة الأزمان
وحباه الإله فضلا عظيما لم يطق حصره فصيح اللسان
فإذا ما رمت السعادة فانزل بحماه تحظى بكل أمان
وتنال الحسنى وتحرز مجـــــدا وهناء في ربوة(60) الإحســـــان
وبه ترتـقـــي مراقي سـعـــد بضمان الحبيب ذي الـتـبـيـــــان

بسنى المصطفى أنار قـلـوبـــا ونفى عنها وصمـــة(64) الأدران(65)

---

(57) ند : نظير وشبيه.
(58) الغرثان : الجياع.
(59) باذخا : عظيم الشأن عاليا.
(60) ربوا : مفرد ربى وهي ما ارتفع من الأرض.
(61) أذعنت : انقادت وخضعت.
(62) وغاهم : حربهم.
(63) جلت : ظهرت ووضحت.
(64) الوصمة : العيب والعار.

وبإذن قد قام يدعو البرايا بطريق تفضي إلى الرضوان
فسرى سره لكل مريد وارد صادق بغير توان
دونكم دونكم إماما هماما عارفا عالما بسر المثاني
دونكم ورد ورده فهو عذب سائغ(66) للوارد(67) في هملان(68)
ورده كم شفى غليلا وكم أبرى عليلا به وأطلق عاني
جنة للمريد فيها منى النفس وما تستلذه العينان
أبشروا معشر المحبين منه بنعيم مؤبد في الجنان
بشروا الجاحدين للفضل بالمقت(69) المقيم مع سرعة الخسران
خبروهم بأنهم بنكال(70) ووبال باءوا وكل هوان
وإذا ما عوت كلاب فلا تعبأ بلغو(71) من فاجر مستهان
واستعر للغاوين(73) صماء أذن ودع المولعين بالهذيان(72)
غاية الأمر أنهم حجروا فضل الإله المسدي بغير امتنان
ذاك فضل الكريم يؤتيه من شاء على رغم كل لاح وشاني(74)
إنما الشيخ آية الله في خلقه فهو المفرد الصمداني
هو من زاخر الفتوح بمعنى لم يطق كنهه(75) بأعلى المعاني
فهو كنز الكنوز والطلسم الغا مض قطب العلوم والعرفان
وملاذ القصاد في كل ما عن منيل لهم جميع الأماني
رحمة الله نعمة الله للنا س ومأوى لكل من هو جان
ما أتاه امرؤ وخاب ولكن آب(76) فورا بسوله بالعيان

---

(65) الأدران : جمع درن وهو الوسخ.
(66) سائغ : هنيء وسهل في مدخله للحلق.
(67) للوراد : بمعنى للواردين عليه.
(68) في هملان : بمعنى دام سيلان مائه وفيضه.
(69) المقيم : البغيض.
(70) النكال : جمع نكل وهو القيد الشديد.
(71) بلغو : بمعنى اللغو وهو ما لا يعتد به من الكلام.
(72) الهذيان : الكلام الخارج عن دائرة العقل والصواب لمرض أو غيره.
(73) الغاوون : الضالون.
(74) شاني : عائب.
(75) كنهه : جوهره وأصله.
(76) آب : رجع وعاد.

يا لغوث أغث رهين ديون وذنوب جلت عن الحسبان
ضاق ذرعا لما توالت عليه كرب أخرست بليغ اللسان
وجيوش الأتراح(78) لمت ومالي عنك بد(77) يا كعبة الإحسان
وحدات الكروب تحدو فطمت وبنو الجنس يبتغون هواني
صوبوا سهمهم إلي وطالوا واستطالوا علي بالبهتان
زخرفوا القول بالأراجيف(81) والز ور وإني من كيدهم في أمان
حيث لي عزة بعزك يا مو لاي يا جنتي من الحدثان(79)
أيضام الذي احتمى وحماكم حوط والله من شرور الزمان
عجبا هل أنال والليث حصني أو أخاف من عوة السرحان(80)
كيف أخشى الظما وأنت غياثي ومغيث المكروب واللهفان
من يا ابن الرسول فورا بما آمل من بحر جودك الهتان(82)
وشفيعي إلى علاك المفدى من علا قدره على الكيوان
نجلك المرتضى التقي النقي المرتقي بالتقى لأعلى مكان
طيب النفس طاهر القلب من لا له في الفضل والمحاسن ثان
حمد الله سعيه فلهذا صار فينا محمود أهل الزمان
بحر علم تلاطم السر فيه فرمى للورى رقيق المعاني
بيديه حتف لكل الأعادي وبه يستريح كل معاني
فعلى التقوى أسس الله بيتا هو منه مشيد الأركان
قدره شامخ ومدحه لا يحصى وهل تنزح(83) البحار الأواني
فقصارى(84) المداح فيه قصور لو عليه تثني بكل لسان
كنس الله ما بمكناس لما قد أتاها من جده التجاني
فزهت وازدهت وتاهت دلالا وتردت منه رداء التهاني
فلهذا جرت ذيول افتخار وحوت رفعة على البلدان
فهنيئا أهيل مكناس بشرى بالحفيد المحمود في كل آن
نوره نور القلوب وأجلى كل كرب عن الفؤاد وران
جاء يا محمود الخصال شفيعا بك للشيخ رقه(85) الزيداني

---

(77) بد : مناص ومهرب.
(78) الأتراح : الأحزان والهموم.
(79) الحدثان : نوائب الزمان وكربه.
(80) عوا السرحان : آياه الذئب.
(81) الأراجيف : الأخبار المختلقة الكاذبة السيئة.
(82) الهتان : المتتابع.
(83) تنزح البحار : بمعنى تنفد ويقل ماؤها.
(84) قارة المداح : بمعنى غايتهم وجهدهم ومبلغهم.
(85) رقه : عبده ومملوكه.

فتشفع وقل بفضلك فاقبل من أتى ربعكم ولو كان جاني
يا ابن خير الأنام إني أرجو منك بذلا مع غاية السلوان
فبحق الرسول جدك جد لي منك يا سيدي بطيب التداني
وإذا ما اقترفت ذنبا فقابل بجميل واصفح على كل جان
إنني بالخطايا جئت وأرجو منك عفوا وعطفة بتداني
ها جفوني جفت لذيذ كراها وضلوعي تصلى سعير الطعان
ها فؤادي رهـــن الأســى ومـقـــر للشجى من تراكم الأشجـــان(86)
قد أنخت(90) الرحال آمل عطفا سابغا(87) كي يزيح ما قد عراني(88)
كم أناخ ببابكم مستجير آب(89) من فيضكم بأقصى الأماني
كم دعاكم إلى الإجـابـــة مـكـــرو ب فأضحـــى بـنـعـمـة وامـتـنـــان
جاهكم للورى ظليل وكل آمن فيه رافل في التهاني
دأبكم غارة بها السر مشمو ل إلى كل شاسع أو دان
غيرة غيرة وحفظا وأمنا وانعطافا بجبر صدع المعاني
عاملوني وعالجوني وداووا وإلي انظروا لدى كل شان
وافتحـــوا بـــاب فضلكم لسـؤالـــي متعونـي ببغيـة العجـــلان
جاءنـــي الفتح والأمـــان وقـد مـــدت علينـــا ســـرادق(91) الإحســان
فأدم ربنا على الشيخ أسرا رك لا تنقضي بكل أوان
برسول للرسل جاء ختاما وابتداء لجملة الأكوان
فعليه الصلاة ما دام يتلى مدحه في الأمصار والبلدان
وعليه السلام دون انتهاء وعلى آله مع الصحبان
ما ترنى(93) صب وقد صار يشدو نزه الطرف في رياض المعاني
وتـغـنـــى بـقـــــول رق مـعـنـــى وتمتع بنـور تلـك المـعـانـــي(92)

---

(86) الأشجان : الأحزان.
(87) سابغا : واسعا.
(88) عراني : غشيني وألم بي.
(89) آب : رجع وعاد.
(90) أنخت الرحال : وضعتها.
(91) سرادق : مقدر سرادقها وهو التسطاط الذي يمد فوق الحسن البيت.
(92) هذه القصيدة الرائعة الجميلة هي من إنشاء العلامة الأديب سيدي عبد الرحمان بن سعيدان العلوي الإسماعيلي، وهي تعبير واضح على ما كان يتمتع به الرجل من حس أدبي رفيع، وما تعلقه التام بالطريقة الأحمدية التجانية ودفاعه الباسل عنها، وليس هذا بغريب عن هذا العالم الجليل، إذ له في هذا الميدان وغيره مواقف مشهودا شاهدا على مدا مكانته المحترمة السامية.
(93) ترنى : طرب وحزن.

وقال أيضا هذه القصيدة الجيمية، في مدح خير البرية، عليه الصلاة والسلام :

يمم بعينيك للقباب وأدلجا(95) وإذا وصلت إلى قبى(94) بي عرجا
وأنخ نياقك(97) في البطاح لأن شو ق الحي أجهدها المسير وأزعجا
قد أنحل الوجد المبرح شخصها إذ شب في أحشائها وتأججا(96)
وإذا حدا حاد بسلع(99) لا تسل عن لسع قلب بالصدود توهجا(98)
سفحت على سفح العقيق(101) عقيقها حتى لعمري الجهد منها قد وجا(100)
وادي حنين(103) قد أثار حنينها وكذلك الجرعاء جرعها السجى
ولرامة راست وإن رمالها مسك لمن أضحى بها متأرجا(102)
ولدا العذيب استعذبت تعذيبها وبذي طوى(104)طوت المراحل بالوجا
بالرقمتين(107) لها رقوم صبابة ونعيمها التنعيم(105)في تلك الفجا(106)
ما غيرت عهد الغوير(109) ولا لوت إلا إلى ذاك اللوا لتعرجا
لكن رضاها أن ترى رضوى(110)وإن جزعت فنحو الجزع يدنيها الرجا
وقد انحنت للمنحني وتعسفت عسفان(108) ترجو حيها أن تولجا

بمنى(114) مناها والخليص خلاصها وقد انتقت(111) ذاك النقا تبغي النجا
ولقد ثنت نحو الثنايا عزمها وبمروة(112) مرت لنيل المرتجى

---

(94) قبى : مسجد مبارك مشهور قريب من المدينة المنورة.
(95) أدلجا : بمعنى سر ليلا، والدلجة آخر ساعة من الليل.
(96) تأججا : اضطرم وتلهب.
(97) نياقك : جمع ناقة وهي الأنثى من الإبل.
(98) توهجا : اتقد.
(99) سلع : جبل بالمدينة المنورة.
(100) وجا : عدم نفعه.
(101) العقيق : جبل قرب المدينة المنورة.
(102) متأرجا : بمعنى فاحا منه رائحة طيبة.
(103) حنين : موضع بين الطائف ومكة المكرمة.
(104) ذي طوى : موضع قرب مكة المكرمة.
(105) التنعيم : على ثلاثة أميال أو أربعة من مكة المكرمة، وهي أقرب أطراف الحل إلى البيت الحرام، سمي بذلك لأن على يمينه جبل نعيم، وعلى يساره جبل ناعم، والوادي اسمه نعمان.
(106) الفجا : مفرد فجاج، وهي الطريق الواسع الواضح بين جبلين.
(107) الرقمتين : موضع قرب مكة المكرمة.
(108) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة المكرمة.
(109) الغوير : تصغير غار، وهي ماء لبني كلاب، والمراد بها في هذا البيت ما بين الجحفة عرفج إلى البحر، وكل ما انحدر مغربا عن تهامة، وتسمى كذلك بالغور.
(110) رضوى : جبل بالمدينة المنورة.
(111) انتقت : اختار.

ما في سوى نجد تجود بنجدة ترمي جمار الشوق حين تهيجا
ودت بـود أن لـــو آن حـبـيـبـهـــــــــــا صافى الصفا(113) وسبيلهـا أن يـنـهـجـا
وبسيرها للخيف(118) خف عناؤها والكد عند كدا(115) تولى مزعجا
عرفات عرفت الطريق بعرفها إضم(116) بها ضمت هياما مضرجا
كم أسلمت أرواحها شوقا لدى سلم وطيبة طاب فيها الملتجأ
وبزمزم قد زمزمت في شجوها أحد(117) به تحدو سبيلا أبهجا
طافت طواف إفاضة إذ أنها حطت مقاما في الصبابة أحرجا
مـهـــلا أخـا الـفـتـيـــان إن جـلـودهـــا نضجت وحق لما بـهـا أن يـنـضـجـــا
فلها بهاتيك المواقف وقفة أو ما رأيت غرامها ما أنتجا
فانظر إلى أنفاسها وحنينها واقصد بها نحو الحمى ربع النجا
وأحلل(119) بهاتيك المعاهد لحظة بطول مكة والمشاعر معرجا
بشرى هنيـئـــا قـاصـــدي أرجـائـهـــــا ركب الحجيج أخذتم منـــي الـحـجـــا
وسلبتم عن مقلتي طيب الكرى(121) فأنا أراعي الزهر في جنح الدجا
يا ظاعنين بمهجتي ما ضركم لو حث بالحادي المسير وأدلجا
لكن سوء الحظ مني صارف يا حسرتي من سوء حظ أحرجا
إن الذنوب كواهلي قد أثقلت فأرى القوام بثقلها قد عوجا
لكن يروق تخلصي من غيها بمديح خير العالمين المرتجي
متواتر(122)الإحسان مشهور(123)النـــدا سند صحيح(120) في المعالي أدرجـــا

حسن الخصال وصالـــح الأفـعـــال مـــــن أضحى نداه مضعفـــا متوهـجـــا

---

(112) مروا : محل السعي بمكة المكرمة.
(113) الصفا : محل السعي بمكة المكرمة.
(114) منى : موضع قريب من مكة، وسمي بذلك لما يمنى به من الدماء عند مناسك الحج.
(115) كدا : موضع قريب من مكة المكرمة.
(116) إضم : الوادي الذي فيه المدينة المنورة، يسمى لدى مروره بالمدينة القناة، ومن أعلى منها عند السد : الشظاة، ثم ما كان أسفل ذلك يسمى إضما.
(117) أحد : وهو جبل أحد مكان الغزوة المشهورة.
(118) الخيف : غرة بيضاء في الجبل الأسود الذي خلف أبي قبيس، ومنها سمي مسجد الخيف، وهو في ناحية من منطقة منى.
(119) احلل : بمعنى انزل.
(120) صحيح : هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو إلى منتهاه من صحابي أو من دونه، ولا يكون شاذا ولا معللا.
(121) الكرى : النعاس.
(122) المتواتر : هو الحديث الصحيح الذي يرويه جمع يحيل العقل والعادة تواطؤهم على الكذب عن جمع مثلهم في أول السند ووسطه وآخره.
(123) المشهور : هو نوع من أنواع الحديث الصحيح، وهو دون درجة الحديث المتواتر، وتعريفه : هو الحديث الصحيح الذي ترويه جماعة عن شيخ واحد.

يغني الضعيف(125) بمسند(126)من فيضه فيصير مرفوعا(124) بمنتجع الرجا
المجد موقوف(129) وموصول(130) به وبمرسل(127) منه الوجود تدبجا(128)
ما أمه المقطوع(132) منقطعا له إلا ومعضل(131) دائه قد أفرجا
بمعنعن(135) منه اللباب معلق(136) ما إن ترى منه المدلس(133) مدرجا(134)
عالي(138) المكان به أقمنا نزلا(139) نرجو مسلسله(137) القريب المرتجى
الكل مختلف(141) إليه وسائل بعزيز(140) عزة جاهه صدق اللجا
ما بالمعلل(143) فضله إذ قد غدا فردا(142) به كل الكمال تتوجا

---

(124) المرفوع : هو الحديث الذي أضيف إلى النبي (ﷺ) خاصة من قول أو فعل أو تقرير سواء أضافه إليه صحابي أم تابعي أم من بعدهما، وسواء أتصل إسناده أم لا.
(125) الضعيف : هو الحديث الذي لم تجتمع فيه شروط الصحيح ولا شروط الحسن
(126) المسند : هو الحديث الذي اتصل إسناده من راويه إلى منتهاه، مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
(127) المرسل : هو الحديث الذي يرفعه التابعي مطلقا كان صغيرا أو كبيرا.
(128) المدبج : من أنواع الحديث
(129) الموقوف : هو الحديث المروي عن الصحابي من قول أو فعل أو تقرير، كأن يقول الراوي قال عمر بن الخطاب كذا، أو فعل كيت وكيت أمام أبي بكر ولم ينكره.
(130) الموصول : هو الحديث الذي اتصل سنده، سواء كان مرفوعا إلى النبي (ﷺ) أو موقوفا على الصحابي أو مقطوعا على التابعي.
(131) المعضل : هو الحديث الذي سقط منه راويان فأكثر بشرط التوالي.
(132) المقطوع : ما روي عن التابعين من قول أو فعل أو تقرير.
(133) المدلس : هو أن يسقط الراوي غير شيخه، والمدلس لضعفه أو لصغر سنه أو يجعل الحديث مرويا عن أقران ليحكم عليه بالقبول والصحة.
(134) المدرج : هو الحديث الذي اطلع في متنه أو إسناده على زيادة ليست منه.
(135) المعنعن : هو الحديث الذي يقال في سنده فلان عن فلان، من غير تصريح بالتحديث والسماع، وهو من قبيل الأسناد المتصل إذا توفرت فيه ثلاثة شروط : عدالة الرواة، وأبوا لقاء الراوي لمن روى عنه، والبراءة من التدليس.
(136) المعلل : هو ما عرف من مبدأ إسناده واحد فأكثر على التوالي، ويعبر الحديث إلى من فوق المعروف من رواته.
(137) المسلسل : هو الحديث المسند المتصل الخالي من التدليس الذي تتكرر في وصف رواياته عبارات وأفعال متماثلة ينقلها كل راو عمن فوقه في السند حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(138) العالي : الأسناد العالي المطلق هو ما قرب رجال سنده من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب قلة عددهم إذا قيسوا بسند آخر يرد في الحديث نفسه بعدد كثير.
(139) النازل : نقيض الأسناد العالي، لكن رب إسناد نازل أفضل من عال إذا تميز بقوة.
(140) العزيز : هو الحديث الصحيح الذي يرويه اثنان أو ثلاثة عن شيخ واحد.
(141) المختلف : هو أن يأتيا حديثان متضادان في المعنى ظاهرا، فيوفق بينهما أو يرجح أحدهما، وهو ما يسمى بعلم مختلف الحديث.
(142) الفرد : هو الحديث الذي انفرد به راو واحد وإن تعددت الطرق إليه.
(143) المعلل : هو الحديث الذي اكتشف فيه علة تقدح في صحته، وإن كان يبدو في الظاهر سليما من العلل.

وسواه شاذ(145) منكر(146) وحديثه يدوي بمضطرب(144) لزور روجا
موضوع(147) مقلوب(148) المركب جهله يقضي لمنقلب يظن مدبجا
أيرى المصحف(149) ناسخا لقوامه ما انفك منسوخا وقولا أسمجا
فلذا أسانيد المحامد أسندت لرسولنا المختار مصباح الدجا
ذاك الذي بوجوده زال العنا عنا وأضحى للهداية منهجا
غوث البرية غيثها ومغيثها من لا يخيب من عليه عرجا
كهف الأنام محمد سامي الذرى حامي الحمى نعم الحبيب الملتجا
يا عمدتي وعنايتي وحمايتي شوقي إلى رؤياك زاد تهيجا
مولاي يا روح الوجود وسره يا من به الكرب العظيم تفرجا
أمنن علي بما أؤمل منك من قرب المزار لينزوي عني الشجا
إني لجأت إليك يا علم الهدى وحاشا جنابك أن يضيع من لجا
حالي من الأهوال حال وليس لي إلاك يا بحر المكارم مرتجى
ليل السرور سجى وطال ظلامه فمتى أرى صبح السرور تبلجا(150)
ما لي على فزع الشدائد طاقة وجحيم أهوال الزمان تأججا
مالي سواك من الخطوب(152) وقاية فقني إذا داج الغياهب قد سجا(151)
مالي سواك مؤمل أرجوه في كشف الذي بي قد ألم وأزعجا
إني رجوتك في انزواء حوادث أصبحت منها بالكروب متوجا
يا مصطفى عجل بما أرجوه منك من الندا فالحال مني استسمجا(153)
تترى عليك من الإله صلاته ما مزقت بالصبح أثواب الدجا
وعلى ذويك مع الصحاب جميعهم ما زاد مسك في الختام تأرجا
وترنم الشادي وكرر قائلا يمم بعيسك للقباب وأدلجا

---

(144)المضطرب : هو الحديث الذي تتعدد رواياته، وهي على تعدادها متساوية متعادلة لا يمكن ترجيح إحداها بشيء من وجوه الترجيح.
(145) الشاذ : هو الحديث الذي رواه الثقة مخالفا الثقات، وبعبارة أدق : ما رواه المقبول مخالفا لمن هو أولى منه.
(146) المنكر : ماروواه الضعيف مخالفا رواية الثقة.
(147) الموضوع : هو الخبر الذي يختلقه الكذابون وينسبونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم افتراء عليه
(148) المقلوب : هو الحديث الذي انقلب فيه على أحد الرواة لفظ في المتن، أو إسم رجل أو نسبه في الأسناد، فقدم ما حقه التأخير أو أخر ما حقه التقديم، أو وضع شيئا مكان شيء.
(149) المصحف : قال الإمام العسكري في التعريف به : أهل العلم أن قوما كانوا أخذوا العلم عن الصحف من غير أن يلقوا فيه العلماء فكان يقع فيما يروونه التغيير.
(150) تبلجا : أشرق وأضاء.
(151) سجا : سجا الليل أي سكن.
(152) الخطوب : المكاره والبلايا.
(153) استسمجا : قبح.

ترجمة الفقيه سيدي محمد الغالي السنتيسي أمنه الله(154)

ومنهم العلامة الفاضل، سلالة الأفاضل، الحائز قصبة السبق في ميدان النظم والنثر، الكاتب الأوحد أبو عبد الله سيدي محمد الغالي السنتيسي، أحد علماء الطريقة، الخائضين في بحر الشريعة والحقيقة، وهو من خاصة الأصحاب، الذين فازوا بصحبة الشيخ بين ذوي الألباب، وتلقى الطريقة التجانية، من أكابر المقدمين أصحاب الأذواق العرفانية، وهو ناظم درة التاج، وعجالة المحتاج، تصنيف شيخنا العلامة الفاضل سيدي الحاج عبد الكريم بنيس، يقول في أول نظمه لها :

حمدا لمن أوضح ذي الطريقه	أعني التجانية للخليقه
وجعل الأخذ لها عباده	إن صدق المريد في الإراده
وجعل الفوز بها منوطا	وسرها طول المدى محوطا
وخصها بأشرف المزايا	نسبتها لكامل العطايا
خاتم الأرسال النبي الهاي	صلى عليه الله ذو الأيادي
وآله وصحبه الأبرار	وتابعيهم من ذوي الأنظار(155)

وقد كنت شرحته بأمر سليل المملكة، الملحوظ بعين العناية في كل سكون وحركة، الأديب الأريب، الحسيب النسيب، أبي السعادة والمكارم، مولانا عبد العزيز بن أمير المؤمنين سيدي محمد بن مولاي عبد الرحمان، حين كنا نسرد بحضرته، صحيح الإمام البخاري في رفقته، فامتثلت بشرح هذا النظم، وسميته : "نور السراج، بشرح إضاءة الداج" جعله الله من صالح الأعمال المذخرة للمعاد، وأنعم علينا وعليه ببلوغ المراد. وله تآليف عديدة، وقصائد فريدة. وقد وقفت له في هذه المرة على الجزء الأول من شرحه لهمزية سيدنا النقيب التي يقول في مطلعها :

بهوى زينب يزول عنائي	وبه في الورى يزيد اعتنائي
وعذابي في حبها العذب عذب	سائغ يزدري بكأس الطلاء
كن بالقلب حبها قبل تكويني لذا راق في الفناء فنائي	

---

(154) العلامة الأديب المقدم سيدي الغالي بن المكي السنتيسي المكناسي النشأة والدار والقبار، أخذ رحمه الله العلم عن جماعة من أجلة علماء مكناس وفاس، وله مؤلفات جليلة منها : حاشية على الرسموكي شارح الجمل، وشرح لقيدا كتابة المحتاج في مدح اللواح والتاج، لسيدي عبد الرحمان بن زيدان، في جزئين، وتأليف في إعراب : أما بعد، وقيدا في فقه الطريقة الأحمدية التجانية سماها : درا التاج وعجالة المحتاج، وديوان شعر في الأمداح النبوية رتبه على الحروف الهجائية، وشرح على همزية الإمام يوسف النبهاني، وغير ذلك من التقاييد والرسائل.

وكان رحمه الله كاتبا أول زمان السلطان مولاي الحسن الأول، ومولاي عبد العزيز، ومولاي عبد الحفيظ، ثم ناظرا على الأحباس الثغرية بمكناس، إلى أن توفي ليلة الإثنين 17 شعبان عام 1338هـ، ودفن بالزاوية الكنتية من حومة الدارته بمكناس، انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 5 ص 508، وفي الرحلة الزيدانية للعلامة سكيرج ص 60.

(155) عدد أبياتها هي المنظومة 122 بيتا، وقد قرظها العلامة سكيرج بقيدا قال في مطلعها :

حمدا لمن يرجى لكل مرتجى وبابه ليس يرد بمرتجى

انظر المنظومة بتمامها في رؤى النقاب للعلامة سكيرج ج 3 ص 297.

كل صعب قد هان لي في هواها إذ هواني في الحب مرهم دائي
إن دهتني فما دهاني عنها قول قال ولا ثناني(156) التنائي

إلى أن قال في تخلصه :
ليس من حبها التخلص إلا بالتجائي لصفوة الأصفياء
فهو حصن لمن أتاه حصين وبه في الأنام حق هنائي(157)

وقد سماه "هداية المنهاج، على كفاية المحتاج، في مدح صاحب اللواء والتاج" إلا أنه إلى الآن لم يكمله، أعانه الله على إتمامه، وبلغه غاية مرامه، ومما كتبه من قصيدة قرظ بها تأليف النقيب المذكور، المسمى بتغيير الأسعار، على من عاب الأشعار، قوله :

زهر الرياض تناسقت أفنانه ولدى العيان تتابعت ألوانه
أضحى يصافحه النسيم بكفه إذا زانه من عرفه أمزانه
يهتز من فرط السرور تواجدا يدنو إليه وإن نأت أوطانه
يروي بإسناد حديث صبابة من ماء عين قد رقى إنسانه
عن صوب أنواء بأكمام لها من ورده القاني سما عقيانه
عن آسه الآسي للوعات الجوى عن أقحوان قد وفت إيمانه
عن نرجس من حسنه قد هذبت أهذابه وتزعفرت أجفانه
عن ياسمين أبيض أو أصفر قد شك في وصف له أخدانه

إلى أن قال :
من خمرة من ريق ظبي أهيف عن در ثغر نظمت أسنانه
إن اليواقيت النضيدة قسمت لنثيرها ولما بدت أوزانه
فالنثر يحسن في العيان يفوقه المنظوم إذ قد كسرت أوثانه

(156) الثناني : كثني وردني
(157) عدد أبياK هRه القTيدا 104 بيK، وقد Rكرها العلامة سكيرج في كتابه الرحلة العيدانية ص 80-89.

فالغزل ليس بساتر ما لم تكن بالنسج تجمعه لنا خلانه
أنقاض بيت ما بقت لم تبتني لا بيت أو تبنى لنا أركانه
كالبيت من شعر ومن شعر له بالنظم فضل يقتنى عرفانه
كبيت انتقاص الشعر يسمع في الورى من عائب قد عابه أقرانه
لله در إمام شعر فائز بالرد عن شعر نما إيمانه
قد قام عن شعراء إسلام بما سماه تغييرا زكت أحيانه(158)

وهي طويلة، وقد ضمنها أبواب الكتاب وفصوله في أحسن سبك وتنظيم، وقد استعمل في مدح سيدنا محمود هذه القصيدة الفريدة، وقد أنشدت بين يدي سيدنا محمود، ونال بها من إقباله عليه غاية المقصود، ونصها :

باب السعادة فتحت في الحال أم شمس فتح أشرقت أوصال
أم وصل حب بعد طول جفائه أم بدر تم لاح في إكمال
أم فجر صدق قد تلمع ضوءه أم صبح يمن جاد بالإقبال
أم بالأماني أم نحوي مبشر أم فرجت كربي بذي الآمال
أم برد وصل بالحشا مني ثوى قد فصلت آياته للتال
لله آيات بإسعاد بدت من عين ماض أشرقت في الحال
فرع لأصل قد تألق نوره بعشينا يزهو وفي الآصال
نور أمد من الضياء كشمسه منها استمد البدر للسلسال
محمود سعي قد سعيت بسيدي محمودنا نجل العلي العال
ميم ملاذي ثم حاء حمايتي ميم المرام الناجح الوصال
واو الوصال دعاه دالي محصن تحصين أعراف كما الأنفال
نجل البشير أبي البشائر سيدي نجل الحبيب محمد ذي الآل
نجل الملاذ الأعظم الختم الذي قد ساد في الماضي والاستقبال
فليهنى مكناسا نزيل رحابها ما إن له كفؤ(159) لدا الأمثال
وليهنها فرع بدوحة مجدها يهتز غصنا بالجنا المتلال
وليهنها شمس الهناء بروعة عمت بربع عامر والخال
مع نسخنا للشرك ليلا حالكا فيه عفا الديار والأطلال
فيه حياة للرفات جميعها كالسر في الأقوال والأفعال
هذي القلوب جمالكم مع عطفكم تبغي على التفصيل والإجمال
هذي الخدود لوطئكم قد وطئت منوا بفك من عنا الأغلال(160)

(158) انظر هامش التقريظ في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 5 ص 511.
(159) كفؤ : نظير ومثال
(160) الأغلال : القيود

حيا محياكم بخير تحية حي كريم عم بالإفضال
حيا بطيب من عبيق المسك من أولاك أطيب طيب الأحوال
حيا مقامك مع ذويك جميعهم مع صحبكم يا سيدي والآل
والصهر من يدعى دده ومحمدا يسمى لطيف الفعل والأقوال
والحبر نجم طريقنا وفقيهنا حبي أبي العباس ذي الإفضال
مبدي الفضائل ذي التآليف التي قد كاثرت نجم السها المفضال
أعني سكيرج أحمدا من زانه مثل الصهريج في ندى التمثال
والمجد مولانا أبي حفص له بالأخذ عنكم طيب حسن القال
يدعى بعمر من شريف مقركم ذاك العلاء لأول والتال
والسهل مولانا وصيفك سيدي والأكرمين الكمل الأنجال
والكل يعلن بالشفاعة عندكم للعبد يدعى رخيصكم لا الغالي
فلتقبلوه وصيفكم وخديمكم ولتمنحوه رضى كما التسآل
كي يشتفي معنى ولفظا من ضنى حتى يعود بكم هني البال
والآل والأنجال مع إخوانه لا يشتكون بكم ضنى الإعلال
بالختم مولانا التجاني ملاذنا شيخي بلا ريب ولا إشكال
مولاي فاقبل ما أقوله مغضيا عن وصف إكثار وعن إقلال
أدخل بكلية الكمال تفضلا جزئيتي يا دوحة(161) الإجلال
بالهاشمي المصطفى خير الورى من دينه ينجي من الإضلال
صلى عليه الله ما شمس بدت مع صحبه وقرابة والآل
والتابعين وتابعيهم جملة أولي المعالي معالم الإكمال
والشيخ مولانا الذي إحسانه ملأ الصحاري وسائر الأتلال
طول كريم ساقه شيخ الرضا تاريخ قولي طيب الأثقال
بالختم فافتح يا أخا الإفضال ما باب السعادة فتحت في الحال

وله هذه الأبيات اللطيفة بالتزام ما لا يلزم يتضرع فيها للشيخ رضي الله عنه في الظفر بمقصوده، وهي :

طال ليلي بأعين ساهرات راقبا سعد أنجم زاهرات
باسطا للندى أكف احتياج من سجايا(162) فضائل ظاهرات
عاليات قدرا ذوات سماح في نعوت عزيزة باهرات
في تجان وعين ماض أشادت طيب عرف من أنسب طاهرات

(161) دوحة : الشجرا العظيمة المتسعة
(162) السجايا : جمع سجية وهي الخلق

في مرام المريد يأتي بصنع من أياد إلى العدا قاهرات
ينهد الهم بالهمام ومن لي باهتمام يسوق لي ناهرات
يحرس الصحب إن أسرت بقول أو بدت في مقالها جاهرات
أو كنت عن مقاصد أو أشارت للمساوي كنسوة عاهرات
هل بهماتكم صلاحي قريب في المساوي لسعيها شاهرات
مظهر الفوز أنت هل لي بفوز من هبات على العدا ظاهرات

وقال أيضا في مدح سيدنا رضي الله عنه قصيدة وسماها : "قصيدة التضرع والابتهال"، بحضرة سيدنا شيخنا قطب دائرة الكمال ونصها :

هم(164) في مقام الحب غيـــر ملـوم واشرت زلال(163) العشق غير ظلوم
لا تخشى في هذا عدولا كلما استـبـدلـــــت تخصيصا بوصف عموم
واستفت في شرع الغرام متيمـــا عن حكم مضنى يزدهي بكلوم(165)
يأتيك بالمنصوص عن أربابه أهل القريض ونثره المعلوم
فقتيل حب ليس يودى ثم لا يفدى الأسير لرقه المحتوم
يلتذ بالهجر الذي لابد أن يتلوه وصل لم يكن بمروم
لا تلح(166) ذا وجد فإن سبيله للسالكين مضلة المهموم
وارحم رهين الحب أن يلفى كمن في حب شيخ هام غير ملوم
شيخ أنالته الهداية للورى منها القياد كفيلة بخصوم
شيخ يحيل نحاس نفس عسجدا(167) بالقرب يغنيها بكنز علوم
شيخ طريقته بشكر نسجت والفتح فيها مفاجئ بهجوم
والسير فيها مسير قلب ليس بالأ بدان هذا لفضلها المقسوم
راء المريد به تعجم إذ له منه المزيد برمزه المفهوم
لا ترجون عد الفضائل كلما حاولت عدا في السما لنجوم

---

(163) ƨلّل : الماǿ العȸب الȚافي يمر سريعا في الحلȾ.
(164) هم : في الزȵيام بمعنى تحير.
(165) الكلوم : الجروθ.
(166) لّ تلحى : لّ تلم.
(167) العسجد : الȸهب والجوهر كالدر والياقوK.

حسبي الملاذ إذا بخير جنابه في كل حال لا بلدع سموم
بالشيخ فافتح مغلقا من أمرها واختم بناصر هديه الموسوم
أعني التجاني أحمدا من قد مضى في عين ماض كالشدا(168) المشموم
فاس به أمنت لشمس معارف من أفقه طلعت لنسخ نجوم
ما بالمديح يفي اليراع(170) بوصفه وحلاه إرث مفاخر المعصوم
من لي بنزح اليم(171) أو عد الحصى كلا ولا التحقيق للموهوم
مولاي هذي النائبات تريدني فاحمي العبيد إذا عذاب سموم(169)
وأكف العناء وغربة عن منزل مضنى بحبك بغيتي ومروم(172)
عمر به وبأهله وبنيه عن عز دويرته(173) بخير رسوم
فالجسم منه عن العناء كما ترى مستنجدا لمعونة المكتوم(174)
واصرم(175) حبال تغربي عن منزل وانظم مناه بعقدك المنظوم
بالختم اختم قطعتي وتذللي للشيخ في نثري وفي منظوم
مولاي وقع بالمراد بمطلبي فالسر في التوقيع لا المرسوم
بالهاشمي محمد خير الورى صلى عليه الله دوم لزوم
مع آله والصحب ما حاد حدا هم في مقام الحب غير ملوم

وكان حضر بمحل نزولنا مع جماعة من علماء الطريقة جاءوا بقصد ملاقاة سيدنا محمود رضي الله عنه وزيارته، وطال انتظارهم، فكتبت له هذين البيتين :

حي الإله جمعكم ونلتم الأجر الجزيل
فلتصبروا سويعة حتى يوافينا الدليل

فكتب لي ارتجالا من بحر آخر :

قد صبرنا سنوات وزمانا يا جليل
كيف والمأمول شمس ماله فينا مثيل

---

(168) الشدا : قوا ركان الرائحة الطيبة.
(169) السموم : الريح الحارا وهو مؤنث جمع سمائم.
(170) اليراع : القلم.
(171) اليم : البحر.
(172) المروم : المراد.
(173) دويرته : تا غير دار وهي المنزل.
(174) المكتوم : من ألقاب الشيخ أبي العباس التجاني، انظر ج 2 ص 297-320.
(175) اصرم : اقطع.

فكتبت له من بحرها :

قد أتى منك جواب أيها البحر النبيل

ورأينا لك فيه ما به يشفى العليل

ترجمة الفقيه سيدي محمد العرائشي

ومنهم الفقيه الوجيه، العلامة النزيه، ذو الأخلاق العذبة المذاق، الدالة على طيب الأصول والأعراق، المحب الصادق، والخليل الموافق، أبو عبد الله سيدي محمد بن الحسين العرائشي الأصل، المكناسي النسل، جاء لمحل النزول لملاقاتنا صباح يوم السبت، ولم يكن عنده علم بقدومنا، حتى أعلمه النقيب سيدنا ابن زيدان، فأتى لمحلنا والشوق يزعجه، وذاك شأن المتحابين لا يقر لهم قرار إذا سمعوا بقدوم من يحبهم أو يحبوه، وبشهادة الله إني أحب هذا الفقيه الذي ارتدى برداء الخمول، وسلك على مسلك يفضي به لأعلى مقامات الوصول، قد تجرد عن الكبر، ولبس من لباس التقوى ما استحق أن يتقدم به أمام كل حبر.

وقد سألني عما ثبت عندي في نسب السادة الناصريين، فذكرت له بأن المسموع عندي أنهم من المرابطين، ولست على يقين من نسبتهم لآل البيت، فقال : هكذا ذكر الناصري صاحب الإستقصاء قائلا : ولعل نسبهم يلتحق بجعفر ابن أبي طالب، لكن قد ألف الناصري(176) بعد ذلك مؤلفا جليلا في سفر سماه : "طلعة المشتري، في النسب الجعفري" ألحق فيه الناصريين بالسلسلة الجعفرية، وأبدى في ذلك وأعاد، وذكر فيه أنه حين تأليفه للإستقصا لم يكن تحقق ذلك، إنما كان يسمعه منهم فقط إهـ... فقلت له : لو كانوا من آل البيت لكان أول من يصفهم به أبو علي اليوسي في داليته التي يقول في مطلعها :

عرج بمنعرج الهضاب الورد

وهذه القصيدة من غرر القصائد المشتملة على النكت العجيبة، مع ما انطوت عليه مما يدل على اتساع عارضة ناظمها في علم اللغة وغيره من العلوم المنطوية عليها، حتى أن الممدوح بها قد كان أمره بشرح ألفاظها اللغوية، ليسهل فهم معانيها لمن اطلع عليها، والذي أتخيله بين عيني أنه لم يذكر فيها كونهم من آل البيت، والله أعلم، ثم قلت : وكما تعجبني هذه القصيدة الدالية تعجبني قصيدة الإمام البوصيري التي يقول في مطلعها :

كتب المشيب بأبيض في أسود بقضاء ما بيني وبين الخرد

---

(176) أحمد بن خالد بن حماد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي، مؤرخ، باحث، ولد بسلا عام 1250هـ، وبها توفي عام 1315، من مؤلفاته الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، وطلعة المشتري في النسب الجعفري، وجهر الأفنان في شرح قصيدا ابن الونان، وكشف العرين عن ليوث بني مرين، والكلالة المشحون بنفائس تبصرا ابن فرحون، وتعظيم المنة بنصر السنة، وغير ذلك من المؤلفات الأخرى.

انظر ترجمته في الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 368 رقم الترجمة 815، وفي شجرا النور الزكية لمخلوف ص 432 رقم الترجمة 1702، وفي إتحاف الوجيز للدكالي ص 174، وفي أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين للجراري ج 2 ص 11-14، وفي الأعلام للزركلي ج 2 ص 120.

ومنها البيتان المشهوران

وتزود التقوى فإن لم تستطع فمن الصلاة على النبي محمد

صلى عليه الله إن صلاة من صلى عليه ذخيرة لم تنفد

وقد سألته عما يقرؤوه مع الطلبة من الدروس في هذا الوقت، فذكر أنه يقرأ معهم المختصر والألفية، أعاننا الله وإياه، ولما أراد النهوض كتبت هذه الأبيات بارتجال ليوصلها لمحبنا الأديب سيدي عبد القادر العرائشي، ونصها :

قرة العين جد لنا بالتلاقي قبل أن يفصل اللقا بالفراق

قد حللنا بربعكم لنراكم فتجودوا لنا بكأس دهاق

يا رعى الله ما مضى من وداد هل ترى قلبكم على العهد باق

لا تحولوا بالله عنه وكونوا مثل ما كنتم بغير شقاق

علم الله أنني مستهام وفؤادي معذب باشتياق

فلتعيشوا كما نعيش ورقوا للذي روحه وفت للتراقي

فعليكم مني أتم سلام ينتج الود في النوى والتلاقي

ولصاحب هذه الترجمة ذهن وقاد، وقريحة تامة، وله الباع الطويل في علم النحو والبيان، والفقه والعروض، إلا أنه قليل النظم، ومن نظمه تقريظه لهمزية سيدنا النقيب الزيداني المسماة "كفاية المحتاج"، ونصه :

هنيئا لك البشرى بما نلت من أجر وأحرزت من فضل عظيم ومن فخر

وفزت بما تبغيه من رتب العلا وحزت من الخيرات ما جل عن حصر

بمدح رسول الله خيرة خلقه ففي مدحه والله سر على سر

أيا عابد الرحمان نجل محمد سليل كرام ماجدين ذوي قدر

لقد صغت من مختار در منضد قصيدة مدح في خفيف من الشعر

مرصعة مرقومة بجواهر من أوصاف خير الخلق هي معدن الدر

كفاية محتاج لها النور والبها بأسرارها تزهو على الشمس والبدر

مواهب إنعام بها الله منعم عليك ففه شكرا وأكثر من الشكر

ليهنك حب المصطفى وشفاعة بها منه عند العرض في موقف الحشر

ترجمة الشريف سيدي عبد القادر العرائشي

ومنهم أديب مكناسة، من طأطأ له كل أديب رأسه، ذو اللهجة القاطعة لأوداج من بارزه في ميدان المسابقة، فلم يصل مجاراته أحد من ذوي الهمم الفائقة، من لسان حاله ينشد :

وإن لساني شهدة يشتفى بها ولكن على من صبه الله علقم(177)

فأذعن له أهل مصره في هذا المجال، ولم يبارزه إلا من اغتر أو جهل من الرجال، ألا وهو الشريف العلمي الأصل، الجامع لشتات الفضل، أبو محمد سيدي عبد القادر بن أحمد العرائشي، وهو من أعز أحبابنا، وقد اجتمعت به في هذه المرة بعدما وجهت له الأبيات المتقدمة التي أولها في مخاطبته :

قرة العين جد لنا بالتلاقي قبل أن يفصل اللقا بالفراق

فقدم لمحل نزولنا، وقلبه ممتلئ فرحا لملاقاتنا، حيث أنه لم يسمح بحلولنا بمكناسة، إلا وقت ورود الأبيات عليه، وأتى مصاحبا معه هذه الأبيات :

يا قلب إنك غافل فتفطن واطرب وغن وقل بدون توان
وجبت علي زيارة لأحبتي لا سيما منهم علي الشان
العالم العلم الأديب المرتضى بحر العلوم وقرة الأعيان
ذاك الفقيه الأحمدي سكيرج من حل بلدتنا بكل أمان
مع نجل من عم البرية فضله شيخ الكمال ومعدن العرفان
من خصه رب الورى بمكارم جلت عن الإحصاء والتبيان
أعني به القطب التجاني من له خضع الورى في سائر البلدان
ما ثم إلا عطفة قد نالها من جده بحر الوفا العدنان
صلى عليه وآله وصحابه رب كريم مانح الإنسان
ما سبحت طير وقال متيم إني فرحت لرؤية الإخوان

كنت تلاقيت مع صاحب الترجمة في رحلتنا الزيدانية قبل هذه، فكانت تلك الرحلة الشريفة مباركة بمعرفة أمثاله الذين أقبلوا علينا بفضلهم، ونظروا إلينا بعين القبول بين أهلهم، وقد أوقفني في هذه المرة على رسالة كان وجه لي بها لفاس جوابا عن كتاب كنت كتبت به إليه بعد الرجوع إليها من طرفهم، بعدما تلطف في المعاتبة في تركي للجواب عنها، واعتذرت بعدم وصولها إلي، وأجبته بارتجال عن القصيدة المشتملة عليها، ولا بأس بذكر القصيدة وأتبعها بالجواب، قال :

يا راحلا عن سواد المقلتين(183) لقد أسكرت حبا بما أمليت من راح
حتى غدا ذاهلا بسكره أبدا وصار مصطلما بفقد أرواح
مهلا على مهجتي فإنني كلف(184) أرجو الوصال لبغيتي وإصلاحي
ذاك الفقيه أبو العباس أحمد من غدت رسائله قوتا لأشباحي

(177) العلقم : المر.

سكيرج علم الذكاء والأدبا من حبه قد سرى في الذات كالراح(178)
يا حسنه من أديب زانه أدب وعالم ظافر بطل(179) أرباح
من رام أوصافه بكل محمدة لم يوف عشرا ولو أتى بإفصاح
لكن إحسانكم يعمني ولكم فضل على قلمي ما دمت يا صاح(180)
إني عجزت ولي في وصلكم أمل أشاهدن طلعة تزيل أتراحي(181)
الله يعلم صدق ما أقول لكم متيم بمليح رام إفضاحي
كيف السبيل إليه وهو في بلد قد عاقني عن خطاها بخل أشباحي
فاس لعمري هي الدنيا بأجمعها قد قال ذا من أتى ببعض أمداح
فيها الأماجد والأشراف والعلما من حبهم متجر لكل أرباح
لا سيما حبنا المذكور قبلهـــــم من علمه قد بدا بكـل أبـطـــاح(182)
نعم الحبيب الذي أتت رسالته وجرحت كبدي بدون مجراح
يا حسن ما حدثتني من بلاغتها قد طار قلبي لها بكل أفراح
لم أنسكم سيدي لا أنسين لكم عهدا فأنتم إمسائي وإصباحي
سلام عطر أخي يهديه صبكم ما هب ريح الصبا بطيب أرواح

وأجبته وهو حاضر بهذه الأبيات :

يا ساقيا مهجتي كأسا من الراح مهلا علي لقد سلبت أرواح
قد غبت من راحك التي سقيت بها روحي فها أنا ذا سكران لا صاح
سقيتني خمرة ما كنت أعهدها ولم أكن قبلها أميل للراح
رفقا علي بما سقيتني فأنا مسلوب عقل ولم أكن بمزاح
بالله فارفق بعبد أنت مالكه وأنت ساحره بسحر أمداح
متى يوفيك شكرا ليس يبلغه وأنت تمنحه سكرا بأمداح
لو قمت طول زماني في مديحك لم أوف ما أنت تستحق يا صاح
وغاية الأمر أني لا أطيـق لـــــه فاصفح عن العبد يا أجل مـــــداح

ومما أتى به لنا في مدح سيدنا محمود رضي الله عنه هذه القصيدة التي يقول فيها :

ألا إنني أهدي الثناء مع البشرى لمن ضاءت الدنيا بطلعته الغرا
هو السيد المحمود من قد به زكت محامده الحسنى فلا تقبل الحصرا
فمهلا أخا الأمداح هيهـات وصفـــه ولكن تطفل واسأل العـز والستـــــرا
كفى أنه من آل قطب زماننا التـجـــــــــــــاني من حاز المواهب والفخـــرا

---

(178) الراح : بمعنى الخمر.
(179) بطل : جمع طلا وطلال وهو المطر والندا.
(180) يا صاحي : بمعنى يا صاحبي.
(181) أتراحي : أحزاني وهمومي.
(182) أبطاح : من البطاح، ومفرده بطحاء، وهي مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى.
(183) المقلتين : مثنى مقلة وهي شحمة العين.
(184) كلف : مولع.

على البر والتقوى تأسس وردهم ... فدام لهم إذ هم به دائما أحرى(185)
ولا سيما منهم عظيم ذوي النهى ... من اجتمعت فيه مآثرهم طرا
شريف جليل من تقدم ذكره ... فأكرم به من طيب يبتغي الأجرا
لقد زاده الرحمان في الخلق بسطة(186) ... وأحسن فيه الخلق والرأي والفكرا
هو السيد العدل المطيع لربه ... وإن رعاياه تطيع له الأمرا
لقد سار فيهم سيرة عمرية ... وأوسعهم برا وأهدوا له شكرا
على أنهم يرجون طول بقائه ... ويدعون مولاهم يطيل له العمرا
به سعدت أيامنا وبلادنا ... وقامت به الأفراح والراحة الكبرى
وسادت به مكناسة وازدهت به ... وصارت تنادي مرحبا ببني الزهرا
له همة في كل شأن(189) علية ... وعزم قوي لا فتور به يطرا(187)
أجل أناس الأرض شأنا وهيبة ... وأكبرهم مجدا وأكثرهم برا(188)
وأرسخهم حلما وأجودهم يدا ... وأفضلهم علما وأعظمهم قدرا
فلا زال مسرورا ودام نعيمه ... به قائما ما دامت القبة الخضرا
بجاه رسول الله مأملنا الذي ... نؤمله عند الشدائد في الأخرى
عليه صلاة الله والآل كلهم ... كذا الصحب من حازوا العناية والنصرا
وإن شئت تاريخا فهاكه واضحا ... شريفا بهيا إنه يحسن الشعرا

وقد أجبته بارتجال بهذه الأبيات :

أجدت رعاك الله يا من علا قدرا ... وفقت السوى ممن أتى يطلب السرا
وأحرزت أجرا في الذي قد أتيتنا ... به من مديح يورث العز والفخرا
لك الله من مداح بيت محمد ... بحسن مديح فاق في القيمة الدرا
وأنت شريف الأصل تعرف قدر من ... يكون شريفا حيث أنت به أحرى
ألا أيها المولى المبجل قدره ... إلى أن غدا في الناس فوق العلا بدرا
أتيت لمحمود بعقد جواهر ... وسعيك محمود تنال به الأجرا
لك الله من حبر يجل مقامه ... لدينا بأن نحصي فضائله حصرا
فلا زلت تعلو والأعادي حقيرة ... وكلهم من بعد دفعك قد جرا

وقد كان استدعانا لمحله، فاعتذرنا له بأننا لا نتفرغ لذلك، فكتب لي هذه الأبيات لما رآنا ذهبنا إلى بعض منازل أحد الخاصة من الإخوان :

يا كعبة الأدباء يا علم النهى ... يا من له حب قوي في النبي

---

(185) أحرى : أجدر.
(186) بسطة : سعة.
(187) يطرأ : يحدث.
(188) البر : العطية والطاعة والخلق والخدم.
(189) شأن : مصدر شئون وهو ما عظم من الأمور والأحوال.

ما لي أراك تساعدن غيري بما يرجوه من أمل بنيل المطلب
وأنا تبعدني وتذكر أنكم لا قدرة لكم على ذا المرغب
فالقصد عندي نفرحن بقدومكم لمحلنا ونقول هذا مأربي
الله في دنف(190) يرى لكم الحقو ق وأنتم من أجله في مهرب
بين رعاك الله ما هذا الجفا هذا لعمري من عجيب أعجب

فأجبته بهذه الأبيات، وقد كان حضر معه سيدنا النقيب الشريف الأمجد، الأديب الأوحد، سيدي محمد بن إدريس الإدريسي الشبيهي(191).

مالي وحقك سيدي من مهرب إلا لكم فيما أراه ألم بي
إني أرى لكم الحقوق حقيقة لكن عذري عندكم لم يزري بي
من حيث أنك عندنا طي الحشا عند الإقامة عندكم وتغربي
فمحلكم عندي محل كرامة وحشاك تحسبني لديك كأجنبي
ما لي إليك أرى شفيعا في الرضى عني سوى المولى الشبيهي ابن النبي
فهو الذي قدمته لعلاك كي تعفو على هذا المحب المذنب

وقد دفعت له مجانة للطوق إكراما له، وطلبت منه القبول، فكتب لي هذين البيتين :

طوقتني سيدي مجانة الطوق جاءت مفضضة كلون معشوق
ألبستني حلة ضاءت كجوهرة لا زلت أشكركم ما دام منطوقي

وقد أتى لنا أيضا بهذه الأبيات في مدح سيدنا محمود رضي الله عنه، ونحن بروض سيدنا النقيب أمنه الله، ونصها :

---

(190) الدنف : المريض الذي لحمه المرض.
(191) انظر ترجمته في ج 2 ص 120 من هذا المجموع.

حلت بأرحابنا الأفراح واتسعت وعمها الخير لما حلها قمر
نجل التجاني محمود الفعال الذي قد حاز مرتبة يعنو(192) لها البشر
السيد الأفضل الذي له شهدت أفاضل بالثبات كلما نثروا(193)
لا سيما منهم الفقيه أحمد من يدعى سكيرج من سادت به صور
العالم الشاعر الأديب صاحبنا دامت معاهده لم تعرها غير
رفيق هذا الشريف من له حسب يغضي(194) حياء من الذي له بصر
أكرم به من شريف زانه خلق فاعكف عليه ففيه الخير والوطر
السمت(195) شيمته والصمت سيرته من حاز ذا قد أتاه الأمن والظفر
يا سيدي يا جليل القدر مدحكم عن مادح يبعدن فكيف ينحصر
لكن بالفضل منكم فاقبلن كرما أنت الملاذ وأنت الحصن والوزر
مني سلام على علياكم كلما فاحت عطور ومال الغصن والشجر
أستودع الله أحبابا لهم كرم من حبهم في الحشا غابوا وإن حضروا

وعند الموادعة وجه لنا هذه الأبيات، ونصها :

لما سمعت لقولكم قرب النوى(202) قلبي إذا والله منه قد اكتوى
وغدوت حيرانا ولم أجد الثوى(203) وبقيت مكلوما(196) أئن(197) من الجوى(198)
بالله رقوا وارحموا مضناكم فالبين(199) عذبه وصاح من الهوى
لا تقطعوا حبا ولو برسالة تشفيه من سقم عليه قد احتوى
وكذاك لا تنسوه من صالح الدعا قطعا يحوز محبكم ما قد نوى
بوجود من حاز الفضائل كلها نجل التجاني من على السر انطوى
السيد المحمود من قد عزه مولى الموالي من على العرش استوى
وأناله ما يرتجى من سؤدد فبه أزال الران(200) عمن قد غوى(201)
نعمت سياحته ونعم فقيهه الشاعر الراوي المفيد لمن روى

---

(192) يعنو : يخضع ويذل.
(193) نثروا : أي قالوا النثر.
(194) يغضي : يطبق جفون عينيه حتى لا يبصر.
(195) السمت : الطريق والمحجة.
(196) مكلوما : مجروحا.
(197) أئن : أتأوه.
(198) الجوى : العشق.
(199) البين : البعد.
(200) الران : الخبث.
(201) غوى : ضل.
(202) النوى : البعد.
(203) الثوى : بمعنى القرار والاستقرار.

ذاك الأديب الناثر البطل الذي خضعت له العقلاء كلهم سوا
أعني النزيه الأحمدي سكيرجا من قد رمى جسمي بسهم فالتوى
مولاي بالمختار سلم جمعهم واحفظهم يا فالقا حب النوى
فعليه من ربي الصلاة وآله ما لاحت الأقمار في أفق الهوى
وكذاك ما قد قال صب هائم لما سمعت لقولكم قرب النوى

ترجمة الفقيه سيدي محمد السوسي(204)

ومنهم العلامة الأمجد، الفاضل الأسعد، من اتصف بالأخلاق الحميدة، حتى نال الفضائل العديدة، فكان واسطة عقد أقرانه، في عصره وزمانه، أبو الفتح سيدي محمد بن أحمد السوسي، وهو من خاصة الأصحاب والأحباب، تلاقيت معه بروض الشريف النقيب، صباح يوم الأربعاء، كما تلاقيت في الرحلة الأولى به، ولما قدمنا في هذه المرة لمكناسة تشوفت لملاقاته، لما لنا فيه من المحبة القلبية، والمعرفة الودية، ونحن بحمد الله ممن يراعي حقوق الأحبة في الجملة، فوجب علينا أن نسأل عنه الإخوان، ووجهت له هذه الأبيات في الحال، عسى أن نجتمع به قبل الإرتحال:

ما على من أحبه من جنـــــــاح لو أتى زائرا لأهل الصـــــــلاح
لم أكن أعهد الجفا منك يا محبوب قلبـــــي ولم تحـل للـــــــواح
أنقضت العهود من بعـــد توثـيـــق فقـــل لي ماذا تـرى يا صـاح

---

(204) الفقيه العلامة المدرس القاضي السيد محمد فتحا بن أحمد بن الحاج المكي بن أحمد بن علي السوسي الإشتوكي نسبا، المكناسي مولدا ووفاتا وإقبارا، حيث أن الوافد على مدينة مكناس هو جده الأعلى سيدي أحمد بن علي السوسي.
اعداد بمدينة مكناس عام 1285هـ، وبها تابع دراسته العلمية بعد حفظه للقرآن الكريم على يد المدرر الفقيه سيدي محمد بن العياشي القبري، برواية ورش عن نافع، وبقراءة ابن كثير، وشيوخه في العلم والمعرفة كثيرون منهم : عمه سيدي محمد المفضل بن المكي السوسي، وهو عمدته، ثم أخوه العلامة السيد محمد بن أحمد السوسي، والفقيه سيدي محمد القاري العبدري، والفقيه سيدي محمد التهامي بن عبد القادر السوسي المعروف بالحداد، والفقيه سيدي محمد بن عبد السلام الطاهري، والفقيه سيدي محمد المفضل بن عبد الهادي بن عدو، والفقيه سيدي أحمد بن يوسف الناري، والفقيه سيدي عبد الله بن إدريس البدراوي، والفقيه القاضي سيدي أحمد بن الطالب بن سودا المري، وغيرهم.
أما عن وظائفه فقد عين عدلا بالسماط بمكناس عام 1311هـ، ثم نائبا لقاضي مكناس، ثم عضوا بمجلس الاستئناف الشرعي الأعلى بالرباط عام 1342هـ، ثم قاضيا على مكناس في شهر شعبان الأبرك عام 1346هـ، وبقي في منصبه الأخير إلى حدود عام 1359هـ.
من مؤلفاته : شرح موسى الحمدية الإمام البوعيري، وحاشية على شرح أرجوزة مطلح الحديث للشيخ أبي حامد سيدي العربي التاسي، وعون الموقوف بالجلالة على ألفاظ خاتم الرسالة، وعون الطالب السائل على فهم الأثرين المختوم بهما الشمائل، وختم مختصر خليل، وختم المرشد المعين، وختم الألفية لابن مالك.
وكانت وفاته رحمه الله بمدينة مكناس ليلة الثلاثاء 3 شوال عام 1369هـ، وصلي عليه بالجامع الكبير قبل الزوال، ثم حمل جثمانه إلى الزاوية الكنتية، ودفن بها في بيت أضافه لها وهيئه ليكون به مثواه الأخير، أنظر ترجمته في إسعاف الإخوان لابن التاطمي الشهير بابن الحاج ص 161.

ما الذي أوجب الجفا منك حتى لم تجئ عندنا ولو باقتراحي
يا رعى الله منك ودا قديما لست أنساه دائما بامتداح
لو علمت الذي بقلبي من شوق إليك لطرت دون جناح
ولو أنا ما كنت بالقلب منا لم تصلنا إليك طيب الرياح
غير أنا دمنا على العهد حتى ما إذا لم تجئ سللت سلاحي

وأردت بالعجز الأخير من هذه الأبيات مباسطته بالترهيب من الهجو، وكتب له معها سيدنا الشريف النقيب ما يدل على ذلك، واستدعاه للحضور بروضه للجمع بنا صباحا، فانتظرناه فلم يسرع بالقدوم، فكتبت هذه الأبيات :

متى يقول لنا الأصحاب جا السوسي من في العلوم يرى كمثل جاسوس
ما باله أخر المجيء وهو فتى قد كنت أعهده يأتي لتأنيس
لكنني إن يدم هجرانه سيرى مني الذي لا يراه غير إبليس

ثم حضر واعتذر، فقبلنا المعذرة، بعد أن رام معاتبتنا، بعدم إعلامه بقدومنا، ثم شرعنا في المذاكرة إلى أن سألته عما يقرؤه مع طلبته درسا، فذكر أنه يقرأ معهم الشمائل والمختصر والألفية، ومحل درسه في الألفية : "المقصود والممدود" فذكرت له هل يستحضر جواب إشكال طالما جلت في فكه، فلم يتيسر لي فكه في قول الناظم في الباب المذكور :

والعادم النظير ذا قصر وذا مد بنقل كالحجا وكالحذا

وذلك أن الحذاء جمعه أحذية، ونظيره سلاح مثل كساء، فله نظير، والناظم حكم بأنه عادم النظير، مع ما نص عليه ابن هشام(205) من أنه مما يستدل به على مد معتل الأخير من الأسماء قياسا أن يكون مفردا لأفعلة، وحذاء مفرد لأحذية، فلما نظر في هذا الإشكال وتأمله مع حضور بعض الكتب النحوية واللغوية لمراجعة محط الإشكال، فتح المولى سبحانه بجواب لطيف، وقد قنعت به في فك هذا الإشكال المنيف، فقال : إن الحذاء مؤنثة، وأفعلة جمعا لا يقاس إلا في المذكر الرباعي الممدود الثالث، كما قال في جمع التكسير :

لاسم مذكر رباعي يمد ثالث أفعلة عنهم اطرد

(205) عبد الله بن يوسف بن أحمد المعروف بابن هشام، من أئمة اللغة العربية، ولد بمصر عام 708هـ، وبها توفي عام 761هـ، من تآليفه : مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وعمدا الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب، في مجلدين، والجامع الكبير، والجامع الصغير، وكلاهما في النحو، ورفع الخصاصة عن قراءة الخلاصة، والإعراب عن قواعد الإعراب، وشذور الذهب، والتذكرة، في 15 جزءا، وموقد الأذهان، ونزهة الطرف في علم الصرف، وقطر الندى، وغير ذلك من المصنفات الأخر.
انظر ترجمته في النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج 10 ص 336، وفي الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ج 2 ص 308، وفي معجم المطبوعات لسركيس 273، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 147.

وأنت ترى في اللغة قد نصوا على أن الحذاء مؤنثة، فالجمع على أحذية فيه غير قياسي، وإنما هو سماعي، وكذلك تذاكرت معه في استعمالي للتويلف الذي شرعت فيه المسمى : بالنكت الخفية، في أبيات من الكافية، أحسن من نظيرها في الألفية(206)، مثل قوله في الكافية :

واسما بجر سم وصرف وندا وجعله معرفا أو مسندا

فهو أحسن من قوله في الألفية :

بالـجـر والتنوين والندا وأل ومسند للإسم تمييز حصل

لأن الصرف خاص بالاسم دون التنوين، والتعريف شامل للتعريف بأل وبأم في لغة حمير وبالإضافة، بخلاف أل فإنها تكون موصولة وغير معرفة، فالأحسنية ظاهرة، وقد حاول مدافعة هذا، لكنه أذعن لوضوح وجه الإستحسان، وهكذا في بعض أبيات تكلمت عليها في التويلف المشار إليه، سائلا من المولى الإعانة عليه، وهو الموفق للصواب.

ترجمة مولاي الطيب العلوي(207)

ومنهم ذو الأخلاق، العذبة المذاق، الدالة على طيب الأصول والأعراق، محبنا وحبيبنا وصفينا الشريف الأصيل، الماجد الجليل، من تحلى بحلي التواضع وخمول الذكر، الحائز لقصبات الفخر، مع أداء الحمد لمولاه بأداء الشكر، مولانا الطيب بن مولاي عبد الله العلوي الإسماعيلي، فهو من خاصة أحبابنا الذين اختصوا بالمحبة الصادقة، والهمة الفائقة، فلم يرضى بسفاسف الأمور، ورضي بالخمول بين ذوي الصدور، أنشد في بغية الوعاة للقيجاطي(208) :

ليس الخمول بعار على امرئ ذي جلال
فليلة القدر تخفى وهي خير الليالي

و أنشد هذه الأبيات في مدح سيدنا محمود، بلغه الله غاية المقصود :

ومحب سمعه أطرقه(212) موعد قد كان قبل مكتتم
فابتهجنا وسررنا ليله وانتظرنا منكم نقل القدم
فهنيئا إن وفيتم صحبه وغدا الشمل جميعا وانتظم
حفظ الله زمانا بكم جاد عنا بعد أن كان ظلم

---

(206) انظر ج 1 ص 111 من هذا التقليف.

(207) الطيب بن عبد الله بن محمد الطاهر بن عبد القادر بن عبد الله بن السلطان المولى إسماعيل العلوي، فقيه، أديب، نساخ للكتب، ولد بمكناس يوم الثلاثين 14 جمادة الأولى عام 1278هـ، كان متوليا خطة العدالة ومتدرا للشهادا بسماط العدول بمكناس، ثم رشح للشهادا بمراقبة الأحباس، وشيوخه في العلم كثيرون منهم : العلامة الأديب سيدي الغالي السنتيسي، وسيدي فضول بن عدو، وسيدي الطاهر بوحدو، وغيرهم.
وكانت وفاته رحمه الله في فاتح جمادة الثانية عام 1336هـ، ودفن بضريح جده السلطان مولاي إسماعيل، انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 3 ص 118.

(208) علي بن عمر بن إبراهيم الكناني القيجاطي، من أكابر علماء النحو واللغة بالأندلس، تولى الخطبة بجامع غرناطة عام 712هـ، وبها توفي عام 730هـ، من أهم تآليفه : نزهة المجالس، انظر ترجمته في بغية الوعاة للسيوطي ص 344، وفي غاية النهاية لابن الجزري ج 1 ص 577، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 316.

أحمد الوصف أبا حفص الرضا توأم الفضل كريم المعتصم
كيف لا وابن الرسول المرتضى صرتما عنده من أعلى الخدم
نخبة الأطهار بدر مشرق في الدياجي(209) وهو جحجاح(210) أشم(211)
راح للأرواح إذ راح لنا كل روح وانزوت عنا الغمم
فحمدنا الله إذ أكرمنا بطلوع البدر محمود الشيم

ترجمة مولاي عبد الله العلوي

ومنهم الشريف المنيف، الأديب الغطريف، المتحلي بحلي القبول، والمستتر تحت ظل الخمول، ففاق أقرانه بآداب رائقة، وهمة فائقة، مولانا عبد الله بن محمد بن عبد الله العلوي الإسماعيلي، وهو ابن أخي المترجم قبله، وقد اختارهما سيدنا النقيب لنفسه في تخريج تآليفه من مبيضاتها، لما لهما من الخط الحسن، والعقل الراجح، ويكتبان له بعض التآليف التي يريدها لنفسه، فيقومان أتم قيام بجميع ما يرومه منهما بطيب نفس، ولا يقصر حفظه الله من إكرامهما بما في طوقه، جزى الله الجميع خيرا. وقد أنشد صاحب الترجمة في مدح سيدنا محمود رضي الله عنه هذه الأبيات :

أبد ورا أذهبت عنا الظلم أم شموس نسخت آي الغمم
أم حبانا ربنا من فضله بحفيد الختم محمود الشيم
وحبانا بالأماني والمنى ووقانا شر ما كان ألم
فهنيئا أهل مكناس لكم فزتم بالنول من بحر خضم
وتوالـــت لكـــم الأفـــراح إذ ولت الأتراح والضيـق انفصم(213)

وبشير البشر قد بشرنا بخميس(214) اليسر للعسر هزم
فغدا الغصن لذا يرقص من طرب والطير يشدو بالنغم
مرحبا أهلا وسهلا بالذي أذهب الله به عنا النقم
بضعة المختار من بين الورى من بدت أمته خير الأمم
أحمد الخلق الرسول المرتضى من به تسدى لنا كل النعم
فعليه الله صلى دائما وعلى أمته بين الأمم

وقد نقلت عن صاحب الترجمة ما تتبع نقله من الأماكن التي لا زالت الكتابة منقوشة عليها في أبواب مدينة مكناس، وبعض جدرانها وقصورها، فمن ذلك ما هو مكتوب على باب منصور العلج : الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده،

---

(209) الدياجي : الظلماK
(210) جحجاθ : سيد
(211) الأشم : السيد Rو الأنفة
(212) أطرقه : أتاه ليلا.
(213) انثT م : انقطY
(214) الخميس : الجيt

طلعت معالي سعدها أبراجي وأضاء في فلك الجمال سراجي
قد نال من أوج المعالي صهوة(222) تسمو على الصهوات والأواج(215)
بوجود من أحيا الوجود وجوده فأناره بسره الوهاج(216)
من شاد بالنصر العزيز قواعدي وأدار بالفتح المبين رتاجي(217)
بيت النبوة والخلافة والعلا كهف(218) الضعيف وعدة المحتاج
مولاي عبد الله من أضحى به الإسلام معقود اللوا والتاج
ملك يطاع محبة ومهابة فتحين في نصر وفي أفواج
في كل صالحة له آثار تو فيق تنادي اسمه وتناجي
فانظر وقس ما غاب عنك بها ترى هذا قياس صادق الإنتاج
هل ورخت مثلي دمشق أم وشت صنعي يد صنعاء في ديباج(219)
أم خصت الإسكندرية بالذي يصفون من عمر ومن أزاج(220)
أم في الملوك نظير مولانا الذي هو للعباد كفاية الأمـــاج(221)
فالله يبقيه لرحمة خلقه ولغيثها بالصيب الثجاج(223)

والله يبقي دينه بوجوده بادي المعالم واضح المنهاج
ونوافل الخيرات تجبى نحوه من مغنم وهدية وخراج(224)
وتحية المولى السلام تحفه مسكية النفحات والآراج(225)

وعلى باب جامع الأنوار، الذي صار الآن قشلة للعسكر المولوي.

ما للخريف والبديع كمالي شرفي بمنشئ حلتي وكمال
مولاي عبد الله من دانت له شيم الملوك أجلة الأقيال(226)
حسبي من الفخر المخلد أنني أثر له والسعد في الإقبال
وقتي وشق كل نفس ودها تحظى به موصولة الإقبال

---

(215) الأواج : الأعالي
(216) الوهاج : الشديد الوهج المتقد
(217) رتاجي : الرتج والرتاج هو الباب العظيم
(218) كهف : ملجأ
(219) الديباج : الواجهة
(220) أزاج : أعجبه تشييدا أي بناه وطوله وباب الأزج محلة بمدينة بغداد
(221) الأماج : جمع الأمج وهو الحر الشديد والعطش
(222) الرواج : البرج في أعلى الجبل
(223) الثجاج : المطر الكثير السيلان الناوي
(224) الخراج : الأتاوا، وأرزاله ما يخرج من غلة الأرض والمال
(225) الآراج : ريح الطيب
(226) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس أو الملك

وعلى باب الخميس.

أنا الباب السعيد سموت فخرا سمو البدر في الفلك السعيد
سنا مولاي إسماعيل يبدو على ذاتي المنوطة بالسعود
ففي وقت سعيد قد بناني وورخ نشأتي جود المشيد

وعلى باب الدار الكبرى المختصة الآن بسكنى الشرفاء العلويين.

دار الخلافة لاح نور قبابها تختال بين رياضها وهضابها
فكأنما الأنهار في جناتها يمنى المليك الفخر يوم عبابها(227)
مولاي إسماعيل من جرثومة نقل الأئمة جده أوصى بها
يا راصدا لطوالع من سعدها فنظام شملك في عضاده بابها

وعلى باب المحنشة الذي بأسراك، بعد التعوذ والبسملة، وسورة الفتح إلى : "وينصرك الله نصرا عزيزا".

تكامل هذا الباب حسنا وبهجة وحاز ضروب الوشي والرقم والحكم
ولم لا ومبناه على العز والتقى كما الحسن المولى به أمر الخدم
فقف وانشق الرحمى تهب نسيمها به فهو باب الله فتح للكرم
بداخله الرضوان والأمن والهنا وروض أريض فيه منزهه أشم
فمن أمه يظفر بنيل مرامه ويرجع مسرورا ويكفى الذي أهم
أدم ربنا العلياء والملك للذي بناه وحطه في البنين وفي الحشم
وأوليه عزا دائما متواترا ونصرا عميما ثابتا راسخ القدم

(227) يوم عبابها : يوم شريها

ترجمة الفقيه سيدي محمد بصري(228)

ومنهم الفقيه الجليل، الخطيب النبيل، ذو السمت الحسن، والخلق المستحسن، والأدب الرائق، والتواضع الفائق، أبو عبد الله سيدي محمد بن المقدم الأجل، سيدي بلقاسم بصري المكناسي، التجاني طريقة، وراثة أبوية، عن أبيه عن جده، وهو ممن ولعوا بالبحث عن المعارف، واقتناء اللطائف، يتواضع لمن هو أصغر سنى، وينظر لمن دونه بعين التعظيم ليظفر بالمقام الأسنى.

ولا شك من كانت حليته التواضع والخمول، لا بد أن يفوز بالوصول لبلوغ السول. وقد تفاوضت معه فيما ذكرته في ترجمة جده في كتابنا : كشف الحجاب، عمن تلاقى مع الشيخ التجاني من الأصحاب، من كونه لم يأخذ التقديم عن الشيخ مباشرة، كما تذاكرت مع والده في ذلك، فكان الأمر كما ذكرته، والحمد لله، إلا أنه وقع في التنبيه المذكور في ترجمته سقوط لفظة التقديم عن الشيخ رضي الله عنه. أما الطريقة فقد تلقاها عنه بلا شك، وأما التقديم فقد تلقاه بواسطة القطب سيدي الحاج علي التماسيني(229)، والولي الصالح سيدي الحاج عبد الوهاب بن الأحمر(230)،

---

(228) الفقيه الجليل هو العلامة سيدي محمد بن محمد بن العارف بربه العلامة سيدي محمد بلقاسم بري المكناسي مقدم الزاوية التجانية بقبة السوق بمكناس.

(229) أنظر التعريف به في ج 1 ص 292 من الرماح المجموع.

(230) المقدم الجليل البركة سيدي الحاج عبد الوهاب بن الأحمر الأندلسي الغرناطي أصلا، التلمساني مولدا وقرارا ومدفنا، ينتسب لملوك بني الأحمر آخر ملوك غرناطة السليبة، وهو أحد أعيان أصحاب الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، توفي في ليلة يوم الجمعة 2 رمضان عام 1269هـ وفي حقه قال الفقيه سيدي محمد أكنسوس : ماتت أسرار الطريق بموته، انظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 231، وفي روض الشماريخ أهل الحقيقة لابن محرم العلوي الشنجيطي، رقم الترجمة 16 وفي الجزء الأول من إتحاف أهل المراتب العرفانية للعلامة الحجوجي. وفي نخبة الإتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 22.

والعارف الكامل سيدي محمد الغالي أبو طالب(231). وقد أطلعني على ذلك بخط يدهم المباركة في كناش جده المذكور، نذكر ذلك هنا تميما لما هنالك، وفق ما نقله لنا بخطه من خطه، مع زيادة فوائد لا بأس بذكرها تتميما للفائدة، وعلى الله الصلة والعائدة. فمن ذلك ما كتبه لنا، ونصه : الحمد لله. ومن خط جدنا العلامة، الفقيه الخطيب المقدم البركة، سيدي محمد بن بلقاسم بن الطيب المعروف بابن بصري(232) بعد الإجازة ما نصه : وأما الورد فقد أخذته عن الشيخ حال حياته رضي الله عنه، وهو عن النبي (ﷺ)، يقظة بلا واسطة، فصار الواسطة بيني وبين النبي (ﷺ) في الورد هو الشيخ رضي الله عنه، ولا أعلى من هذا السند، لله الحمد وله المنة انتهى.

---

(231) العارف بالله الشريف الأجل سيدي محمد الغالي بن محمد فتحا بن إدريس بن أبي طالب الحسني الأدريسي، من ذرية القاسم بن المولى إدريس الأكبر باني مدينة فاس ودفينها، قال في حقه الحب كتاب روض شمائل أهل الحقيقة ما نصه بعد كلام : وكان ممن أعطي التعرف في الوجود. ولما انتقل بعياله إلى الحرمين، لأن الشيخ رضي الله عنه قال : من أذن له في التعرف من أصحابي فلا يجلس في المكان الذي أنا فيه فتنه يخاف عليه. قيل له منا أو من الله، قال من الله بلا سبب مني. وبلغني أيضا أن هذا هو سبب انتقال الحاج علي حراز من فاس والله أعلم. ثم قال بعد كلام : وكان في رحلته للمشرق يفعل أشياء غريبة، منها أنه سلك طريق البر، وهي مخوفة ممتلئة باللصوص لأن يسلكها من الحجاج إلا القليل لأنهم المرقعا. سلكها هو بخطاله ونساءه وبعياله وأمواله. وإذا ترائى من بعيد اللصوص يتقدم القافلة على بغلته ويشير بيده للصوص بالتنحي، فيتنحون عنه ويتركون له الطريق فارغة، وربما خوفه الناس من المبيت في بعض المواضع فيبيت فيه ويأتي اللصوص إليهم حتى يختلطوا، ويفرق الله بعد ذلك اللصوص عن رفيقاتهم، وتوفي بمكة المكرمة في شهر ذي الحجة الحرام عام 1244هـ، انظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 267 وفي روض شمائل أهل الحقيقة لابن محمد العلوي، رقم الترجمة 5 وفي الجزء الأول من إتحاف أهل المراتب العرفانية للعلامة الحجوجي. وفي نخبة الأتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 9.

(232) المقدم العارف بربه، سيدي أبو عبد الله محمد بن بلقاسم بن الطيب بن الصغير بن مسعود المكنى بأبي سرحان بن محمد بن عبد الرحمان بن عبد الله بن عمر بن عبد الرحمان بن عمران الولهاجي، عرف بالبصري المكناسي، من مواليد مكناس في 3 ذي الحجة عام 1202هـ وكان سابع ولادته يوم عيد الأضحى المبارك، وتوفي رحمه الله يوم الاثنين 22 ذي الحجة الحرام عام 1293هـ وعمره حينئذ 91 سنة، ومن مناقبه أن الشيخ أبا العباس التجاني رضي الله عنه لم ينادي أحدا باسم المقدم إلا له، وكتب عنه أنه غطاه برداءه مرارا، وقال له : قبلنا على أي حالة كنت. ومن المعلوم أن المقدم سيدي محمد بلقاسم بصري قد أخذ ورد الطريقة الأحمدية التجانية عن صاحبها الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله عنه، أما الإجازة فيها فقد حصل له على يد المقدم الحاج الغالي المطيري عام 1244هـ، والثابت عندي أن سيدي الحاج الغالي المطيري هو واحد من الأربعة الذين قدمهم العارف بالله سيدي محمد الغالي أبو طالب. ثم أجازه فيها بعد الإذن العارف بالله القطب سيدي الحاج علي التماسيني عن طريق المراسلة، وكان الواسطة في الإذن العلامة الأديب سيدي التجاني ابن بابا ناظم المنية، وبعد الإذن أجازه البركة المقدم الشهير سيدي عبد الوهاب بن الأحمر التلمساني الأندلسي.

انظر ترجمته في فتح المالك العلام للفقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 32، وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية لنفس المؤلف ج 1، وفي نخبة الأتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 307، وفي روض شمائل أهل الحقيقة لابن محم العلوي رقم الترجمة 13، وفي كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 422، وفي رفع النقاب لنفس المؤلف ج 3 ص 55.

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله وآله وصحبه، ومن منن الله على أفقر الورى إلى رحمة مولاه، الراجي عفوه ورضاه، محمد بن بلقاسم بن الطيب المعروف بابن بصري أن حصل لي الإذن في تلقين ورد شيخنا العارف الأكبر، والكبريت الأحمر، القطب المكتوم، والبرزخ المختوم، الشريف الحسني، مولانا أبي العباس أحمد بن محمد التجاني، رضي الله عنه، من أخينا في الله الحبيب المحبوب البركة، الذي كان يشهد له الشيخ رضي الله عنه حال حياته بالفتح تصريحا، وعنده الإذن من الشيخ، وكان يلقن الأوراد حال حياة الشيخ، وهو سيدي الحاج علي بن الحاج عيسى، من بلاد تماسين بصحراء الجريد، ومن هناك كتب إلي بالإذن بخط يده، وهذا المكتوب :

نص إجازة القطب الحاج علي التماسيني للفقيه سيدي محمد بلقاسم بصري

بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد. وبعد : فقد أذن لحبيبه سيدي محمد البصري المكناسي في إعطاء الورد لسيدنا أبي العباس لكل من طلبه منه، نفع الله به، ونفع كل من أخذ عنه، وهو الورد المعلوم. أستغفر الله مائة مرة، وصلاة الفاتح لما أغلق إلخ ... مائة مرة، وذلك كالصبيان والنساء، ومن يحفظ صلاة الفاتح فهي أفضل، ثم لا إله إلا الله، مائة مرة صباحا ومساء. وكذلك من دخل هذه الطريقة يلازم الوظيفة صباحا ومساء، وإلا مرة بين الليل والنهار تكفي، إما صباحا أو مساء، وهو أفضل، وهي أستغفر الله مائة مرة، أو أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، ثلاثين مرة، وصلاة الفاتح لما أغلق خمسين مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، وجوهرة الكمال اثنتي عشرة مرة، وكذلك الهيللة يوم الجمعة بعد العصر، يؤخرها نحو ساعة، ويبقى يذكرها إلى الغروب بغير عدد. وإذا كان ذا حاجة يجعل عددا معلوما على نفسه يذكره، ويذهب إلى شؤونه، وأقل العدد ست عشرة مائة مرة، وإذا كان ذا حاجة أيضا ولم يتيسر له حتى العدد لا حرج عليه، ولكن يفوته خير كثير. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. كاتبه علي بن الحاج عيسى، عن إذن سيدنا وسيد كل ما خلق الله سيدنا محمد (ﷺ). انتهى من خط يده المباركة.

وأنت ترى تصريحه بالإذن النبوي الكريم، فلا أعلى ولا أشرف من هذا السند، لله الحمد وله المنة، اللهم اختم لنا بخير وعافية، آمين، وحفنا وأولادنا وأولادهم بخفي لطفك، وتيسير عافيتك واغفر لنا ولوالدينا وأولادنا وإخواننا، ولجميع المسلمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيئين، وآله وصحبه أجمعين إهـ... من خط يده المباركة، وأنت ترى أنه دعا حتى لأولاد أولاده، لله الحمد، وله المنة، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم(233).

(233) من مميz العارف بالله القطب سيدي الحاج علي التماسني أنه كان لا يجيز أحدا إلا عن إذن نبوي كريم، ولذا كان يختم إجازاته بقوله : عن إذن سيدنا وسيد كل ما خلق الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

إجازة سيدي عبد الوهاب بن الأحمر للفقيه المقدم سيدي محمد بلقاسم بصري

الحمد لله، وهذه إجازة سيدي عبد الوهاب بن التاودي المعروف بابن الأحمر، لجدنا سيدي محمد بن بلقاسم المعروف بابن بصري في تلقين ورد سيدنا رضي الله عنه أيضا، ومن خط المجيز نقلت، ونصه : بسم الله الرحمان الرحيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله. أحمد الله وأشكره بلسان المرتبة الجامعة للكمالات كلها، وأصلي وأسلم على من خصه الله بالعلوم والأسرار بأجمعها، وعلى آله وصحبه والتابعين، وأطلب من الله رضاه الأكبر، وقربه الأنور، أن يتحف به حضرة روح شيخنا الأكبر، القطب الرباني، والفرد الصمداني، البرزخ المختوم، والقطب المكتوم، ممد المشايخ كلها، من لدن عصر الصحابة إلى النفخ في الصور، إمام العارفين، ووصلة الكاملين، أبي العباس سيدي أحمد بن محمد التجاني، الشريف الحسني رضي الله عنه، ومتعنا برضاه آمين، وأن يصب رحمته الهاطلة، ونعمته الشاملة، على خليفته الأشهر، وحامل سره الأكبر، مؤلف أسراره، والمحتوي على جميع أنواره، أبي الحسن سيدي الحاج علي حرازم بن العربي برادة، الفاسي أصلا، دفين قبور الشهداء، قرب مدينة سيد الأنبياء، صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عنه وعن جميع الأولياء.

وبعد : فيقول أفقر العبيد، إلى مولاه الغني الحميد، خديم الحضرة التجانية، وحامل راية الطريقة المحمدية، أخي الأحباب، وخادم الباب، الراجي فضل الوهاب، عبد الوهاب بن التاودي المعروف بابن الأحمر، غفر الله ذنبه، وستر عيبه، وللمسلمين أجمعين، آمين. قد أذنت وأجزت لحبيبنا وصفينا، ومحل ودنا وسرنا، الفقيه المحب في الله، المؤثر على نفسه رضى الإخوان في الله، أبي عبد الله سيدي محمد بن بلقاسم بصري، قوى الله مدده، وجعل النفع على يديه للمسلمين، وحلاه بما حلى به أكابر العارفين، آمين، في تلقين الأوراد والأذكار المشهورة والمأثورة، عن شيخنا المذكور وخلفيته رضي الله عنهما، مما اشتمل عليه كتابه المسمى : "بجواهر المعاني في فيض التجاني" وكذا مما سمع منه، أو أخذ عنه، من كل ما يرجع لطريقته التجانية، من خاص وعام، تلقينا وإجازة عامة، وكذا إن ظهر له من يصلح للتقديم من غير سكان البلد مكناسة الزيتون، مدة حياته، ما يظهر له فيه صلاح الإخوان المسلمين. لا أستثني عليه في هذا الإذن شيئا قل أو كثر، يفعل بنظره ما شاء، ولا يكون إلا خيرا إن شاء الله. وأذنته أيضا في قراءة القرآن والأدعية بأجمعها لنفسه ولغيره. وكذا عمل الرقى، وإخراج العين، وما يحتاج إليه الإخوان جميعا، والسلام.

وكذا أيضا أذنت له في الفاتح لما أغلق بمرتبتها الظاهرة والباطنة، وما اشتملت عليه المرتبتان من الأسرار والأنوار، والتجليات والفيوضات والترقيات، والتضعيف الذي لا يحصى ولا يعرفه إلا أربابه، وما مثل واحدة من مرتبتها الباطنة مع الظاهرة إلا كالعرش مع إحدى الأرضين. وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه، آمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما إهـ...

تقييد لسيدي محمد بلقاسم بصري

ومن خط جدنا العلامة الفقيه الخطيب سيدي محمد بن بلقاسم بن الطيب بصري ما نصه : الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله. كنت قريبا من سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف أطالع التأليف المعروف لأخينا في الله، المحبوب المحب المرحوم بمن الله تعالى، سيدي الحاج علي حرازم برادة، في التعريف بسيدنا وسندنا وشيخنا، الذي امتن الله جل ذكره به علينا، سيدي القطب الرباني، الغوث الجامع الصمداني، أبي العباس التجاني، أسكننا الله معه في دار التهاني، آمين، بجاه سيدنا ومولانا محمد الصادق الأمين.

وطالعت بعض ما فسر به رضي الله عنه بردة المديح للعلامة البوصيري من الفتوحات الإلهية، والفيوضات الربانية، على عادته رضي الله عنه في تفسير كلام الأولياء، سيما مديح الأكابر والأنبياء، إذ لا يعرف البحر إلا من سبح(234) فيه، وكان يختلج في صدري، ويضطرب في وهمي وفكري، التعرض لضبط كثير من أحواله، وجمع ما شرد من علمه وأقواله، لأن ما جمعه هذا المحب المذكور، وإن كان يجمح دونه العارفون، ويقف حول حماه العلماء العاملون، قل من كثير، وقلامة من ظفر، سيما وقد توفي هذا الأخ المذكور رحمه الله تعالى قبل وفاة الشيخ بكثير، وتكاثر فيضان بحر سيدنا رضي الله تعالى عنه، حتى بصر كل بصير، وإن كنت والله لست من أولئك، ولا ممن يسلك تلك المسالك، لكن كما قيل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام رباح

هذا والمحبة تثير وجدا، وتصير الغي رشدا، فرأيت في المنام، إما قيل لي، أو قلت في تسمية هذا التقييد الذي أردت : "الفتوحات الربانية، على الفيوضات التجانية"، فقمت منتبها من منامي مسرورا، بما أراجعه من كلامي، فأنا والحمد لله إلى الآن غير آيس مما أردته، ولا منقطع الرجا مما أملته، غير أنه لم يتيسر لي الشروع في المقصود إهـ.

ما حكاه عن نفسه رحمه الله تعالى ورضي عنه. قال كاتبه حفيده وسميه محمد : سألت والدي الفقيه الخطيب سيدي بلقاسم، هل أخرج جدي رحمه الله ما وعد به ؟ فقال : لا، لكن قال لي : إنه كان شرع في تأليف آخر في السلوك على طبق الأوراد. وهو بإرادة الله وقدرته في نحو نصف كراس، فلم تتعلق إرادة الله بإكماله(235). وقد أنشد صاحب الترجمة في مدح سيدنا محمود رضي الله عنه هذه القصيدة :

لي في الهوى خل كغصن البان يسبي العقول بجسمه الفتان
ومنحته نفسي عساه يجود لي بوصاله في الناس طول زمان

---

(234) من تنيف العارف بالله البركة سيدي الحاج علي حرازم برادا التلمسي وهو مطبوع في جزء من الحجم الكبير، وللعلامة سكيرج تقريظ عليه قال في مطلعه :

ماذا تبدى لنا من داخل السفر حتى غدونا به في حالة السكر
كأنما الخمرة استولت بلعبتها بعقلنا ولقد ملنا عن الخمر
سرنا سكارى بما كدنا نطير به من السرور الذي قد قر في الصدر

(235) انظر نص هذا التقييد في روض النقاب للعلامة سكيرج ج 3 ص 62-63.

فثنـــى إلـــي عنـانـــه ورمـــى إلـــي سـهـامـــه فغدوت كـالـسـكـــــران

وغدا يقول إلي يا رهن الهوى ... أتروم مني الوصل دون هوان
إن الهوان ملازم لذوي الهوى ... والحب يقلب كل ذي سلطان
فأجبته والدمع من عيني جرى ... بالله فارحمني فإني فان
فان بحبك لا أريد سواك في ... عمري لأني في غرامك عان
مالي سواك أريده لتخلصي ... إلا الفتى سبط الرضى التجاني
محمود سعي من سما مقداره ... وحوى مقاما لم يصله ثان
متفردا بجلاله بين الورى ... بوارثة من جده العدنان
ما الفخر إلا ما حواه لأنه ... بدر به قد ضاء كل مكان
فتهابه أسد الوغى بين الورى ... مهما بدا في حومة الميدان
تعنو له الرؤسا لما قد ناله ... من سره الساري إلى الأكوان
فاقصده كي تحظى بنيل سعادة ... ومتى تراه تنال كل أمان
وقل السلام عليك يا كهف الورى ... يا من غدا محمود كل لسان
مولاي إني قد أتيتك زائرا ... بالله فامنحني بنيل أمان
فعليك يا مولاي خير تحية ... وعلى الإمام شيخنا التجاني

ومما نقله لنا من كناش جده بخطه هذا التخميس اللطيف لقصيدة العارف بالله الشيخ سيدي إبراهيم الرياحي التونسي(236) رضي الله عنه، في مدح أستاذنا، علم العارفين، وإمام الواصلين، أبي العباس التجاني الحسني، وهو للأديب الفاضل الأريب، سيدي محمد ابن الفقيه السيد عبد الوهاب بن حمدوش المكناسي(237) رحمه الله تعالى بمنه وكرمه آمين :

---

(236) العالم العلامة العارف بربه سيدي إبراهيم بن عبد القادر بن سيدي إبراهيم الطربلسي المحمودي بن Tالح بن علي بن سالم بن بلقاسم الرياحي التونسي، ولد بتستور بتونس عام 1180هـ، وأخR العلم والمعرفة عن جماعة من جRlmj علماC وفقIC تونس منjم : جمIs الجباص، وTالح الكواt، ومحمد التاسي، وعمر بن قاسم المجبوب، وحسن الشريف، وأحمد بو خريص، وإسماعيل التميمي، والطاهر بن مسعود، وغيرهم. أما الطريقة الأحمدية التجانية فقد أخRها أولC بتونس عن العارف بالله سيدي الحاج علي حراIم برادا التاسي عام 1216هـ. وبعدها بسنتين حدKا مسغبة ببلاد تونس، فرشح للRهاب للمغرب وملافا بساطانه قTد طاب المعونة، ولما جاC لمدينة فاس كان أول عمل قام به هو جيارا دار شيخه أبي العباس التجاني رضي الله عنه، حيث رحب به وأكرمه غاية الإكرام، كما أجاIه في طريقته الأحمدية، وللعلامة سيدي إبراهيم الرياحي العديد من الأجوبة والتقاييد العلمية المفيدا منjا : مبرد الTوارم والأسنة في الرد على من أخرج الشيخ التجاني عن دارا أهل السنة، وديوان شعر مرتب على الحروف الRجائية، ومنظومة في علم النحو، وحاشية على التاكjاني، وغير RIا من المTنتKى الأخرă.

وكانK وفاته رحمه الله في 27 رمضان عام 1266هـ، انظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 132، وفي رفY النقاب لنIس العلامة ج 1 ص 17، وفي بغية المستفيد لسيدي محمد العربي بن الساCح ص 264، وفي روU شماIل أهل الحقيقة لIبن محم العلوي الشنجيطي رقم الترجمة 12، وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية للعلامة الحجوجي ج 1، وفي نخبة الIتحاف لنIس العلامة رقم الترجمة 297، وفي فتح المIا العلام لنIس العلامة بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 6، وفي شجرا النور الIكية لمخلوف ص 386 رقم الترجمة 1555، وفي الجيt العرمرم الخماسي لأكنسوس ج 1 ص 294، وفي الأعلام للIركلي ج 1 ص 48، وفي اليواقيK الIمينة لظافر الأIهري ج 1 ص 89، وفي معجم المطبوعاK لسركيس 1381.

(237) الIقيه الأديب البركة سيدي محمد بن عبد الوهاب بن حمدوt المكناسي، أخR الطريقة التجانية عن سيدنا رضي الله عنه مباشرا، Iم حTل له ما يخل ببعU شروطjا، فجاC للشيخ رضي الله عنه وطلب منه أن يجدد له الRIن، فقال له على طريt التربية : Iل سبيل إلى الرجوY، فبقي عاكفا على باب دار الشيخ رضي الله عنه IييرΘ عنه ليلا وIل نjارا مدا أيام، Iم توسط له بعU الأTحاب في استعطاف سيدنا رضي الله عنه وقال له : إن الرجل ترا أولIدا وبناتا ضعافا، فIن

حديث أحباب قلبي فيه إيناسي بذكرهم أرتجي تطهير أدناسي
عن غيرهم لا أزال ذاهـلا نـاســـــي (صاح اركب العزم لا تخلد إلى اليـاس
واصحب أخا العزم ذا جد إلى فاس)

فصف لهم حال أشواقي بكثرتها وشأن ما ذرفت عيني بعبرتها
كفى بربي شهيدا في سريـرتـهـــــا (واشرح متون صبابتـي لـجـيـرتـهـــا
وحي حيا بهم قد كان إيناسي)

فحبهم سر سري بالفؤاد كمن وذكرهم جهر جهري خص ذاك وإن
حدثت عني مـقـالـــه فـزنـهـــا وزن (واقرا السلام على تلك المعـاهـد مـــن
حيران تلفظه ناس إلى ناس)

لا زال يلهج في الإحيا بذكركم والشوق يزعج في الأحيا لقربكم
فليس يصحو دواما مـن ودادكـــــم (وقل لهم ذلك المضنـى وحـقـكـــــم
باق على العهد ذو وجد بكم راسي)

يستسهل الصعب دأبا في طريقكم لو مات ما ذاك موت في لقائكم
ما الناس ناس لديه بعد بـعـدكـــــم (لا يبصر الحسن إلا فـي وجـوهـكـم
وليس يجنح في حب لوسواس)

يرجو من الله تعجيلا لأوبته لحسنكم : فلقاكم جمع بغيته
إن تقبلوه فذاك مـــن سـعـادتـــه (وعج إلى حيث من عيني لـفـرقـتـــه
تبكي وتزفر بالأشواق أنفاسي)

من لي بأن لو أرى الرياح تحملني لمن لهم نفحات الطيب ترشدني
ومن لهم كثرة الأشواق تـقـلـقـنـــي (ومن أنا فيه هيمـــان يـقـلـبـنـــي
دهري بأنواع تهيام وأجناس)

أ K ل له ف ا ا وإنّ ف ا قبره ببابا ، ف ن له الشيخ رضي الله عنه حين ، وه ه الف ة م كورا في الفوائد الأحمدية لسيدي الطيب السنيلني في باب حرف اللام، وفي بغية المستفيد لسيدي محمد العربي بن الساح ص 307، وفي روض العتاب عمن ترا الجيارا من الأ حاب للعلامة سيدي محمد فتحا كنون ص 28، وفي غير ا ا من كتب الطريقة.

انظر ترجمة التقيه سيدي محمد بن حمدوش في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 525، وفي روض النقاب لنفس العلامة ج 3 ص 135-138، وفي نخبة الائتحاف للعلامة الحجوجي رقم الترجمة 314.

أرجو به الله في الأحياء يجعلني وافرحتي إن لوجه الله يقبلني
من لم يكن في هواه الحرص يعذلنـي (ومن فؤادي به مضنى(238) يحملني
ما بعضه دك منه الشامخ الراسي)

ما لذ لي بعده نوم ولا سهر من لي بان لو أتى من عنده خبر
من حبه سار حيث لم يسر قمر (ذاك الذي نال ما لم يحوه بشر
من العطايا ولم يعرف بمقياس)

يا من إليه تشير الناس إن قيل من حباه ربي مقاما جل وصفه عن
شأو البليغ فكيف بالعيي ومن (غوت البرايا أبو العباس أحمد من
معناه أعظم أن يجلى بقرطاس)

عبد لكم شوقه لازال يزعجه لو سار بالرأس ليس السير يعجزه
إذ ذاك يدني لفضل جاد منجزه (روح الوجود وقطب الكون مركزه
مداده سره الساري إلى الناس)

رحمة ربي على من شاء يرحمه ومحض فضل كمال الفضل معظمه
فمن أراد اغتناما ذاك مغنمه (رمز الوجود وسر الحق طلسمه
مكنونه كنزه المخفى بحراس)

من كان لله من شكواه مفزعه(239) فرام ذاك الحمى ما خاب مطمعه
بشراه بشراه كل الخير مضجعه (حقيقة الكون معنى السر مجمعه
فيض الإله بلا لبس ولا باس)

تولهي(240) فيه في أقصى الفؤاد سكن وكل خير بدا لمن إليه ركن
ذاك الذي له في العلياء خير وطن (أعني التجاني تاج العارفين ومن
بسابغ الفيض من عرفانه كاسي)

عبد قد انهمرت بالدمع مقلته فيكم وقد أعذب التعذيب عبرته
شوقا لمن لم تزل تسبى مودته (ومن محبته ديني وخلته
عقلي وروحي وجلاسي وأحداسي)

ومن عليه بعون الله معتمدي فزاد منه بفضل بالنهى مددي

---

(238) مضنى : ضعيف وهزيل
(239) المزة : الملجأ
(240) تولهي : وجدي وتحيري

وحبه راح روحي بل منـــى خلـــدي (ومسمعي وفؤادي وانبســـاط يـــدي
ومقلتي ولساني بين جلاسي)

عن خيرة الخلق كم ينبيك من نبأ عذبا زلالا ولم يكن بذي حمأ(241)
نهاية الحسن لا كالحسن فـــي رشـــأ (يا سامعي إن تكن للسر ذا ظمـــأ(242)
فجئ لأحمد ساقي السر بالكاس

من شاء رب العلا يلهم ناصحه يوقد بالنور والبشرى مصابحه
يا من إله الورى أبدى مصـالـحـــــه (رد ورده العذب واستنشـق روائحـه
تظفر بأعطار ذاك الورد والآس)(243)

خير الصحاب الذي يولي لصاحبه نصحا، ويبحث عن أخفى مطالبه
أما ترى الصدق لا يكبو بـراكبـــــه (واستعمل الجد في تحصيل واجبـــه
إن لم تكن في بساط القرب ذا ياس)

مازلت تفحص للأسرار عن كفؤ حتى وجدت منى التطهير من خطأ
ففزت لج في منى الإسعاد فـي مـــلأ (وأهرع(244) إليه إذا ما كنـت ذا ظمـأ
واسرع إلى الله مشاء على الرأس)

ترك التواني لمن وعت مسامعه لله من يتواضع فهو رافعه
لا أحد في الورى عن ذا يمـانـعـــــه (وانهض فقد لاح للإسعاد طـالـعـــه
وقم ولاتك للإسعاد بالناسي)

واقلع عن الإثم إبعادا لواجبه واعزم بتوبة خاش من عواقبه
رحمة ربي قريب مـــن مراقبـــــه (واخلع ظلاما على قلب منـعـت بـــه
أن تستضيء من المعنى بنبراس)(245)
للخير أهل لهم محجة علمت أخلاقهم في سبيل الرشد قد كرمت
لذاك في المرتجى أمورهم عـظـمـت (وما ظنونك بالورد الـذي نـظـمـــت
يد النبوءة هل يبنى بلا ساس)

ترك التلذذ بالدنيا لتاركه عنوان فضل فأعرض عن حوالكه

---

(241) الحمأ : الطين الأسود
(242) الظمأ : العطش الشديد
(243) الآس : نبات معروف وأزهار كروية بيضاء وراحة عكية
(244) هرع إليه : مشى إليه باضطراب وسرعة
(245) النبراس : المصباح

ملك القناعــة تشريـــف لـمـالـكـــــه (وما تظـــن بمنهـــاج لـسـالـكـــــه
أمن من أهوال نيران وأرماس)(246)

من ذا يطيق يراها عند أضرامها شرارة كجمالات بأجرامها
أحكام ربي قضى عدلا بـإبـرامـهـــــا (يا رب أدعوك بالأسما وأعـظـمـهـــا
وأعظم الرسل ذي الإحسان والباس)

من لم يكن مثله في الخلق في زمن هو الشفيع لنا والناس في حزن
بجاهه أرؤف بنا فنحن فـي وهـــــن (وحمزة وعلـي وابـنـــه حـســـــــن
مع الحسين وزهراء وعباس)

والسنن الأقوم الأسمى وتابعه ومن تلا الذكر إيمانا كسامعه
رب اهدانا الرشد واهد عن قواطـعـــه (واجعل قلادة(247) جيدي(248) في أصابعه
وارحم به قلبي المضنى به القاسي)

قدني لرشدي تلطفا وتكرمة واجعل لنا فيه تثبيتا ومقربة
لا تحرمني من الـخـيـــرات مـسـألـــة (وابعث له عند سمع الـنـظـم مـرحـمـة
تنفي على شقاوتي وإفلاسي)

فكل خير فمنك أنت موجده وكل ما يختشى فأنت مبعده
واجعل صلاحي مع من أنت مرشـــده (واجعل نظامي وإن لانت مـفـاصـلـــه
إن لن به أرتجي محوا لأرجاسي)(249)

واختم لنا خير ختم للسعود حوى واجعل لنا خير جار في الجميل ثوى
واجزيه خير جزا من الصحيـح حـوى (وعم مثواه(250) تسليما فـلـيـس سـوى
تسليم ذاتك كفؤ القطب في الناس)

---

(246) أرماس : جمع رمس وهو القبر مستويا لئ يعلو عن وجه الأرض
(247) القلادا : ما جعل في العنق من الحلي ج قلائد وقلاد
(248) الجيد : العنق
(249) أرجاسي : جمع رجس وهو العمل القبيح والقذر
(250) مثواه : مدفنه

ترجمة الشريف سيدي محمد الشبيهي

ومنهم العلامة الفاضل، خطيب جامع الزيتونة بمكناسة الزيتون، الأديب الغطريف، الشريف المنيف، أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس الإدريسي الشبيهي(251)، أحد العلماء المدرسين بمكناسة، له ولوع تام بالأدب، حتى حصل منه على ما طلب، فأصبح بين أقرانه يرفل في رداء حلاه، راقيا في علاه إلى أعلى علاه، شريف الأصل والنفس، فهو الحر الذي يبجل في المعنى والحس، عشقت سيرته منذ زمان قبل الإجتماع به، حتى ضمنا المجلس عند سيدنا النقيب الزيداني في أبهج مكان، فشكرا لهذا النقيب الجليل، كم أسدى إلينا من مكارم في معرفة هذا الشريف الأصيل، زاد الله في أمثاله، وبلغه في الدارين أقصى آماله، وقد كان حاضرا في هذا المجلس السعيد، والجمع الموفق الرشيد، من أعيان السادات، من ذكرته في هذه الأبيات :

يا ساعة مثلها لم تلقى في زمن — من أجل جمعي بهذا المفرد العلم
من كنت منتظرا لقربه زمنا — بما سمعت له من رفعة الهمم
شمس البلاد التي في أفقها انفردت — برتبة في العلا منيرة الظلم
ذاك الشبيهي الرضى من لا شبيه له — في الخلق والخلق والعرفان والكرم
من سادة بهم العليا قد افتخرت — وشاع فضلهم في سائر الأمم
أعظم به من شريف زانه أدب — وقدره جل بين العرب والعجم
به اجتمعت بروض صار مزدهرا — به وبالسيد العرائشي العلمي
أديب مكناسة ومن له رتب — تسمو لأعلى مقام في العلاء سمي
وبالفقيه العرائشي المحب أبي — عبد الإله الذي فيهم رعى ذممي
وبالنقيب ابن زيدان الذي كملت — أوصافه بجميل الخلق والشيم
فالله أسأل أن يرعاهم أبدا — وأن يحفهم بفضله العمم

فأجابني من نظمه الرائق، ولذيذ إنشائه الفائق، بما نصه :

لبيك لبيك يا من حاز كل علا — وجل قدرا رقى عن كل ذي عظم
وساد أهل الهدى فضلا ومنقبة — فكان بين ذوي الإفضال كالعلم
وفاق كل بليغ قد علا أدبا — وأحرز الكنه(252) في مجد وفي كرم

بدر تكامل في إشراقه وسما — أفق السماء بجنح الليل في الظلم
ذاك السري(254) أبو العباس أحمد من — له المزايا التي في الناس لم ترم
سكيرج من علا قدرا ومرتبة — وكان بين الورى أجل محترم
الفاضل العالم النحرير من رسخت — أقدامه في مباني المجد والكرم

---

(251) نسبة للولي الصالح أبي العباس سيدي أحمد الشبيه، دفين روضة رأس التاج المعروفة اليوم بروضة سيدي عمرو الحسيني، وهي إحدى الروضات الشهيرات بمدينة مكناس، وإلى الولي الصالح المذكور ينتسب كافة الشرفاء الشبيهيين، وهو ابن عبد الواحد بن عبد الرحمان بن أبي غالب بن عبد الواحد بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الرحمان بن عبد الواحد بن محمد بن علي بن حمود بن يحيى بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى الجوطي بن القاسم بن المولى إدريس الأزهر باني مدينة فاس.

(252) الكنه : جوهر الشيء وأصله وقدره وحقيقته وغايته.

حبر تقاصر أولوا العلم قاطبة عن درك همته في العلم والحكم
وعن بلاغته أهل النهى قصروا وأظهروا العجز في معناه والكلم
كذا الألى من بقرض الشعر قد عرفوا قروا بطلق لسان غير منعجم
وقال بارعهم لله من درر منظومة نضدت(253) في عقدها الفخم
بها تفرد فرد الشعر من خضعت له أسود الثرى في غابها الأجم
سبحان من قد حباك كل مكرمـــــــة بها ترقى مرامي العـز والـهمـــم
حتى إذا لم تضح كالشمس سيرته ينبيك عنها كريم الخلق والشيم
أنيلها من عظيم الجاه من ثبتت له الولاية حقا سابق القدم
سر الوجود التجاني القطب من شهدت بيمنه السر لسن العرب والعجم
عليه سحب الرضى تغشاه دون مرا(255) من المهيمن مسدي الخير والنعم
ما فاح زهر رياض الأنس وانعطفت ريح الصبا من حمى نجد ومن إضم

وكم لصاحب الترجمة، رعاه الله، من شعر رقيق، ومعنى دقيق، في لفظ رشيق شريق.

ترجمة سيدي محمد بن حبيبي بصري

ومنهم الشاب الظريف، الأديب العفيف، ذو الخلق الجميل، والقدر الجليل، الفاضل الأمجد، أبو الفتح سيدي محمد بن حبيبي بصري، من خاصة الأحباب والإخوان، الذين سارعوا إلى قصبة السبق في الفضل بين الأقران، فتخلى عن الرذائل، وتحلى بأحسن الشمائل، غير أنه خفيف الروح، لا يستثقله مجالسه، ولا تزال تحمد مجالسه، بما أوتيه من الإنبساط، وشرح الصدر في كل بساط، وله عقل رجيح في استنباط النكت الرقيقة، فيما يخوض فيه من العلوم، وكان له ولوع بعلم الحساب، وما هو من قبيله من علم السيمياء مثل الأوفاق، ولكن أعرض عن ذلك، لما لم يجد من يسلك به في هذا الفن على أقوم المسالك، بعدما تحقق أن ذلك لا يقف له الشخص بنفسه على حقيقة، ما لم يجد من يأخذ له باليد، وهذا الفن لا أرى متعاطيه في هذه الأزمنة إلا من الخائضين في بحر لا يقفون له على طرف، والغالب منهم يؤديهم إلى التلف، لكون أبوابه مغلقة، ولا تفتح لمن يقف مع حظوظه ما دامت نفسه بها معلقة، وقد نبه على ذلك سيدنا رضي الله عنه وعنا به، بما لا مزيد عليه، في جوابه لمن سأله عن خواص الدائرة الشاذلية، فليراجع ذلك من أراده في جواهر المعاني(256)، والله الموفق.

وقد كنت كلفت صاحب الترجمة بأن ينقل لنا ما هو منقوش على باب الزاوية المنورة التجانية بمكناس، وما هو على سقايتها المبهجة. فمنعه من امتثال الأمر ما هو مكلف به من قضاء بعض المطالب التي هي أهم من ذلك، حتى سافرنا عن مكناسة، ولما رجع سيدنا النقيب من موادعتنا كلف حبنا، وخلاصة ودنا، الفقيه العلامة، الذي لا يحتاج إلى التمييز بعلامة، سيدي

---

(253) نضدت : ضم بعضها إلى بعض

(254) السري : مجرد سرى وسرا وهو السيد الشريف السخي، وتحب المرء.

(255) دون مرا : دون شا أو ريب

(256) انظر جواهر المعاني وبلوغ الأماني للعارف بربه سيدي الحاج علي حرازم برادا ج 2 ص 187.

محمد الغالي السنتيسي، أطال الله بقاءه، وأدام في المعارف الأحمدية الختمية ارتقاءه، فجاء بما هو مذكور في هذا المحل، فمما هو منقوش على خذي الباب :

باب السعادة والرضوان والظفر لداخليه جميع السول الوطر

وحاج(257) من حج ذا المقام قد قضيت وصب فيه عليه الخير كالمطر

ومما هو بداخل محرابها : (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا، وكفلها زكرياء، كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)(258).

إلى غير ذلك من الأفاضل الذين اجتمعنا بهم في هذه المدينة المنورة، ممن ارتدى برداء الوقار والسكينة، واقتصرنا على تراجم هؤلاء السادة الجلة، حتى لا يفوتنا ذكر مثلهم في هذه الرحلة، وإن كان ذكر من تلاقينا معهم لا أحصي لهم عدا، وتتبع أسمائهم يحتاج إلى تأليف مجدد لذكر الأسماء، زاد الله في امتثال ساداتنا الإخوان، ورفع بمنه للجميع القدر والشان، وبارك في هؤلاء الأفاضل الأعيان.

السفر من مكناس إلى زرهون(259)

وفي الساعة العاشرة من نهار يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة، سافرنا عن الحضرة المكناسية، بعد أن استودعنا جميع الأحبة، والكل يود إقامتنا عندهم مدة، تنفي عنهم بها كل كربة، لما لهم من المحبة الصادقة، في هذا الجناب الأحمدي، مع المودة التامة ظاهرا وباطنا في المقام المحمدي، جزاهم الله عن أنفسهم خير جزاء، وكان خروجنا من باب تيزيمي، وذهبنا مع سور البلد حتى وصلنا لباب البراذعيين، وهو الباب الذي يخرج منه قاصدو زرهون، إلا أننا لما كانت القافلة كبرى، والباب بعيد عن محل النزول حتى ليشق في وسط البلد عدلنا عنه إلى هذا الباب القريب، مع فراغ المحجة في الطريق التي سلكناها.

وقد رافقنا إلى حضرة زرهون حضرة النقيب الأسعد، مولانا عبد الرحمان بن زيدان، بعدما كتب لخليفته الشريف المنيف، مولاي العربي بن هاشم العلوي، وأعلمه بتوجهه لطرفهم، فأعد له محل النزول هناك، وقد طاب مسيرنا صحبة هذا النقيب الحبيب، الذي لاحظنا بعين الإعتبار منذ عرفناه :

فلله من مولى شريف بوده وإخلاصه في الود صرت له عبدا

وأعجز عن شكري له وهو دائما يزيد بفضل منه لي في الورى الودا

---

(257) حاج : جمع حاجة وهي ما يحتاج إليه

(258) سورا ل عمران، الآية 38

(259) زرهون : جبل يقع إلى الشمال من بسيط سايس الممتد بين فاس ومكناس، وهو جيد التربة، كثير الأشجار، عديد القرى، من أشهر قراه ضريح المولى إدريس بن عبد الله الكامل مؤسس الدولة الأدريسية بالمغرب، وعلى مقربة منه أطلال المدينة الرومانية المسماا بوليلي، ولهذا الجبل قدسية كبيرا في نفوس سكان بلاد المغرب، وله ذكر طويل يذكر في تاريخ انتشار الإسلام والعربية بهذه البلاد.

وقد تقدمنا أمام سيدنا محمود، وسرنا على طريق، تنخفض مرة وتعلو أخرى، ومنذ شروعنا في المسير، وجبل زرهون قبالتنا، وقد اصطفت أمامنا مداشره عن اليمين، فأخيرها المدشر المعروف، بالهاروشي، ثم موساوة، وبينهما آثار بناءات عجيبة من بناء الأقدمين، يقال له : قصر النصراني، وبه عيون ماء جارية، وذخائر سامية، ثم المغلصميين، ثم حمراوة، ثم بنو وراد، وبه ضريح الولي الصالح سيدي أحمد الدغوغي، ثم القليعة، ثم ابن راشد، وبه ضريح الولي الصالح سيدي علي بن حمدوش(260)، ثم ابن جناد، وكل هذه المداشر يسكنها الإخوان، وجلهم جاء لملاقاتنا، وتعرضوا لنا بالطريق مع غيرهم.

وقد تذاكرنا في مسيرتنا مع سيادة النقيب مذاكرات أذهبت عنا وعثاء السفر، ولم نحس فيه بأدنى ضرر، ولله الحمد، وكانت المذاكرة متنوعة إلى أن صرنا مسامتين لمدشر ابن راشد، وبه ضريح الولي المذكور الذي تشد الطوائف الحمدوشية لزيارته من أقصى البلاد، ويقصدونه بالعادة على ما هو لديهم معتاد، فيحضرونه في العيد النبوي، ويحتفلون له احتفالا على حسب أحوالهم، كما تحتفل الطوائف الدغوغية لهذا العيد في ضريح الولي سيدي أحمد الدغوغي المذكور، وهؤلاء لهم أحوال عجيبة تعتريهم عند الحضرات التي يقومون لها بضرب تعاريجهم، وتهييجهم بسماع غيطاتها المحركة لهم، فيضربون رؤوسهم بالحجارات العظيمة، ويشقونها بالشواقير الماضية، حتى أن منهم من يموت من شق رأسه في ذلك الموسم، بل منهم من يفعل ذلك قبل الوصول إليه.

وهذه الطوائف مشهورة عندنا بالمغرب، وتمر بزقاق فاس كل سنة مثل الطوائف العيساوية، إلا أنهم لا يقيمون الحضرات، ولا يقومون بها إلا بعد عودتهم من زيارة هذين الوليين، فيستعد أهل فاس للفرجة عليهم في الدخول وفي الخروج، فإنهم يخرجون من فاس بأعلامهم منشورة من غير شطح، بخلاف الطوائف العيساوية، فإنهم في الخروج والدخول يشطحون، لكن لخروجهم احتفال تام، يتفرج عليهم أهل الحاضرة، ويا للأسف على عقول هؤلاء القوم يتجننون بلا جنون، ويظهرون التصلح، وهم الجاهلون، حاشا ومعاذ الله أن يكون هؤلاء الشيوخ الكمل الذين ينسبون لهم يفعلون شيئا من هذا الحمق الكبير، اللهم إلا إذا كان يحصل لهم حال، فصاحب الحال يسلم له حاله، ولكن هؤلاء الأصحاب بينهم وبين الحال ما بين السماء والتراب.

---

(260) أبو البركات سيدي علي بن محمد المدعو حمدوش بن عمران الشريف العلمي العروسي، أحد كبار مشايخ أهل الجذب بالمغرب، أخذ عن الولي الصالح سيدي محمد الملقب بالحشيان، عن والده الولي الشهير سيدي محمد فتحا المدعو بقبي عبيد الشرقي دفين أبي الجعد، وله تلامذة كثيرون من أشهرهم البركة سيدي محمد بن يوسف الحمدوشي، والولي الصالح مولاي أحمد الدغوغي، وأبو علي الحسن بن مبارك، وسيدي قاسم أوقار، وغيرهم.
وتوفي رحمه الله بجبل زرهون عام 1135هـ، أنظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 5 ص 459-475، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 354.

وقد رأينا في هذه الطريق رسوم أماكن الأقدمين، خصوصا ما هو ملقى على الطريق من الحجر المنجور بحجر عرقبة العربي المعروفة هناك، وما اطلع أحد على حقيقة ذلك الحجر، إلا أن الذي تفرست فيها أنها مقابر لمن مضى من الأمم التي كانت هناك ساكنة، لأنها على هيئة المقابر التي نراها للأجانب والرؤساء الكبار، وبعد هذه المقبرة أطلال القصور التي كانت هناك مشيدة، ولا زال هناك قرب زرهون مسامتا له عن يسار القادم له من مكناس أطلال القصر المعروف بقصر فرعون(261)، وبعضهم يقول : إنه قصر النعمان، وفي طريق مكناسة لزرهون وادي بوروح، ثم وادي الشجر، ثم عين بو عسل، ثم عين جمجمة، وكلها جارية بمياه عذبة، متسعة الجوانب، إلا أن الماء الجاري بعين بو عسل أقل من غيرها، وعند انعطافنا عن يمين الطريق ظهرت لنا هذه المدينة التي ملأت الفضاء أنوارا، حتى سمي الجبل الذي هي منعطفة عليه بجبل النور، وحق له بهذه التسمية، فقد حل فيه ضريح فاتح المغرب المولى إدريس، سلطان المغرب المشهور فضله عن التنويه بمقداره، بظهور أسراره وأنواره، حتى شهد له بذلك الخاص والعام :

ومن لي بأن أحصي مناقبه التي ... قد انتشرت في الخلق في الأرض والسما

ولي إذا ما عدت الأولياء لا ... ترى أحدا منهم عليه مقدما

وناهيك بهذا الولي الذي هو الترياق المجرب في المهمات، وحل في ميزانه مثل ثواب جميع من سكن المغرب طول الأوقات.

ذكر وصف بلدة زرهون وبعض عوائد أهلها

وصفة هذه البلدة الشريفة، أنها منشرحة لصدر كل من دخلها، وقد شاهدنا ذلك الإنشراح وشعرنا به في خاصة أنفسنا، ويجد ذلك كل من صدره مطمئن بالإيمان، ولا يقدر على الإقامة بها من قلبه مظلم بظلمة الشرك والعدوان، فلم يسكن بها قط يهودي ولا نصراني، مع انتشار سكانهم في جميع الآفاق.

وقد ذكروا لنا أن الحاكم الفرنسي الواصل مع المحلة المنجدة لأهل فاس لما دخل زرهون سألهم عن أولاد جويف هل يدخلون لهذه البلدة ؟ فقالوا له : لا يسكنون بها ولا تقبلهم لاحترام هذه البقعة، نعم ربما تحرم بدخول المحلة، فقال لهم : لا تزال إلا على احترامها، فلا يدخل أحد منهم عليكم، وقد أجاد هذا الحاكم السياسي الخطير فيما فعله، إن صح هذا الأمر، حتى لا تقوم الغيرة الحامية لجناب هذا الحرم الذي تهرف النفوس هذرا في احترامه، وتشتعل نيران الفتنة بانتهاكه، وقد سكن بذلك القول الذي خاطبهم به روعهم، لكونه هو الذي ينبغي في حقهم، الموافق لطبعهم، ويعتقدون أنه هو الذي جاء به شرعهم، وبمثل هذا من تعظيم حرمات المقامات الشريفة، وعدم انتهاك حرمتها تسكن الفتن، وتطمئن صدور أهل هذه النواحي المغربية طول الزمن، فإن جلهم يسمح في نفسه وماله وأهله لمن يريدها، إلا أن يحوم حول انتهاك الحرمات، من مساجد

---

(261) ظن بعض المغاربة القدماء أن مدينة وليلي من تأسيس وبناء القبط، ولهذا سموها بقصر فرعون، وهو اعتقاد خاطئ لا أساس له من الصحة، والحقيقة أن مؤسسيها الأولين غير معروفين، ولكنها معروفة قبل مجيء الرومان إلى المغرب، وكانت من عواصم الملك جوبا الثاني وبطليموس، ثم أصبحت بعد الفتح الروماني للمغرب مقرا للوالي الرومانيين بموريتانيا الطنجية، وكان يقيم بها الحاكم الروماني لتلك الأقليم، ثم بدأ شأنها يضعف في نهاية القرن الثالث الميلادي بعد وفاة الأمبراطور بروبوس، لكنها لم تخل نهائيا، بل ظلت مسكونة من طرف البربر إلى نهاية القرن الثامن الميلادي، وعرفت في هذه الفترة باسم وليلي.

ومقامات، وينفرون النفور التام ممن يسمعون عنه تداخله في الأمور الدينية من أهل الديانات. وهذا التعصب الديني يساس أهله في استيمال قلوبهم بمعاملتهم بتعظيم هذه الأمور ونحوها مما يعتقدونه في ديانتهم.

وهذا الأمر سار في القطر المغربي كله، حتى أن من رام الخوض في شيء يخالف رأيهم في بعض الأمور التي يعتقدون فيها ما يعتقدونه من التبرك بها، والتصميم على صحة الكرامات المنسوبة للأولياء ذوي المقامات ينسبونه للإعتزال، ويقام عليه بالنكير ورميه بالضلال. ولا فرق في هذا بين العلماء والجهال، إلا أن الجهال فرطوا وأفرطوا، وعلماؤهم توسطوا بما هم متمسكون به من العلم الذي لم تدخله علوم الفلسفة الجديدة، وهي مما يقلب الأطوار الإعتقادية، إلى أطوار انتقادية، كما شاهدناه فيمن خالط أهلها بدون تلقيها في المدارس عن أربابها، فضلا عن أهلها المشتغلين بها، ويجعلونها من العلوم العصرية، فإذا سمع الناس العلوم العصرية تبادر لأفهامهم أنها كلها هي العلوم التي يترقى الخائض فيها إلى محل يترك فيه التدين، ويفهم جلهم أن هذا هو معنى التمدن، فينفرون منه غاية النفور، وإذا تحققوا بأنه لا تداخل لأحد في ديانتهم، مع تعظيمهم لحرماتهم، ومعاملتهم بالرفق واللين انقادوا إليه انقيادهم على منهج الدين. وموضع هذه المدينة بين جبلين : جبل قربوس، وبه باب الفرجات، يقصده أهل البلدة عند الملمات.

ومن جملة حومات هذه البلدة جبل خيبر(262)، وفي قبلة المدينة الجبل المسمى : "تومرات" وبأسفله عين وليلي المشهورة، والكل مغروس بشجر الزيتون، وهي غابات ملتفة متضايقة على قدر مد البصر من جميع الجهات، وعن يمين القنطرة التي منها يدخل لزرهون عين ماء يسقى بها تلك الجنات التي عن يمينها، يقال لها : "عين مولاي إدريس" وتعرف بعين القصر(263)، قيل : إن بها قد سم، وهناك غرسة يقال لها : غرسة القوس، بها قوس تحته ذخائر لها بال من دفائن الأقدمين، ومن عوائد هذه البلدة أن سوقهم الذي يعمر بأهل البادية والحضر لا يكون إلا في يوم السبت، ومن العوائد الجارية إذا قرب دخول وقت الصلاة ينادي شخص في الأسواق والطرق بقوله : الصلاة يرحمكم الله يا عباد الله، ويمر ذاهبا من سوق إلى سوق، وحوانيت أسواقهم مصطفة عن اليمين وعن اليسار من الباب إلى باب الضريح الإدريسي، ومن العجب أنه لا يباع بها الحليب ولا اللبن، وبيعه عار لديهم، وكذلك الدقيق لا يباع بها، وإنما يطحن كل واحد منهم لنفسه، ومن انقضى له الدقيق استسلفه من جيرانه حتى يرده لهم بعد الطحن، ولا يوجد في هذه البلدة مكس لا في سوقها ولا في أبوابها.

وكان وصولنا لهذه المدينة في الساعة الثانية بعد الزوال من هذا اليوم، وخرج لملاقاة سيدنا محمود الجم الغفير الذي لم نحصيه عدا من أهل البلد، وغيرهم مما قرب من ناحيتها. وقبل دخولنا عندما تبدت لنا المدينة ذكرت لسيدنا النقيب أنه كان يوصي بعض أكابر العلماء أعز أولاده إليه : أنه إذا قدم على بلدة وتبدت له عن بعد أن يؤذن في سره، ثم يقول : السلام عليكم يا أولياء هذه البلدة الأحياء والأموات، جبهتي تحت أقدامكم، وإني في ضيافتكم وضيافة مولانا رسول الله، وضيافة خليفته القطب التجاني، حتى أظفر ببلوغ الأماني، وأستودع الله نفسي ومالي إلى أن أرجع بسلام، فإن من فعل ذلك يلحظ بالقبول بين أهلها، ولا يخشى من سوء يمسه، وينال ما يريده، فقال لي سيدنا الشريف المذكور : قد أفادني العلامة الفاضل سيدي محمد الفاطمي

---

(262) تطلع حومة خيبر اليوم فقط على الجهة الشرقية العليا لمدينة زرهون، وهي المواجهة للداخل من باب الحجر أحد أبواب المدينة المذكورة.

(263) قيل أن هذه العين نبعت مباشرة بعد ركض مولانا إدريس الأول لرمحه في مكانها، ولهذا سميت باسمه.

الشرادي(264) حين تبدت لنا زرهون في مرافقته، أنه ينبغي لقادم على بلدة أن يقول إذا رآها عن بعد : "اللهم إني أسألك خير هذه البلدة وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها"، فإنه يأمن من جميع المكروهات حتى يرجع بسلامة. وقد استحسنت هذه الفائدة عما قبلها، وهي التي ينبغي للمريد أن يفعلها، لأنها خالية عما يستنشق منه رائحة الميل للزيارة الممنوعة في الطريق، لأن ذلك فيه نوع ما من التعلق والإستمداد لمن لا يعرف كيفية التوجه بذلك.

ولما تلاقى الأحباب والإخوان مع سيدنا محمود كادوا أن يقتتلوا عليه، من شدة الزحام عليه، وقد كابد الصبر الجميل في مساعدتهم على زيارته، إلى أن ضاق صدره، فلم ينفع من ذلك الإزدحام إلا الإسراع بالذهاب لمحل النزول، فسرنا مسرعين ندافع بذلك عنه الوافدين عليه، حتى دخلنا من باب الحجر، وهو باب متقن البناء بالحجر المنجور، وفي وسط دائرة قوسه منقوش : "بركة محمد" على كتابة خصوصية، لها خاصية في حفظ المحل الذي تكون فيه، لما في هذا الإسم الشريف من البركة التامة. وقد نزل سيدنا محمود مع أهله بدار الشريف مولاي أحمد بن علي العلوي بحومة المريح، ونزل الأصحاب بمصرية الشريف مولاي الكامل الأمراني(265)، ونزلنا في مصرية سيدنا النقيب معه بدرب أمجوط، وهو قريب من محل نزول سيدنا محمود، وكان أول دخولنا معه لدار المقدم البركة الجليل الشريف سيدي محمد بن العربي العلوي(266)، ومنها خرج سيدنا محمود لمحل نزوله، فبتنا أحسن مبيت.

---

(264) انظر التعريف به في ج 1 ص 35 من هذا المجموع.

(265) الكامل بن عبد الله بن الطاهر العلوي الأمراني، فقيه، حافظ، متضلع في فنون مختلفة، أخذ عن جماعة من جلة العلماء، منهم العلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن الساسي، والعلامة الفقيه سيدي الحاج محمد بن المدني كنون، والفقيه أبو المواهب عبد الكبير بن المجذوب الفاسي، وغيرهم.
توفي رحمه الله عند غروب يوم السبت 20 جمادى الأولى عام 1321هـ، وصلي عليه بالضريح الإدريسي، ودفن بريا جوار محل سكناهم من حومة السياج قرب الزاوية الناصرية بفاس، انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس ج 3 ص 119-125.

(266) انظر التعريف به في ج 2 ص 145 من هذا المجموع.

ذكر الذهاب لرؤية قصر فرعون وغيره من الأمكنة التي بزرهون

وفي الساعة الثانية عشرة من يوم الإثنين ركبنا مصاحبين للشريف النقيب، وخرجنا لرؤية القصر المعروف هناك بقصر فرعون، وبينه وبين المدينة نحو الساعة ونصف، فذهبنا قاصدين إليه، وقد امتدت الأشجار من أول المدينة من الأسفل، والزيتون من أعلى الجبل إلى أن قرب من القصر، وعن يسارنا كذلك، ومع طرف الطريق واد يعرف بعين شانش. وقد وصلنا إلى القصر المذكور، فرأينا من آثار الأقدمين ما أبهر عقلنا من الحجر المنجور، والقطع الملقاة على الأرض يتحير الناظر إليها، ما بين سواري من الحجر أطرافا وقيعان، وامتد ذلك مع الجبل. فأما القصر فقد انهدمت أركانه، ولم يبق منه إلا ثلاثة أسوار، فيها بابان، والأسوار إنما هي قطع من الحجر، غلظ الحجرة على الوسط ذراع.

وقد حسبت الحجر فوجدت ارتفاع ذلك سبعة عشر، فإحدى وعشرين، فخمسة عشر. وعلى الثالث برشلة من الحجر المنقوش، وقد تفرعت تلك الحجارة بتلك البقعة. ووجدت هناك حجارات منقوشة، وبعضها مكتوب عليه بالقلم الإفرنجي المنقوش فيه، منها لوحة نحو الثلاثة أذرع في غلظ شبرين مكتوبة، وقد كان أحد الفرنسيين أيام المولى الحسن رام نشرها ليأخذ اللوحة ويترك غليظها، إلا أنه لم يتيسر له عمله لمانع طرأ. وقد ذكر لي الرفيق الأسعد سيدي الحاج محمد أن هذه الحجارة في بلاد الأجانب تباع بثمن له بال إذا عثروا عليها هناك، بنحو خمسين ألف فرنك. وقد أخبرنا أهل البلد أن هذا القصر لا يرى منه إلا الأعلى، وأما أسفله فإنه مغطى بالتراب والحجارة، وقد أوقفونا على درج مغطاة بالتراب هناك. ويوجد هناك من الذخائر أمور عجيبة لها بال.

وحكى بعض من كان معنا أنه قد عثروا على محل صندوق أخذه من عثر عليه. وقد حدثنا البركة الأشيب الشريف مولاي علي بن الحاج محمد بن المامون الإسماعيلي: أن الفرنسي الذي كان أيام المولى الحسن قد وجد بالحمام الذي هناك خاتما من ذهب، فصها نحو بيضة الحمام، إلا أنه لطول الأيام قد فسدت، ومبخرة من ذهب، وثلاث خوابي، إحداها نصفها كبير ونصفها بلور، معمرة بالببوش، ووجد صندوقا من حجر به غبرة، لونها لون الرملة، وبمجرد عثوره على هذا الصندوق رفعه وسافر به. وكم من آثار تحت تلك القصور التي لم يبق لها إلا الأطلال(267).

ثم نزلنا إلى طرف الوادي المسمى: خومان، حذاء مشرع قصر فرعون. وبجوار هذا المشرع حمام بقي طرف من سقفه المقوس عليه، إلا أنه لا يشبه بناء القصر إلا من الحجارة التي قوس عليها قوسه. وبجواره في مسند الطريق كهف مفتوح مقوس عليه، قيل: إنه هو الوادي الخارج من تحت القصر المذكور، وقد قيل لنا بأن تلك الحجارة محل نقلها من المحل المعروف بعين وليلي. ثم إننا رجعنا بعد نظر تلك الآثار الغريبة التي تدل على قوة مهارة الماضين، وحكمتهم الماضية، فكان في الرجوع عن يسارنا جبل القربوس، وبه كهف الحمام. ذكر لنا من دخله أنه عميق، وبه معدن يلمع ترابه في الظلام، وبداخله عين تقطر من جنبه، وبجنبه أيضا كهف يقال له: كيفان الغنم، وكلاهما يواجهان المدينة، وفوق هذه الكيفان عين يقال لها: عوينة المنصور، وعلى الجبل بعدها خلوة يقال: إنها محل المولى إدريس، تسمى باب الفرجات. يحكى

---

(267) تقع مدينة وليلي الأثرية على بعد 28 كيلومتر من شمالي مدينة مكناس، على هضبة يبلغ علوها 400 متر،وتبلغ مساحة هذه المدينة 40 هكتارا، وقد أسرها الألمان خلال الحرب العالمية الأولى الأنقاض عن 15 هكتارا من مساحتها الكلية، ويبلغ طول سورها الذي كان يحيط بها 2350 مترا، يتخلله نحو 40 برجا، وتعتبر مدينة وليلي من أهم المشاهد الأثرية بالمغرب.

أنه جلس هناك يسأل الله الفرج مما حل به ورآه، فأجاب الله دعاءه. وفي ذهابنا ورجوعنا كنا في انبساط مع الرفيق الأسعد سيدي الحاج محمد دادي، فأنشدنا من حفظه في تفريج ما امتحنته به المقادير في فراق أمته زهوة، التي كانت أنيسته في الخلوة والجلوة، قول القائل :

إن ألطاف الإله لم تدع في الكون ضنكا(268)
ما رمت اختيارا جهلا إلا قالت خل عنكا
لا تدبر لك أمرا إنما التدبير هلكى
دبرن ألا تدبر إنما التدبير ضلكا
سلم الأمر تجدنا نحن أولى بك منكا

ومما أنشده لنا من حفظه لبعضهم :

ولي فرس في الخير للخير ملجم ولي فرس في الشر بالشر مسرج
ومن رام تقويمي فإني مقوم ومن رام تعويجي فإني معوج

وأنشدهما الشريف النقيب لنا هكذا :

ولي فرس في الخير للخير مسرج ولي فرس في الشر للشر ملجم
فمن رام تعويجي فإني معوج ومن رام تقويمي فإني مقوم
وإن لساني شهدة يشتفى بها وهو على من صبه الله علقم

وقد أنشدنا الرفيق المذكور هذه الأبيات، فيمن تصدر من الجهال على غيره بحب الظهور :

خليلي كم ثوب وكم من عمامة على جسد ما فيه علم ولا عقل
وكم لحية طالت على ذقن جاهل فما تحتها إلا الغباوة والجهل
وكم راكب بغلا له عقل بـغلـــــه تأمل ترى بغلا على ظهره بـغـــل

(268) الضنا : الضيق في كل شيء

ولما رجعنا ذهبنا مع سيدنا محمود لدار المقدم البركة سيدي محمد بن العربي العلوي بقصد الغداء عنده بعد العصر، وخرجنا لمحل نزولنا عند سيدنا النقيب، فذهب بنا لمحل العلامة الفاضل الشريف سيدي محمد بن أحمد العلوي(269)، ولم يقصر في الإكرام، وتذاكرنا في مسائل نفيسة، منها الجواب عن الإشكال المتقدم الحاصل من كلام ابن مالك في قوله : والعادم النظير، إلخ ... بأن الحذا مسموع وليس بقياسي، لكونه لم يدخل تحت ما هو قياسي، لأنه يعتبر في المفرد الذي يمد أو يقصر أن يكون داخلا تحت ضابط، بأن يوافق المفرد الصحيح، لا في خصوص الوزن، كما يؤخذ من الصبان(270)، وقد نكت الرضي(271) على شافية ابن الحاجب(272) في تعبيره : بالنظير فقال ما معناه : الحق أن يقال : ما لا ضابط له إلخ ... وقد اتضح بهذا جواب الإشكال، ومنشؤه التعبير بالنظير في كلام الناظم التي هي مثل عبارة ابن الحاجب، والله الموفق. وقد تذاكر سيدنا النقيب مع هذا الشريف الجليل في المسألة التي تدارج الخوض فيها بين بعض علماء مصر، وخاض فيها علماء فاس، حتى أدى الحال إلى استعمال التأليف ردا وجوابا في حلية ذبائح أهل الكتاب، هل تؤكل أم لا ؟ وقد أفتى العلامة المفتي محبنا وحبيبنا الشريف أبو عيسى سيدي المهدي الوزاني(273) رعاه الله في معياره الجديد بجواز أكلها

---

(269) انظر التعريف به في ج 2 ص 147-154 من هذا المجموع.

(270) محمد بن علي الصبان، عالم بالعربية والأدب، له مؤلفات كثيرة منها : حاشية على شرح الأشموني على الألفية لابن مالك، والكافية الشافية في علمي العروض والقافية، وأرجوزة أخرى في علم العروض كذلك، وإتحاف أهل الإسلام بما يتعلق بالمواطن وأهل بيته الكرام، وإسعاف الراغبين في السيرة النبوية، وحاشية على شرح الرسالة العضدية، وحاشية على شرح الملوي على السلم، وحاشية على شرح العزام على السمرقندية، وحاشية على السعد، في علمي المعاني والبيان، وتقرير على مقدمة جمع الجوامع، وتأليف في علم الزايرجة، وغير ذلك من المؤلفات الأخرى.
وكانت وفاته بالقاهرة عام 1206هـ، انظر ترجمته في الخطط التوفيقية لمبارك ج 2 ص 84، وفي معجم المطبوعات لسركيس 1194، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 297.

(271) نجم الدين محمد بن الحسن الرضي الأستراباذي، من خيرة علماء اللغة توفي عام 686هـ، من مؤلفاته : الوافية في شرح الكافية، لابن الحاجب، في علم النحو، في جزئين، والشافية في علم الصرف، وهي شرحه لمقدمة ابن الحاجب، انظر ترجمته في كشف الظنون لحاجي خليفة 1021 و 1370 وفي معجم المطبوعات لسركيس 940 وفي بغية الوعاة للسيوطي ص 248 وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 86.

(272) أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، المشتهر بابن الحاجب، من أكابر علماء اللغة، ولد في أسنا من صعيد مصر عام 570هـ، وهو من أصل كردي، وله مؤلفات كثيرة منها : الكافية، في علم النحو، والشافية، في علم الصرف، والأمالي النحوية، ومختصر الفقه، استخرجه من ستين كتابا في فقه المالكية وسماه : جامع الأمهات، ومن كتبه كذلك : منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل، وغير ذلك من المؤلفات الأخرى.
وكانت وفاته بالإسكندرية عام 646هـ، انظر ترجمته في غاية النهاية للجزري ج 1 ص 508 ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 314، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 211، وفي الخطط التوفيقية لمبارك ج 8 ص 62، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 270 رقم الترجمة 605، وفي شجرة النور الزكية لمخلوف ص 167 رقم الترجمة 525.

(273) سبق التعريف به في ج 1 ص 40 من هذا المجموع.

على الإطلاق، منتصرا لقول الإمام ابن العربي(274)، وبهذا أيضا أفتى العلامة الشيخ عبده(275) المصري، وتبعه أشياعه وأنصاره بما يؤدي إلى التطويل، بما ليس عليه تعويل، فانفصلا على أن تحقيق المسألة هو التفصيل، فما وافق ذكاتنا من ذبائحهم فهو مباح، وما لا فلا. أما قوله تعالى : "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب"(276) الآية. فقد خرج مما أباحه الله للناس من طعامهم مما حرمه بنص : "حرمت عليكم الميتة"(277) والقاعدة أن الخاص يقيد به العام، والمطلق يحمل على المقيد، وآية : وطعام، عام يقيد بالآية الأخرى.

أقول : وهذا هو الحق في المسألة إن شاء الله. وقد وقفنا على تأليف لطيف جامع لفتوى الشيخ عبده مع الرد عليها لبعض أكابر علماء مصر سماه : "التعاديل الإسلامية في تخطئة حزب الفتاوى الترنسفالية" وأجاد فيه للغاية. كما وقفت على تأليف شيخنا العلامة الرئيس سيدي الحاج عبد الكريم بنيس في رد الفتوى المذكورة في المعيار الجديد. وسماه : "الرد الوفي الوافر، على من أباح منخنقة الكتابي الكافر" وقد ضمن ما اشتمل عليه أمنه الله في قصيدة عينية أذكرها هنا إتماما لمن يحب تحقيق هذه المسألة، ونصها :

الحمد لله حمدا دام واتسعا	على تمام أياديه بما شرعا
ثم الصلاة على الهادي وشيعته	ومن لنهج هداه انقاد واتبعا
وبعد فالسبب الشرعي المبيح لنا	لحم المباح إذا حلقومه قطعا
وتم بالودجين(280) من مقدمه	والنحر طعن بلبة(278) كذا شرعا
مع الشروط التي في كتب مذهبنا	كما بمختصر أبو الضيا جمعا
وقد أباح لنا المولى برحمته	ذبح الكتابي معنى لا الذي ثلعا(279)

(274) سبق التعريف به في ج 1 ص 175 من هذا المجموع.

(275) محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركماني، ومن دعا الآلوسي، ولد في شنشا من قرى الغربية بمصر عام 1266هـ، ودرس بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، وخلال مقامه بباريس أدر ميقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدا العروا الوثقى، ولما عاد لمصر تولى منصب القضاء، ثم عين بعده مستشارا في محكمة الاستئناف، ثم مفتيا للديار المصرية إلى أن توفي بالاسكندرية عام 1323هـ، ودفن بالقاهرا.

وله مصنفات منها : تفسير القرآن الكريم، لم يكمله، ورسالة الوارداك، والرد على هانوتو، ورسالة التوحيد، وحاشية على شرح الدواني للعقائد العضدية، وشرح مقامات بديع الزمان الهمداني، وشرح نهج البلاغة، والاسلام والرد على منتقديه، وغير ذلك من الكتب الأخرى. انظر ترجمته في الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 232 رقم الترجمة 548، وفي معجم المطبوعاك لسركيس 1677، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 252.

(276) سورا المائدا، الآية 3.

(277) سورا المائدا، الآية 5.

(278) اللبة : موضع القلادا من الصدر

(279) ثلع رأسه : شدخه وكسره

(280) الودجين : عرق الأخدع الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه للذبيحة حيا

إذ حرم الميت والخنزير مثل دم ... ومخنق والذي بالوقد(281) قد صرعا(282)
ولم يخص بذا التحريم مسلمنا ... ولا الكتابي بل تخصيصه ارتفعا
والجاهلية كانوا يقتلون بـــــلى ... ويأكلون فعنه الذكر قد ردعـــــا(283)
وقال إلا الذي ذكيتم(284) فمـــن اكتفـــــــــى به فبسبق مونـــق رجـــعـــــــــا
هذا الذي درجوا عليه وانتهجوا ... وأيدوه بنص نوره سطعا
والصيد قد خص في مشهور مذهبنا ... بالمسلمين ببعض الوحش ما منعا
أما الكتابي فلا عقر(286) يسوغ لـــــه ... به فأحرى لغير الوحش أن يدعـا(285)
فإن يقولوا بأن الخنق مشرعهم ... فالذكر كذبهم بما به صدعا
وللمعافري(287) فتوى بالإباحة في ... خنق الدجاجة من كتابي خنعا
يقول من دينه قصد الذكاة به ... فيستباح به أكل لنا تبعا
يقول إن أكلوا فقد أبيح لنا ... وأكل رهبانهم كفاك منتجعا
وذي دعاوي له لا نص يعضدها(288) ... أبناؤها أدعيا فيما إليه دعا
بل أهل دينهم بالمنع قـــد نطقـــوا ... وأطبقـوا أن من أباحـــه ابتدعـا
كما خليل أباحه وسلمه ... بشرحه وكذا الذي له اتبعا(289)
والفعل منهم وهبه من أساقفة ... يكون فسقا فلا يكون متبعا
وما طعامهم الذي الكتاب أتى ... بحله غير ما ذكوا كما شرعا
معها شروط حواها نص مختصر ... وفاقد الشرط منها أكله امتنعا
عموم ما جاء في الكتاب خصصـه ... نهي أتى مفصح بما لـــه منـعـــــا

---

(281) بالوقد : أي بالنار
(282) إشارا لما جا في الآية الكريمة : حرمK عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقودا والمتردية والنطيحة وما أكل السبY إلا ما Rكيتم، وما Rبح على النT ب وأن تستقسموا بالأزلام، Rلكم فسK، سورا الماFدا الآية 3.
(283) ردY : كف ومنY
(284) Rكيتم : Rبحتم
(285) يشير الناظم رحمه الله على أن المنخنقة والموقودا لا تحل سوا كانK من طعام الكتابي أو المسلم، والمعروف اليوم أن غالبية أهل الكتاب لا يRبحون الRبائح بل يقتلونها بطرK جاهلية مخلتته تنافى عليها تعاليم الدين
(286) العقر : النحر
(287) إشارا لإمام أبي بكر بن العربي المعافري
(288) يعضدها : يدعمها
(289) Rكر عبد الباقي الزرقاني في شرحه على مختT ر خليل عند قول المT ف (وRبح لنسكه) جاز لنا أكل Rبيحة الكتابي بالثلاثة شروط :
1- ما يملكه لا ما يملكه مسلم أو مشترا بينه وبين كتابي
2- الRي يحل للكتابي بشرعنا من Rي الضاف أما الRي لا يحل له فلا
3- أن لا يRبحه لصنم.
أنظر شرO الزرقاني على مختT ر خليل ج 2 ص 5.

وما أتانا به الشرع القويم كفى ولا التفات لما أسوه منتزعا
هم بذلوا كتبهم وغيروا وبغوا فلا وثوق بما من علمهم سمعا
فانبذهم من وراء الظهر واقلهم وكن لمأكلهم مستقذرا(290) ورعا
ودع طريقتهم واترك طريقتهم مهما وجدت من الأقوات متسعا
ولا يغرنك الحفار(291) بل وكذا المعيار أو من غدا لرأيهم تبعا
يكفيك ما في حواشي جهبذ بطل ذاك الرهوني(292) مولى سيفه قطعا
فقد تصدى لنقض ما بنوه بما أبدى فلله دره بما منعا
كذاك صاحب الإختصار سيدنا جنون(293) ليث على من زاغ وابتدعا
ولي اقتدا بهم في الرد سيمته الرد الوفي بضعفي كن به قنعا
واسأل لجملتنا غفران زلتنا والختم بالخير إن موتا لنا صرعا
بجاه خاتم رسل الله قاطبة محمد فاتح الأكوان مذ طلعا
وآله وصحاب نهجه اتبعوا وأكرمونا بدين شأنه ارتفعا
ثم الصلاة مع السلام تشملهم والمقتدين ومن في دينه برعا
والمسلمين وذا العبد القصير يدا عبد الكريم ومن له تلا ودعا
والحمد لله في بدء وخاتمة والحمد لله حمدا دام واتسعا

ولما رجعنا لمحل النزول، وجه سيدنا النقيب من ورائه من يؤنسنا في هذه الليلة ممن يحسن السماع، فلم يوجد بهذه المدينة إلا شخص واحد، ما عليه زائد، بتنا في نشاط من آلته التي لو يسمعها جماد لتحرك من أجل الضجر الذي يحصل له، ويتمنى سامعه أن يقصر من ترنمه الذي أنهك جسمه وأنحله، ويزيد في الطنبور رنة بحديثه الفائق في البسالة، ولم يشعر بأنه غريق في الثقالة، فليته سكت وما غنى، وترك العنا عنا. ومن ألطف حديثه أنه شرع في محادثة تؤدي

---

(290) مستقبحا : مستقبحا

(291) أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد الأنصاري الغرناطي الشهير بالحفار، إمام غرناطة ومحدثها ومفتيها، الشيخ المعمر ملحق الأحفاد بالأجداد، توفي عام 811هـ، انظر ترجمة في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 247 رقم الترجمة 889، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 296 رقم الترجمة 661.

(292) أبو عبد الله محمد بن أحمد الرهوني، شيخ الجماعة، وخاتمة المحققين والعلماء العاملين، نشأ بفاس وبها أخذ العلم، ثم انتقل لمدينة وزان وبها توفي بعد فجر يوم السبت 13 رمضان عام 1230هـ، من مؤلفاته : أوضح المسالك وأسهل المراقي، وهو حاشية على شرح الزرقاني لمختصر خليل، في الفقه، 8 أجزاء، وحاشية على شرح ميارة الكبير للمرشد المعين، لم يتمه، والتحصن والمنعة ممن اعتقد أن السنة بدعة.
انظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 378 رقم الترجمة 1512، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 352 رقم الترجمة 783، وفي إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 4 ص 181-186، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 104، وفي معجم المطبوعات لسركيس 955، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 17. وفي النبوغ المغربي لعبد الله كنون ج 1 ص 295.

(293) المراد به العلامة سيدي محمد بن المدني بن علي بن عبد الله كنون وقد سبق التعريف به في ج 1 ص 232.

إلى طول، إلا أنه قال في أثنائه : هذا شيء لا أعرفه، فقال له سيدنا النقيب : وهل تعرف تدندن ؟ فقال : نعم، فقال له : اترك عنك هذا ودندن، فصار يدندن، فكتبت لسيدنا الشريف هذين البيتين :

ومغن أتى إليك يغني زاد لي في الغنا أدندن دندن

قلت لما لنا أطال حديثا فلتكن ساكتا وإلا فدندن

ثم تركناه يؤنس نفسه ونحن في ضجر، إلا أن السماع يسلي الخاطر وإن كان صاحبه على خطر، غير أننا لا نقبل العذل فيه، خصوصا إذا كان معه شيء لا ينافيه، وقد رام مساجلتنا في هذا الموضوع سيدنا النقيب، أمنه الله فقال :

يا عاذلي في السماع دعني إن عذولي من الجنون

فقلت :

لأن لي في السماع وجدا به انجلت دائما شجوني

فقال :

هيج شوقي إلى حبيبي وصدني عن ذوي المجون

فقلت :

وزادني لوعة أراها هي مناي إلى المنون

فقال :

والنفس مني به اطمأنت ورجع القلب لليقين

فقلت :

ولي في الله حسن ظن على يقين به يقيني

ذكر خروجنا للموضع المسمى بخيبر وعين شانش

وفي زوال يوم الثلاثاء خرجنا للتفسح مع الشريف النقيب، وصعدنا لخيبر على طريق قصبة الشرفاء البلغيثيين، حتى مررنا على عين خيبر، وهي أعذب مياه هذه المدينة، ومنها يسقون، وذهبنا قاصدين عين شانش، فوجدنا السلوقية التي كان أجرى الماء عليها حتى التقت مع عين خيبر المولى عبد العزيز، فكانت من مآثره التي كتبت حسناتها في ميزانه، قد حملت بين الجبلين على أربعة عشر قوسا من أعلى، وسبعة أقواس من أسفل، اتساع كل واحد منها عرضا وطولا نحو المتر ونصف، وقد مرت على الجبل حتى خرجت للطريق مقبوا عليها، ومتى انخفضت الطريق رفعت على أقواس. وقد رجعنا من فوق ظهر السلوقية وخرجنا من تحت أحد أقواسها للطريق.

ورأينا هناك معدن الصلصال بالمحل المعروف بالسريج، ورأينا بهذه العين من الصخور طبقة على طبقة، وامتدت مع الجبل والوادي وسارت منعطفة بين الجبلين حتى التقت مع عين وليلي، وقد رأينا هذه العين، ووجدنا النساء يغسلن ثيابهن هناك، وماؤها أصفى لونا من غيره، إلا أنه كريه الرائحة، كأنه مشوب بزرنيخ أو كبريت، ولعله يمر على معدن حديد، وقد ذكر لنا الشريف العلامة سيدي محمد بن أحمد أن فوق هذه العين في محل منخفض بين الجبلين المذكورين عينا تسمى الحامة، ماؤها فيه حرارة مع رائحة كبريت، يقصدها الناس للغسل، وهي محل منجرة الحجر المنجور، وبماء هذه العين مع ما انضاف إليها تدار رحية دقيق.

وقد مررنا على حومة الحفرة المجاورة للضريح الإدريسي من وراء، فرأينا سطوح بعض الدور كادت أن تستوي مع الأرض، وبعضها يرى سطحه أسفل من الطريق، وبعض الدور لازقة بالجبل، وبعضها من أعلى الجبل. والحاصل أن تلك الأبنية من أعجب المناظر، والسكنى في بعضها على خطر، فقد سقطت مرة قطعة من الجبل على أحد الدور فانهدمت، وهلك من كان بها من الناس، وفي طريقنا أورد علينا سيدنا النقيب إشكالا حصل له في قول المادح البوصيري في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

ويح قوم جفوا نبيا بأرض ألفته ضبابها والظباء

مع قوله (ﷺ) في قضية الضب : (لم يكن في أرض قومي فتجدني أعافه(294)) قائلا : إن كلام البوصيري يؤخذ منه أن الضباب موجودة بمكة، والنبي (ﷺ) يقول : لم يكن بأرض قومي، فلم أستحضر جوابا في تلك الساعة، فقال : قد كنت أفهم أن الخبر المتعلق به بأرض قومي يقدر مأكولا، حتى وقفت عليه، فيكون المعنى : لم يكن مأكولا بأرض قومي(295) إلخ ...

---

(294) رواه الإمام البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب الضب، رقم الحديث 5536، وانظر فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني ج 9 ص 827، ونصه :
حدثنا عبد الله بن مسلمة، عن مالك، عن ابن شهاب، عن أبي أمامة بن سهل، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، عن خالد بن الوليد أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ميمونة، فأتي بضب محنود، فأهوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، فقال بعض النسوة : أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يريد أن يأكل، فقالوا : هو ضب يا رسول الله، فرفع يديه، فقلت أحرام هو يا رسول الله ؟ فقال : لا، ولكن لم يكن بأرض قومي فتجدني أعافه، قال خالد : فاجتررته فأكلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر.

(295) في هامش الشرح توفيق لطيف بين الحديث الصحيح والبيت المذكور في قصيدة البردة، ويعضد هامش كلام ما بينه الحافظ ابن حجر العسقلاني عن شرح هامش الحديث، بعدما ذكر اختلاف العلماء في وجود الضباب أو عدم وجودها بالحجاز على عهده (ﷺ)، فقال : ولا يحتاج إلى شيء من هامش، بل المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (لم يكن بأرض قومي) قريشا فقط، فيختص النفي بمكة وما حولها، ولا يمنع إلا أن تكون موجودا بسائر الحجاز، وقد وقع في رواية يزيد بن الأصم عند مسلم، قال : دعانا عروس بالمدينة، فقرب إلينا ثلاثة عشر ضبا، فأكل وترك، الحديث، فيدل هامش على كثرتها وجدانها بتلك الديار،انظر فتح الباري لشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ج 9 ص 829، وفي صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الصيد والذبائح باب إباحة أكل ضب ج 13 ص97.

ذكر الذهاب لقصبة الشرفاء البلغيثيين هناك

وبعد صلاة العصر ذهبنا مع سيدنا محمود لقصبة الشرفاء البلغيثيين، وقد احتفلوا له احتفالا كبيرا بدار الشريف البركة الأسعد، المقدم الأرشد، أبي عبد الله سيدي محمد بن هاشم البلغيثي الضرير، وهو الآن بفاس، ولم يقصروا في الإكرام، ودخل عليهم السرور العظيم، وأظهروا الفرح التام بذلك الإحتفال. وجميع سكان هذه القصبة تجانيون نساء ورجالا، وصلينا هناك صلاة المغرب. وهذه القصبة تجاور باب الجديد، ومن هذا الباب يذهب للعين المعروفة هناك بعين الرجال، وهي عين ماء يسقي بها غالب غراسي تلك الناحية، وماؤها مقصود للشفاء، ويشرب للدواء، وعليها بيوت للغسل بمائها، وماء العيون الدائرة بها، ومما هو مجرب عند أهل هذه البلدة أن ماءها مقوي للباءة، مشهور بهذه الخاصية عندهم. ثم رجعنا لمحل النزول، وبتنا مع سيدنا النقيب أحسن مبيت، وسامرنا العلامة الشريف سيدي محمد بن أحمد العلوي أحسن مسامرة، وحاضرنا فيها أتم محاضرة، ما بين جد وهزل، بالمروءة غير مخل، وقد تعجب من انبساطه بجمعنا، مع أنه الإنقباض من نفسه، مع أبناء جنسه، ولسان حاله ينشد :

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

وتذاكرنا في أن الفكر بالإنقباض يؤدي إلى جمود القريحة، وتجم بالإنبساط والمزح الذي به النفوس مستريحة، وقد نص الفقهاء والصوفية على أنه يطلب في بعض الأوقات بمقتضى اختلاف المشارب، ومما هو محفوظ لدينا قول القائل :

أرح طبعك المكدود(298) بالجد ساعة يجم(296) وعلله بشيء من المزح(297)
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

ثم انجر الكلام بنا في الجواب عن الإشكال الحاصل من كلام البوصيري مع الحديث الشريف المتقدم، وسنذكر نتيجة هذه المفاوضة في هذا الموضوع في ترجمة هذا الشريف الفاضل إن شاء الله.

زيارته للضريح الإدريسي

وفي يوم الأربعاء خرجت مع سيدنا النقيب بقصد التفسح في هذه البلدة، والنظر إلى أمكنتها المباركة، حتى لا يفوتنا مشاهدة آثار السلف، فدخلنا للضريح الإدريسي، مع أداء التعظيم اللائق بذلك المقام، المحوط بالإحترام، فرأينا منقوشا على باب الحفاء في الزليج والجبص ما أذكره في هذا المحل، إتحافا للمطالع، حتى يكون قارؤها كالمشاهد لها، بعد إصلاح خلل بعضها، فكان مكتوبا على الأعلى بالزليج الأسود هذه الأبيات :

هذا مقام الحسنى الذي وصل أهل الله من بابه
أنشأه السلطان محتسبا لله في موصول أسبابه

---

(296) يجم : بمعنى يستريح
(297) المزح : البسط
(298) المكدود : من الكد وهو التعب

على يد الكاتب في أيقش(299) ناظر الأحباس من أحبابه
بشرى لمن قد جاءه زائرا ومرغ الخذ بأعتابه

ومنقوشا في الأسفل في مواجهة الباب عن اليمين واليسار هذه الأبيات، بيت ونصف في الجهة :

يا ناظرا حسني بعين كمال ومتيما بمآثري وجمالي
متع لحاظك بي ويكفي أنني باب الوصول إلى رفيع معال
وإذا تريد لنشأتي وقتا بها شرفي يريك بهاء حسن كمال

وفي خذ اليمين منقوشا هذه الأبيات :

بأبوابنا قف عند ضيق المناهج تفز بعلا الأقدار من ذي المعارج
ألم تر أن الله أسبغ نعمة علينا وأولانا قضاء الحوائج
فهذي بحور الجود يمم فراتها وعن نيلها الفياض كن خير لاهج
مناهله تروي العفاء بأسرها وتحظى بما ترجو بعد المناهج

وعن يسار هذه الأبيات :

فهذا مقام الأمن إن كنت خائفا وهذا مقام الجبر إن كنت ذا كسر
وإن كنت ظمآنا فهذي مناهل صفت لك علل قد وصلت إلى البحر
ومرغ خدودا عند باب ضريحه فهذا محل الخير إن كنت ذا فقر
إمام الهدى إدريس من مجده علا وآياته كالشمس لاحت وكالبدر

---

(299) أيقش : رمز حرفي لتاريخ بناء الضريح المذكور وهو 1111هـ وهو ما يسمى بحساب الجمل الكبير.

والمجدد لبناء هذا المقام الشريف مع زيادة فيه هو المولى إسماعيل - قدس سره - بتاريخ سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف، وفي هذه السنة أيضا جدد بناء الضريح الإدريسي بفاس، كما ذكر ذلك أصحاب التاريخ، وأما التاريخ المذكور في الأبيات المتقدمة فلعله خطأ(300). ولما دخلنا لهذا المقام الشريف رأينا الأنوار مشرقة فيه، يمتلئ قلب داخله سرورا بما يمنح فيه من الأسرار التي تشرح صدره وتشفيه، فأعظم به من مقام سما قدرا، وملأ الأرجاء نورا وسرا، بوجود ضريح هذا الإمام الذي أحيا الله به الدين في قطر المغرب، وأضحى في مدح جنابه كل فاضل يطنب، ومع ذلك لا يوفيه الشاكر لإسداء هذا الجميل، إن كان من هذا القطر، ولو استغرق جل أوقاته في المدح والشكر، غير أنه يطلب من كل من حل هذا القطر المغربي أن يدعو لهذا الإمام مكافأة لما أسداه إليه، وإلى أجداده من الإكرام، بفتح هذا القطر الذي استقر فيه الإسلام، أداء للحق الذي أوجب له الشكر، بمقتضى : من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافيتموه، وبباب المعراض عن اليمين باب دار المخزن التي ينزل بها الأمير إذا قدم لزرهون، وعن اليسار باب دار الأضياف، وبعدها باب دار الوضوء، وبها بيوت خلاء متعددة، وصهريج ماء. ويواجه باب الحفاة باب المعراض، ومنه الدخول للمقام الشريف.

وقد اشتمل هذا المقام على جامع كبير عن يمين الداخل من باب الحفاة، وبها باب ينفد منه بالدرج إلى حومة المريح، يقابل باب الزاوية التجانية هناك، ويجاور باب ضريح الولي الصالح

---

(300) ذهب بعض المؤرخين على أن بناء الضريح المذكور كان عام 1132هـ، وهذا بطبيعة الحال مخالف لما هو مكتوب على جدران بعض أبواب ومرافق الضريح، وذهب العلامة ابن زيدان على أن المولى إسماعيل قام ببناء الضريح المذكور عام 1110هـ، واستدل على ذلك بما هو منقوش في الرخامة الأولى المثبتة في الجدار المواجه للداخل من باب قبة الضريح الإدريسي، ونصه :

هذه روضة بهـا خيـر هـاد بضعة المصطفى وعيـن الرشـاد
ملك طهر الإله به الغرب من الشرك والشقا والعناد
واستقامت له الحشود وقد كانت زمانا بالغي في كل واد
فإذا ما نسبتـه فرسـول اللـه فـي القـرب رابـع الأجـداد
وتأدب فأنت ضيـف إمـام في حماه عـلاج كـل فـؤاد
خصه خالق الخلائق بالفضـل وأحيا به أقاصي البلاد
فسل الله ما تشاء مـن الفضـل فليس لفضله مـن نفـاد
وتوسل بالمولى إدريس واقصد في علاه بلوغ كل مراد
وابتهل للإله في نصر مولى شأنه السعي في صلاح العباد
شاد هذا المقام والفعل منه خالص لكريمه الجواد
عام ألف ومية بعد عشر من سنين السرور والإسعاد

انظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 1 ص 175-197.

وصيف المولى إدريس السيد راشد(301) رحمه الله ورضي عنه، وتواجه داخل باب الحفاء مدرسة الطلبة الذين يقرؤون القرآن الحكيم بورش وغيره من القراءات، ويقرؤون بها الحزب صباحا ومساء. وعن يمين ويسار هذا الباب سقايات ماء، وعن اليسار أيضا باب دار الوضوء، وباب المنار، والباب الذي ينزل منه لصحن القبة الإدريسية، وبصحن باب الضريح خصة رخام، بديعة الشكل تتبع ماء.

وأما قبة الضريح فقد ازدهت وازدهرت بالأنوار، وأنواع التحف المحتفة بها مما له بال، من زرابي وحسك مصطفة، وحياطي صمة مرصعة بالصقلي الغالي القيمة. والحاصل أن من نظر إليها فكأنما ينظر إلى قصر من الجنة، بما فيه من الأنوار، والإنارة التي تنتفي بها الأكدار.

زيارتنا للزاوية التجانية التي بزرهون

ثم خرجنا من هذا المقام، وصعدنا لزاويتنا التجانية المجاورة للباب ذي الدرج المذكور، وهي مرتفعة يصعد لها بتسعة عشر درجة، فيها بلاطان على خمس سواري، ومحرابها بين خزانتين وشباكان يقابلان ساحة ضريح سيدي راشد، مع مواجهة الجبل الذي لبس حلة خضراء دائما، وقد أتحفت هذه الزاوية بمواكن(302) سبعة، يرصد بها سوائع الوقت، وقد وجدت هذه الأبيات منقوشة في الزليج الأسود على خد الساريتين القريبتين من الدرج من أعلى :

بشرى لمن أم في المحراب بشراه ... إن كان محتسبا لله بشراه
أقام وجهته لله خالصة ... وكان في سره ما يرتضي الله
أحيا طريقة من أحيا الظلام ومن ... تورمت في رضى الإله رجلاه
صلى عليه إله العرش منه له ... والآل والصحب تتويها لعلياه(303)

---

(301) راشد بن منصور الأوربي، خديم آل بيت الرسول المخلص، مولانا الإمام إدريس الأكبر رحمه الله ورضي عنه، اختلف في أصله فقيل أنه من العرب المولدين، وقيل أنه حبشي، وقيل أنه بربري من قبيلة أوربة، وقد سبي هو والده منصور في غزوا موسى بن نصير، ونقل معه إلى المشرق.
وقد قال في حقه العلامة ابن حيدان، عند ترجمته له في كتابه إتحاف أعلام الناس : وقد صار غير واحد من أفاضل المؤرخين ومحققيهم بفنه كان له إلمام بالعلوم، ومعرفة تامة بالسياسة والأخبار، وأيام العرب ووقائعها، والدروسية والرماية ومكايد الحرب، لا قوا وحزم ونجدا وإقدام، ودهاء ونباهة ودين متين، وأبية ورسوخ وأمانة، وصلاح وورع وزهد وتقى، وإخلاص وحب ونصيحة في آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، يوالي بموالاتهم ويعادي بمعاداتهم، إلخ ...
وهو الذي قام بفكر الدولة الأدريسية بعد وفاة مولاي إدريس الأول عام 177هـ، كما كفل ابنه الإمام مولاي إدريس الثاني إلى أن شب وترعرع، وكانت وفاته رحمه الله شهيدا عام 188هـ، ودفن قريبا من ضريح المولى إدريس الأول بجبل زرهون في الجهة الجنوبية على يمين الخارج للمزار العليا من الجامع الكبير هنالك.
انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 3 ص 64-66، وفي جذوة الاقتباس لابن القاضي ج 1 ص 16-26، وفي تاريخ ابن خلدون ج 4 ص 13، وفي الأعلام للزركلي ج 3 ص 11.
(302) مواكن : ساعات الحائط.
(303) هذه الأبيات من نظم الأديب البركة سيدي أحمد بن الطيب السكيراج، وقد ذكر العلامة سكيرج أنها من الأبيات المنقوشة خارج محراب الزاوية الأحمدية التجانية الكبرى بفاس، هو زيادا بيتين وهما :

وفي هذا اليوم كنا خارجين من زرهون، وكان الإخوان بالشراردة ومجاوريهم، تهيئوا لملاقتنا بعين الشكر، وجاء منهم من أخبرنا بذلك، غير أن الأمطار أرخت العنان، فكان العذر شتاء، وهو مقبول، فتأخرنا إلى أن يظهر الصحو، ولا زالت الأمطار هاطلة إلى يوم الجمعة، ولم نخرج من محل النزول يوم الخميس لكثرة الأمطار، التي نجعلها في عدم الخروج من الأعذار، وقد اجتمعنا مع جماعة من الشرفاء والأدباء في هذا اليوم، وهو فاتح ذي الحجة الحرام، وحضر معنا الرفيق الأسعد سيدي الحاج محمد دادي، فكانت ساعة كلها في أنس وطرب، وإذا حضر وقت الصلاة قدمناها على كل مطلب.

وقد حدثنا الرفيق المذكور بكرامة حصلت له في الحجاز أيام ذهابه للحج بإذن سيدنا ومولانا محمد البشير رضي الله عنه، وضمانه له بأنه يرجع سالما، بعدما رام السفر معه للحج، وتأخر سيدنا محمد البشير لموجب باطني، ووقع الإذن منه للرفيق المذكور، فقال : بينما هو في طريق الحجاز إذ أحاطت بالركب العرب المعروفون بهب الريح، وسلبوا جل القافلة من أمتعتهم، حتى أنهم قبضوا عليه وراموا الفتك به، ففتح الله له بابا سلك منه في وسطهم بسبب ضربة ضرب بها أحدهم برأسه كالناطح له، وهم يفرون من المغاربة بما شاع لديهم من أنهم يضربون برؤوسهم، فيقتلون المنطوح بها، وسار هو فارا بنفسه، والكل يعدو أمامه، ظنا منهم أنه يقفو أثرهم للفتك بهم، إلى أن بعدوا عنه، ونجاه الله منهم، وأعيد عليه بعير حمله. وقد أنشدنا أبياتا أنشأها في ذلك المقام الشريف، يقول فيها :

قف بباب الكريم وقفة سائل وتشفع بجاه أسمى الوسائل
رحمة العالمين غوث وغيث أشفع الشافعين إن هال هائل
وبه فلتسل غنيا كريما فالكريم يجيب دعوة سائل
ليدارك برحمة من رحيم فله الحمد بكرة وأصائل

وأنشدنا من حفظه لبعضهم يخاطب مليما :

يا نبي الجمال في أمة العشق فلا تجعل الملامة مله
وترفق بأمة جعلت حبك دينا وحسن وجهك قبله
قسما لا سلوت عنك ولو صر ت من العشق في البرية مثله

وأنشدنا لبعضهم أيضا :

يا نبي الجمال مم خلقت أمن الشمس في السماء صورت
لست من نسل آدم أنت لكن كان رضوان غافلا فخرجت

إن الـ[illegible] على النبي موجبـ ـ ـة لكل خير من الرحمان ترضـاه
عمر بنا الوقK لا تبغي بنا بدلا تعطى من الله ما ترجو وتنواه
انظر كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 32.

وأنشدنا من توشيح :

سرق الغصن قد مـحـبـوبـــــي واخـتـفـــى فـــــي الـــــــورق
قطع الغصن صاحت الأطيار ذا جزا من سرق

وأخذ معناه سيدنا النقيب فقال :

سرق الغصن قد من قد سباني وبسهم الجفون عهدا رماني
واختفى في الأوراق لما أردنا قطعه إذا غدا على الحب جاني

وفي يوم الجمعة أقمنا بمحل النزول، ولم نخرج حتى لصلاة الجمعة لكوننا مسافرين، ولا جمعة على مسافر، وبعد الزوال حضر بعض الإخوان، وكان مصابا بداء الباسور، فشكى داءه، عسى أن ينال بهمة صالحة شفاءه، وكان معنا الرفيق، محل الأخ الشفيق، سيدي الحاج محمد دادي فقال له : إني أمنحك باستعمال دواء تجد معه بحول الله كمال الشفاء، إلا أنه تحصل منه برودة الهمة عن مباشرة الزوجة، إلا بعد مدة نحو الشهرين، ثم يرجع إلى قوته العصيبة، ويذهب الباسور، وذلك أن تؤخذ أوقية من الكافور، وأوقيتان من السمن الحار القديم العهد، يذاب السمن، ويجعل فيه الكافور بعد دقه، ثم يرفع لوقت الحاجة، ويطرف به بليفة صوف صاحب الداء المرة بعد المرة، فإنها تيبس، ويجد العافية بحول الله، وفي يوم السبت ورد لمحل نزولنا العلامة الفاضل الشريف سيدي محمد بن أحمد العلوي مع حضرة سيدنا النقيب، وجرت المذاكرة في قول الإمام البوصيري :

إن لم يكن في معادي آخذا بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

فقال سيدنا النقيب : غاية ما يقال في هذا المقام، حذف جواب الشرط الأول لدلالة الثاني عليه، وتقرير ذلك أن قوله : "إن لم يكن في معادي آخذا بيد فضلا"، فيه صورتان بين منطوق ومفهوم : أما صورة المنطوق فهو أنه إن لم يأخذ بيده في المعاد فضلا فيازلة قدمه، ومفهوم الأخذ باليد لأجل الفضل، الأخذ بها لأجل العدل، فيازلة القدم كذلك. وقوله : "وإلا فقل يا زلة القدم"، يعني : وإلا تأخذ بيدي أصلا فيا زلة القدم.

ومفهوم ما ذكر أنه إن أخذ بيده فضلا فيا ثبات قدمه، والحذف من الأوائل لدلالة الأواخر سائغ مطروق، وعليه فيكون في البيت ثلاث صور : الأخذ باليد فضلا، والأخذ باليد عدلا، وعدم الأخذ أصلا. ووافقه على هذا التقرير الشريف سيدي محمد المذكور. وقد ذكرت لهما أن بعض الشراح ذكر أن (إلا) بالتنوين بمعنى عهدا(304).

---

(304) التقدير وارد، وأن يخرج البيت عن وزنه العروضي لا مناسبته للموضوع المذكور في البيت ما قبله وهو قوله :

فاذن لي ذمة منه بتسميتي محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

وإنْ بالتنوين مذكورا في القرآن في سورة التوبة، قال تعالى : (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولاً ذمة). قال السدي : المراد بالإلّ العهد.

ويدل على هذا أيضا البيت قبله المذكور فيه الذمة والعهد، وبهذا المعنى يزول الإيهام الحاصل بتقدير "وإلا بأن أخذت بيدي فضلا" إلخ ... وهذا التقدير الأخير غير مقصود، ولا يليق تقديره، وقدره بعض الشراح "وإلا لم يأخذ بيدي" وهذا ظاهره. فاعترضنا هذا بأن الرواية لم ترد عن الناظم بالتنوين، ومع ذلك فإنه بدون تنوين أولى لشموله لثلاث صور إهـ. فذكرت أن كلام الناظم، وإن لم يرد بالتنوين فالمعاني لا تتزاحم، ويصح استنباط هذا المعنى، وهو واضح من تلك التقادير، ولا بأس بهذا المعنى القريب للإدراك، وقد ينطق الشاعر ببيت ويقصد معنى، فيجد غيره فيه معاني لم يقصدها قائله، فيحسن كلامه بإجادة فهم ما معه، كما هو واضح، ثم أشرت "للإل" بمعنى العهد في هذه الأبيات على طريقة التغزل :

وظبي هواه بقلبي حل ... ولم يرا غير فؤادي محلا
أتاه عدوي ليعذله ... فأعرض عن عذله وتولى
وقال محلي في قلبه ... ولي فيه أرقب عهدا وإلا
فلا تك ممن يعنفني ... وإلا أرى بالذمام مخلا
فدعني أحب المحب ولا ... تلمني فيه إلا أن يملا

وقد ضمنت البيت المذكور في هذه الأبيات :

يا من عليه مدى الأيام معتمدي ... فامنن علي بمنح الفتح والمدد
إن لم يكن منك لي في الحال خير لقا ... بالله كن في معادي آخذا بيدي
أراك تمنح فضلا من يؤمك في ... ما يبتغيه وإلا عاش في كمد
فقل بفضلك لي بشراك نلت رضى ... مني ولا تخش طول الدهر من أحد
عسى أنال المنى ولا أقول غدا ... يا زلة القدم التي شوت كبدي

بحث قيم فيما أشار إليه البوصيري في بردته

وقد جرت مذكرات بيننا وبين سيدنا النقيب وبين العلامة الفاضل الشريف المنيف سيدي محمد بن أحمد بن إدريس العلوي في مسائل من يوم دخولنا إلى افتراقنا معه ليلة الوداع. فمن ذلك ما أورده سيدنا النقيب من المعارضة الخالصة في قول البوصيري : "ويح قوم" إلخ ... مع قوله عليه السلام "لم يكن بأرض قومي" إلخ، فقلت في الجواب عنها : إن في البيت شبه استخدام، فيكون الضمير من قوله "ضبابها" راجعا للأرض، لا باعتبار أنها أرض مكة، فيكون المعنى "ويح قوم جفوا نبيا ألفته ضباب الأرض وظباؤها" وهي لا عقل لها، وهم يزعمون أنهم عقلاء ولم يألفوه، لشاهد الإستخدام الذي هو قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

من قول المادح "ويح قوم" مع قوله "بأرض" وبيت الإستخدام فيه بأرض قوم. فإن قيل : المتبادر من الضمير هو عوده على أرض التي أريد بها خصوص مكة، لأنها هي التي أخرجوه منها، كما هو ظاهر، ونص عليه جميع الشراح، فكيف يعدل عنه إلى الإستخدام ؟ قلنا : موجب ذلك أمران : أما الأول فإن قضية الضب الذي شهد بالرسالة له (ﷺ) ظاهرها أنها كانت بغير مكة، والمادح أشار لها بلا شك لملاحظته لمثل هذا في كلامه المفروغ في قالب التحسينات البديعية، ومراعاة النكت الألمعية، فإن قيل : الضب واحد، والمادح جمع، قلنا : الجمع يدل على

تشريف ذلك الضب المنزل منزلة الجماعة، لأن الضباب كلها لو حضرت لأقرت بما أقر به هذا الفرد من أفرادها، فلتحقق شهادة الضباب أتى بالجمع في موضع الفرد الشاهد، مع مراعاة نكتة الجناس البديعي.

والموجب الثاني للإستخدام إخبار النبي (ﷺ) بأن الضب ليس بأرض قومه، وهي مكة، فقد قال "لم يكن بأرض قومي" إلخ، ومن اللطائف المستنبطة من كلام المادح، ولا يبعد أن يكون مقصودا لديه، أن يقال : قد أشار إلى بيت الإستخدام، كما قدمنا، وهو قد اشتمل على قوله "بأرض قوم" والحديث فيه "بأرض قومي" كأن المادح يقول : مما يشعرك أيها المتأمل في هذا البيت من كلامي بأني قصدت بالضمير غير أرض مكة التلميح إلى هذا الحديث المستدل به على أن أرض مكة لم يكن بها ضب في زمن النبي (ﷺ)، وإلا أدى الحال إلى تأويل الحديث، مع أنه لا داعي إلى التأويل، ومع أن قضية الضبب لم تكن بأرض مكة، كما أشرنا إليه، والعلم عند الله، وبحث سيدنا الشريف النقيب في هذا بما هو مذكور في ترجمة سيدي محمد بن أحمد المذكور.

بحث نفيس في مسألة رفع عيسى عليه السلام وغيره من المذاكرات القيمة

ومن المذكرات التي أبداها، وجرت المفاوضة فيها حول قوله تعالى في حق سيدنا عيسى عليه السلام : "إني متوفيك ورافعك إلي(305) " أنه يقتضي أن عيسى عليه السلام رفع بعد الموت، ثم ينزل بعد الإحياء، ثم يموت، فتجتمع عليه موتتان، فأجبت عن ذلك بأن الواو لمطلق الجمع، ولا تفيد ترتيبا، وهذا الجواب بحث فيه سيدنا النقيب بأن الواو وإن كانت لمطلق الجمع فهناك من يقول بالترتيب بها، ويحتج بآية الوضوء وغيرها، فقلت : القول بعدم الترتيب هو المشهور، فقال : لا يرفع الإيراد من أصله بكونه مشهورا، فقلت : لك أن تجعل الجملة التي دخلت عليها الواو حالية، والتقدير : إني متوفيك في الإستقبال، والحالة هذه أني رافعك إلي في الحال، والله أعلم، فلم يقبله أيضا.

ثم كتب العلامة الأجل سيدي محمد بن أحمد العلوي هنا كالمتعقب لما ذكرناه بعد المراجعة ما نصه : الحمد لله. قوله تعالى : (إني متوفيك ورافعك إلي) قال أبو البقاء(306) :

---

(305) سورا ل عمران، الآية 55

(306) أبو البقا أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، من خيرا فقها الأحناف بتركيا، توفي بإستانبول عام 1094هـ، من مؤلفاته : الكليا، انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج 2 ص 38، وفي معجم المطبوعا لسركيس 293.

كلاهما للمستقبل، ولا يتعرفان بالإضافة، والتقدير : رافعك إلي ومتوفيك، كأنه رفع إلى السماء ثم توفي بعد ذلك. وقيل : الواو للجمع، فلا فرق بين التقدير والتأخير، وقيل : متوفيك من بينهم، ورافعك إلى السماء، فلا تقديم فيه ولا تأخير، صح من إعرابه.

وفي الأنموذج للرازي، فإن قيل : كيف قال : متوفيك ورافعك إلي، والله رفعه ولم يتوفاه ؟ قلنا : لما هدده اليهود بالقتل بشره الله بأنه إنما يقبض روحه بالوفاة، لا بالقتل، والواو لا تفيد الترتيب، فلا يلزم من الآية موته قبل رفعه. الثاني أن فيه تقديما وتأخيرا، أي إني رافعك ومتوفيك. الثالث : أن معناه قابضك من الأرض تاما وافيا في أعضائك وجسدك : لم ينالوا منك شيئا من قولهم : توفيت حقي على فلان، إذا استوفيته تاما وافيا. الرابع : أن معناه إني متوفيك في نفسك بالنوم من قوله تعالى : "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها"(307) ورافعك إلي وأنت نائم حتى لا تخاف، بل تستيقظ وأنت في السماء، صح منه. وفي الجلالين(308) : متوفيك قابضك، ورافعك إلي من الدنيا من غير موت(309)، صح منه.

ومنها استشكال سيدنا النقيب لما ذكره أهل اللغة في أنه لا يقال للكأس كأس إلا إذا كان ممتلئا، وعليه فما فائدة زيادة "دهاقا" في قوله تعالى : (دهاقا) قلنا : الكأس لا يسمى كأسا إذا كان فارغا، ويسمى كأسا إذا كان فيه الشراب، ولو لم تمتلئ، ودهاقا وصف به الكأس، ليعلم أن هذا الكأس ممتلئ جدا، حتى أنه يعطى لهم فائض الجوانب، ويمكن أن يرى فائضا بالحباب التي تتراكم على الشراب إذا صب من فم الإبريق عليها، وذلك كما قيل فيها :

كأن كبرى وصغرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

ولا يخفى أن رؤية الكأس المملوءة على هذه الهيئة مما يزيد نشاطا لتمتع العين بالنظر إليها على هذا النسق البديع، فيكمل السرور برؤيتها عند الطبع السليم، حتى أنه يستلذ بالسماع، كما طلب ذلك الشاعر في قوله :

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

---

(307) سورة الزمر، الآية 42

(308) تفسير الجلالين للعلامة الحجة الحافظ جلال الدين السيوطي

(309) قال الإمام البغوي في تفسير هذه الآية : اختلفوا في معنى التوفي هاهنا، قال الحسن والكلبي وابن جريح : إني قابضك ورافعك من الدنيا إلي من غير موت، ويدل عليه قوله تعالى في سورة المائدة : فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، أي قبضتني إلى السماء وأنا حي، لأن قومه إنما علموا بعد رفعه لأن بعد موته إلخ... وقال الربيع بن أنس : المراد بالتوفي النوم، وكان عيسى قد نام فرفعه الله نائما إلى السماء، معناه إني منيمك ورافعك إلي كما قال الله تعالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل، أي ينيمكم بالليل، انظر تفسير البغوي ج 1 ص 356.

وللخازن في تفسير هذه الآية ستة أقوال، منها قوله في الوجه الرابع : إن الواو في قوله ورافعك إلي لا تفيد الترتيب، والآية تدل على أن الله تعالى يفعل به ما ذكر، فأما كيف يفعل ومتى يفعل فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت في الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال، انظر تفسير الخازن ج 1 ص 256.

ومنها المذاكرة في إفراد الضمير وتأنيثه في قوله تعالى :"وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها"(310) مع أن مقتضى العطف بأو عود الضمير على واحد لا بعينه، فأجبنا بأن التجارة لما كانت هي المقصودة بالذات، وأهم من غيرها عندهم، واللهو إنما هو من توابعها، وهي تقدم عليه أيضا، فلذلك كان الضمير راجعا إلى التجارة، واللهو في ضمنها بالعطف عليها، بخلاف ما إذا كان الضمير مذكرا، فربما يوهم انفضاضهم للهو دون التجارة، وبهذا يدفع ما يقال من أن التذكير أولى، لأنه يكون في قوة ما ذكر، وهو يشمل التجارة واللهو. ثم إن النقيب رعاه اله قال بمثل الجواب الأول، من كون التجارة هي المقصودة، ذاكرا بأنهم نصوا على أن اللهو كان يضرب في العرب إعلاما بقدوم التجارة ووقتها ليحضرها الناس، فلهذا كان تأنيثها أولى من التذكير. وقد ذكر لنا جوابا آخر عن بعضهم أن الضمير يعود على الرؤية المأخوذة من رأوا.

وكتب لنا العلامة ابن أحمد -أمنه الله- ما نصه : قال الرازي(311) في سورة الجمعة من أنموذجه ما نصه : فإن قيل : كيف قال تعالى (انفضوا إليها) والمذكور شيئان : اللهو والتجارة ؟ قلنا : قد سبق جواب هذا في سورة التوبة في قوله تعالى (ولا ينفقونها في سبيل الله)، والذي يؤيده هنا ما قاله الزجاج(312) : معناه وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهوا انفضوا إليه، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه. وقرأ ابن مسعود : إليهما بضمير التثنية، وعليه فلا حذف، صح منه، وقال في سورة التوبة : وليس قوله تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها) وقوله تعالى : ومن يكسب خطيئة أو إثما(313) إلخ ... من هذا القبيل، لأن الإضمار تم عن أخذهما لوجود لفظة : أو، وهي كإثبات أحد المذكورين، فمن جعله نظير هذا فقد سها، إلا أن يثبت أن (أو) في هاتين الآيتين بمعنى الواو.

وفي هاتين الآيتين لطيفة، وهي أن الكلام لما اقتضى إعادة الضمير على أحدهما أعاده في الآية الأولى على التجارة، وإن كانت أبعد ومؤنثة أيضا، لأنها أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله من اللهو، لأن المشتغلين بها أكثر من المشتغلين باللهو، أو لأنها أكثر نفعا من اللهو، أو لأنها كانت أصلا واللهو تبعا، لأنه ضرب بالطبل لقدومها على ما عرف من تفسير الآية. وأعاده في الآية الثانية على الإثم رعاية لمرتبة القرب والتذكير، صح منه.

---

(310) سورا الجمعة، الآية 11

(311) ƨين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الراƨي، مƒسر، فقيه، أديب، لغوي، محدث، ƚ وفي، من مƚ نƒاته : الRهب الƛبريƨ في ƚƒسير الكتاب العƨيƨ، ومختار الƚ حاΘ، في اللغة، وروضة الƚ احة، في علم البيان، وشرΘ المقاماK الحريرية، وحداƒƘ الحقاƘ، في علم الƚ وف، وأنموRج جليل في أسƒلة وأجوبة من غراƒب ƛي التنƨيل، وغير RIIR من المƒلƒK الأخرƍ، ƚوفي رحمه الله بعد عام 666هـ.

انظر ƚرجمته في معجم المطبوعاK لسركيس 917، وفي الأعلام للƨركلي ج 6 ص 55.

(312) أبو إسحاƘ إبراهيم بن السري بن سƛل، عرف بالƨجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد ببغداد عام 241هـ، وبƛا ƚوفي عام 311هـ، من مƚ نƒاته : الƛشتقاƘ، ومعاني القرƛن، وخلƘ الƛنسان، وفعلK وأفعلK، في ƚ ريف الƛلƒاظ، والأمالي، في الأدب واللغة، وإعراب القرƛن، في ƛلاƛة أجƨاƛ، والمƛلث، في اللغة، وغير RIIR من المƚ نƒاK الأخرƍ.

انظر ƚرجمته في إنباه الرواا على أنباه النحاا للقƒطي ج 1 ص 159، في ƚاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج 6 ص 89، وفي وفياK الأعيان لƛبن خلكان ج 1 ص 11، وفي الأعلام للƨركلي ج 1 ص 40.

(313) سورا النسا، الآية 112.

ذكر تراجم بعض من تلاقينا معهم بزرهون
فمنهم المقدم سيدي محمد بن العربي العلوي(314)

وقد تلاقينا بزرهون مع جملة من السادة الراقين مراقي السيادة، ممن اتصفوا بالأخلاق الكريمة، والشيم الفخيمة، فلنذكر منهم من تعين علينا ذكره هنا لكثرة تردده علينا، وتوده لنا. فمنهم سلطان المقدمين في هذه الطريقة، ذو الشيبة المنورة، والسريرة المطهرة، الشريف الأجل، سيدي محمد بن العربي العلوي، من دار سيدي لحسن، قد تلقى التقديم عن أكابر الطريقة، مثل الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح، رضي الله عنه، وكان يلقبه بسلطان المقدمين. وقد كتب له سيدنا ومولانا محمود التقديم لإعطاء هذه الطريقة، زيادة على التقديم الذي بيده منذ زمان من حضرة الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح. ونص ما كتبه له، مطبوعا عليه بطابعه الشريف.

بعد البسملة وصلاة الفاتح لما أغلق إلخ. : نحمدك يا من فتح بصائر أهل حضرته، فأبصروا نور النبوة في أهل خصوصيته، وسلكوا على المنهج القويم، حتى ظفروا بالوصول إلى النعيم المقيم، ونصلي ونسلم على من رفع الله مقداره، وأشرق في الغياهب أنواره، سيدنا محمد خاتم الأنبياء، وعلى آله وصحبه سادات الأولياء، وعلى كل من والاهم، لينال بذلك رضا مولاهم، ورضي الله عن القطب المكتوم، من فضله لدى الخاص والعام معلوم، كهف الأمان والأماني، سيدنا ومولانا أحمد التجاني، والسلام منا على حبيبنا وصفينا، ورفيع المكانة من قلوبنا، المقدم البركة، المحوط بحفظ الله في كل سكون وحركة، أبي عبد الله سيدي محمد بن العربي العلوي، ورحمة الله تعالى وبركاته وتحياته وزكواته عن مدد سيدنا قطب الأقطاب.

---

(314) الشريف البركة المقدم سيدي محمد بن العربي بن محمد بن المزادي بن محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن أحمد بن علي بن طاهر بن الحسن بن يوسف بن مولانا علي الشريف العلوي، مقدم الطريقة الأحمدية التجانية بزرهون، ولد بالمدينة المذكورة عام 1250هـ، وكان الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح يلقبه بسلطان المقدمين، وكان رحمه الله جديرا باللقب، وليا صالحا، ولا يفتر لسانه عن ذكر الله في كل حال، قياما وقعودا وعلى جنبه، حتى أنه إذا دخل بيت الخلاء عد على لسانه خوفا من أن يذكر الله فيه، وكان ورده اليومي من الصالحين لما أغلق يزيد على 12000 مرة ما بين الليل والنهار، زيادا على الأوراد ونوافل الخير. أخذ ورد الطريقة الأحمدية التجانية عن المقدم الشهير سيدي محمد بلقاسم بوصري المكناسي، ثم أجازه فيها بعد ذلك الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح، وبخط تقاديمه إجازته من طرف الشريف سيدي محمود التجاني عام 1329هـ، وكانت وفاته رحمه الله بداره بزرهون يوم الثلاثاء 21 شوال عام 1339هـ، انظر ترجمته في نيل المراد للعلامة الحجوجي ج 2 ص 53-56، وفي نسمات القرب لنفس العلامة ص 29، وفي لوامع الأنوار لنفس العلامة ج1 ص 20.

وبعد : السلام عليك أيها المحب الوفي : فإنا قد أذناك فيما لدينا من الإذن الصحيح، فيما أذن لنا فيه سيدنا الوالد، خليفة سيدنا القطب التجاني في هذه الطريقة المحمدية، وتلقينها لكل من طلبها منك، مع الإطلاق لك في جميع أسرارها وأذكارها، وما لها من الخصوصيات، زيادة على ما لديك من الإذن في التلقين بالتقديم، سائلا من المولى أن يؤيدك بروح القدس، وينفع بك، وعلى يدك، ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين، والشهداء والصالحين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، والحمد لله رب العالمين، من الداعي لكم بخير الدارين، المنقوش طابعه أعلاه. وقع بتاريخ ثلاثين ذي القعدة الحرام عام تسعة وعشرين وثلاثمائة وألف. عن إذن صاحب الختم أعلاه مولانا محمود بن البشير بن مولانا الحبيب بن القطب المكتوم أبي العباس مولانا أحمد التجاني، رضي الله عنه وأرضاه آمين. إهـ.

وهذا المقدم الجليل، فاق غيره في حسن السمت، في حالتي النطق والصمت، ذو ورع وديانة، وصيانة وأمانة، يعترف له بالفضل كل من سمع به من الإخوان، ومن عوائده أنه يأتي لفاس في رمضان للإعتكاف بضريح سيدنا رضي الله عنه كل سنة، إلا أنه لكبر سنه وضعفه لم يقدم إليه في هذه السنة، وتأسف على عدم قدومه له الأفاضل من الإخوان، أمننا الله وإياه من أهوال هذا الزمان، آمين.

ترجمة سيدي الطيب بن علال بن العربي برادة

ومنهم ناظر زاوية زرهون، الشاب العفيف، المحب في الجناب الأحمدي، السيد الطيب بن السيد علال بن العربي برادة، بن أخي ناظر زاوية فاس، قام على ساق الجد في إدخال السرور على سيدنا محمود، مع ضعف حاله، وقلة ماله. وقد كان قدم لمكناسة يستعطف سيدنا محمود رضي الله عنه في التوجه لزرهون، باسم النيابة عن الإخوان والأحباب القاطنين به، وخرج لموادعتنا يوم خروجنا من زرهون، وبات معنا بالمحطة الأولى بعين تاسلالت، ورجع قرير العين بدعاء سيدنا محمود، وذلك عنده غاية المقصود، وقد أقره على نظارة الزاوية هناك.

ترجمة العلامة سيدي محمد بن أحمد العلوي(315)

ومنهم علامة الحضرة الزرهونية ومفتيها، حائز قصبة السبق في حلبة المسارعة لإحراز المكارم، أبو المواهب والمحامد، الفاضل الذي يشهد له بالفضل العام والخاص، وحاز المقام العالي بين الخواص، الشريف المنيف، العلامة النقاد الناسك العفيف، سيدي محمد بن أحمد بن إدريس العلوي الإسماعيلي، وهو أول من دخلنا داره، فهش وبش، وقابلنا بغاية الإكرام والإجلال والإعظام. وقد لازمنا مدة إقامتنا هناك. وهذا الشريف قد فاق غيره في التحقيق والتدقيق، وسار في سيره على أقوم طريق. وله تآليف عديدة، وتقاييد مفيدة، وقد أطلعت على أول شرحه النفيس لميمية سيدنا النقيب المسماة : ببغية المستهام، في مدح خير الأنام التي يقول في مطلعها :

إني بدين الغرام راسخ القدم والله قدره علي في القدم

المسمى : تكميل المرام، في شرح بغية المستهام، وهو شرح يستحق أن يكتب بسواد العيون، وينفق في تحصيله الدر المصون، ومن تآليفه : تمهيد الحجة، إلى تنظيف المحجة، من دنس تمويه معتصبة الأفرنجة، يرد فيه على من زعم أن السد المذكور في القرآن غير موجود على الكرة الأرضية، وقد أبدى العجب العجاب، فيما أتى به من التحقيقات في سد هذا الباب، بألذ خطاب، ومنها : مطية الأبطال، إلى صوب الصواب في مسألة السروال، جمع فيه ما افترق في

---

(315) العلامة القاضي سيدي محمد بن أحمد بن إدريس بن الشريف بن المولدي بن أحمد بن المولدي بن المولدي بن السلطان مولاي إسماعيل العلوي، ولد بمدينة مرهون في فاتح شوال الخير عام 1288هـ، وبها المدينة أخذ العلم عن جماعة من الكبار منهم : العلامة مولاي الحسن بن الشريف العلوي، والعلامة مولاي الفضيل الدريسي الشبيهي، والعلامة مفتي مرهون وقتها سيدي محمد بن عبد الواحد الدريسي الشبيهي، ثم توجه لمدينة فاس فقطنها بها عن مجموعة من أفاضل العلماء منهم : العلامة سيدي الحاج محمد فتحا كنون، والعلامة سيدي التهامي كنون، والعلامة سيدي محمد بن التهامي الوزاني، والعلامة المؤرخ سيدي أحمد بن خالد الناصري السلاوي، والعلامة سيدي محمد فتحا بن قاسم القادري، وغيرهم.

أما وظائفه فقد عين قاضيا بمدينة مرهون بتاريخ 12 هي القعدا عام 1336هـ، ثم قدم استقالته من هذا المنصب احتجاجا على تدخل السلطان في مسائل القضاء الشرعي بالبلاد، ثم عين بعد ذلك عضوا بمجلس الاستئناف الشرعي الأعلى بالرباط، ثم قاضيا بمدينة مكناس عام 1344هـ، ثم قاضيا بمدينة صفرو السماط بالقرويين بفاس بتاريخ 9 شعبان عام 1346هـ، ثم قاضيا بمدينة وزان بتاريخ 20 هي القعدا الحرام عام 1350هـ، ثم قاضيا بمكناس عام 1359هـ، وبقي في منصبه الأخير إلى أن توفي رحمه الله صبيحة يوم الجمعة 28 محرم الحرام عام 1367هـ، ودفن بقبة ضريح جده السلطان مولاي إسماعيل. وله مؤلفات كثيرا منها : إتحاف النبراس الأكياس بتحرير فوائد مناقشة القضاة لقاضي فاس، وتحرير المقال في منع ما ادعاه جمال الدين ابن مالك على منى من الأهمال، وبلوغ الأمنية بشرح الثالث فصول الأنموذجية، وتمهيد الحجة وتنظيف المحجة من دنس تمويه سياط الأفرنجة، وتكميل المرام في شرح بغية المستهام، للنقيب عبد الرحمان بن زيدان، وتوضيح طرق الرشاد لحسم مادا الإلحاد في حديث صلى الله الرسول المكلم موسى عليه السلام للملك المكرم الموكل بقبض أرواح العباد، وغير ذلك من التآليف والتقاييد الأخرى.

أنظر ترجمته في إسعاف الإخوان لمحمد السلمي ابن الحاج ص 141-145، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 24.

غيره من الأحاديث والآثار، وسبق غيره في هذا المضمار، وحصل فيه بعد التطويل أن النبي (ﷺ) اشتراه ولم يلبسه، وأتى بما يعضد ذلك من أحكم الدليل.

ومن تحقيقاته ما كتبه لنا في تحقيق الجواب عن الإشكال الذي أوردناه على كلام ابن مالك في المقصور والممدود المتقدم الذكر، ونصه : الحمد لله : ورد علينا الفاضل الأريب، السياسي الأديب، صاحب الخلق الحسن، والطبع المستحسن، والنظم الرائق، والنثر الفائق، العلامة أبو العباس سيدي أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، فكان من شريف محاضراته أن قال : أشكل عليه حكم ابن مالك في باب المقصور والممدود من خلاصته على الحذاء، بأن مده إنما هو سماعي، لكونه لا نظير له. وإشكاله من وجهين : أحدهما أنا وجدنا له نظيرا موازنا له، وهو "سلاح". ثانيهما أن (حذاء) يجمع على أحذية، وقد تقرر أن مما يطرد فيه المد مفرد أفعلة، قال : وقد أوردت بحثي هذا على بعض من اجتمعت به من علماء مكناسة، فأجاب بأن الذي يطرد جمعه على أفعلة ويكون مده مقيسا هو المذكر، والحذاء مؤنث إهـ.

فقلت للفاضل المذكور : بحثك تركب من شقين : كون حذاء له نظير في وزنه، وكونه مفردا لأفعلة، والجواب المذكور إنما نفع في الثاني، وأما الأول فلازال على حاله. ثم أجبته بأن الشراح أفادوا أنه ليس المعتبر في النظير مجرد الموافقة في الوزن، بل لا بد مع ذلك من اشتراك كل من النظيرين في الإندراج تحت ضابط من الضوابط الآتية، وهي أن يكون كل منهما مصدرا لفعل مبدوء بهمز وصل، أو بهمز قطع، أو "لفعل" بفتحتين حال كونه دالا على صوت أو مرض، أو (لفاعل)، أو مصدرين على (تفعال) بالفتح، أو صفتين على "فعال" بالفتح والتشديد، أو على (مفعال)، أو مفردين لأفعلة قياسا، والسلاح وإن وافق الحذاء الذي هو إسم للنعل في الوزن فلم يشاركه في شيء، أعني في الدخول تحت شيء من الضوابط السابقة.

فإن قلت : إن الإشتراك واقع بينهما في الإسمية أيضا، قلت : الجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما أن الإشتراك في مجرد الإسمية ليس هو من الضوابط التي اعتبروها في الحكم، بأن هذا نظير لهذا. ثانيهما : أنه يكفي في الفرق كونه أي الحذاء مؤنثا لا غير، وذلك بخلاف السلاح، فإنه مذكر، وقد يؤنث كما في المصباح، ولوجود الفرق بينهما كان جمع سلاح على أفعلة مقيسا، بخلاف جمع أحذية عليه كما أشير إليه قبل. فإن قلت : رجع هذا الجواب حينئذ إلى الأول ولم يبق له فضل عليه، قلت : فضل ما بين الجوابين أبين من أن يذكر، وأوضح من أن يسطر، فإن الأول قاصر على آخر الضوابط السالفة، وهو قياسية الجمع على أفعلة. وأن السلاح خالفه الحذاء فيها، من غير تعريج على شيء زائد على ذلك. وأما الثاني فقد قرر أولا ما يعتبر عندهم في الحكم على الشيء بأنه نظير لغيره في هذا الباب، وبين ثانيا أن شرط الحكم المذكور مفقود في السلاح، باعتبار كل ضابط من الضوابط السالفة، لا باعتبار خصوص قياسية الجمع على أفعلة. فإن قلت : الأول وإن كان بالحال التي وصفته بها من القصر على ما ذكر لكنه كاف هنا في دفع إيراد أن سلاحا نظير لحذاء، قلت : لو كانت صورة البحث خصوص أن كلا منهما يجمع على أفعلة كان الأمر كما قلتم من كفايته، وأما حيث كانت صورته ما أسلفناه من جعل الباحث الفاضل الملحوظ في الحكم على سلاح بأنه نظير لحذاء مجرد الموافقة في الوزن، وأن اشتراكهما في الجمع على أفعلة شيء زائد على ذلك، فبالضرورة حينئذ لا يكون الجواب الأول كافيا في دفع الإيراد، بل لا غنى عن تتميمه بما أوضحناه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وكتب لنا أيضا في تحصيل الجواب الذي راج بيننا في قول البوصيري ويح قوم(316) إلخ، ما نصه : حمدا لمن ألهم البيان، وعلم التبيان، وجعل العلم ينمو ويزيد بمفاوضة الإخوان، من الخلان، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان، الآتي بالحجة والبرهان، وبعد : فيقول المفتقر لرحمة اللطيف، محمد ابن أحمد بن إدريس بن الشريف، كان الله تعالى له، فيما يكون وما قد كان، إن مما اختطف من يد الدهر، واغتنمت فرصة اقتطافه من طيب الزهر، ليلة غاب منها الرقيب، واستبشر فيها الكتيب، وضرب المفلس من إسعادها بالسهم المصيب، ليلة اجتمعت فيها بالخلين الأكملين، والفرقدين النيرين، الرافلين في حلل المعارف، المتأثلين من مراكز المجد التالد والطارف، أبي زيد مولانا عبد الرحمان نجل مولانا محمد الحسني الإسماعيلي الزيداني، وأبي العباس سيدي أحمد نجل السيد الحاج العياشي الخزرجي الأنصاري سكيرج، لا زالت ألطاف المولى عليها تعرج، فكان مما أملى فيها من ضروب المعارف، وأفيض من سجال اللطائف، أن بادر المولى الأول وقال : إن قول مادح الأعتاب النبوية البوصيري : ويح قوم إلخ ... قد أشكل من وجهين.

أحدهما أن مقتضى الألفة التي عبر بها في هذا الموضوع، هو دوام الإتصال والملازمة، وعدم الإنفصال، مع أن الجزئيتين اللتين استشهد له شراحه بها في ألفة الضباب والظباء له (ﷺ) ليس فيهما ذلك، وحينئذ فكيف ساغ له التعبير بذلك، ولشارحيه بما أشير إليه هنالك.

ثانيهما : أنه كيف يقول ألفته ضبابها، يعني ضباب مكة، والنبي (ﷺ) يقول : لم يكن - يعني الضب- بأرض قومي، إلخ، ومعلوم أن قومه هم قريش، وأرضهم هي أم القرى، قال : وقد كان خطر لي في حل ثاني وجهي الإشكال أن يقدر المتعلق المنفي في قوله : لم يكن بأرض قومي،

(316) هذا اللفظ من همزية الإمام البوصيري، وتمام بيته كتالي :

ويح قوم جدوا نبيا بأرض ... ألفته ضبابها والضباب

وسلوه وحن جذع إليه ... وقلوه ووده الغرباء

إلخ... بقولنا مأكولا، وحينئذ لا ينافي ذلك وجودها بها، قال : ثم وجدت هذا الجواب منصوصا، يعني عند شارحه بنيس(317)، والحمد لله على الموافقة.

قال : وأما أول وجهيه فلا زال على حاله عندي، فقلت أنا للمولى المذكور : الجواب عن هذا الوجه أن الألفة هنا إنما هي عبارة عن الإطمئنان والإستئناس، ويقابلها الوحشة التي هي عبارة عن بعد القلوب من المودات وانقطاعها، ولا شبهة أن الضب كالظبي ما أقاما بين يديه (ﷺ) وبالغا في الثناء، وشهدا بالرسالة إلا بعد أن أنسا به، واطمأنا إليه، وانتفت الوحشة عنهما، وهذا هو معنى الألفة كما سبق، وحينئذ فلا درك هنا لا على المادح في التعبير بذلك، ولا على شارحيه في الإستشهاد له بما هنالك.

فإن قلت : والواقع قي القضيتين المستشهد بهما إنما هو ألفة ضب واحد، وظبي واحد، فكيف ساغ للمادح الجمع فيهما ؟ قلت : كأنه ألحق في ذلك ما أعطله لسان الحال، بما أفصح عنه النطق والبيان، وقوى ذلك عنده كون الجحود والشقاق، والوحشة والنفاق، مع جانب خواص الله تعالى في أرضه لم تعهد من غير بني آدم والجن. ثم إن كلا من الألفة والوحشة من قبيل المشكل الذي تختلف أفراده، ولا واسطة بينهما، أعني الألفة والوحشة، وما يتخيل واسطة هو راجع عند النظر الصائب، إما للرتبة السفلى من الوحشة، وإما للدنيا من الألفة.

ثم إن الفاضل الثاني أبدى جوابا عن الوجه الثاني أيضا فقال : يمكن أن يكون في كلام المادح شبه استخدام، بأن يكون أطلق الأرض أولا مريدا بها خصوص مكة، وأعاد عليها الضمير ثانيا مريدا بها خصوص الأرض التي هي محل الضباب، كأرض نجد على ما يأتي. ويؤيد ذلك أن بيته المذكور يمكن أن يكون فيه تلميح لبيت الإستخدام المشهور، وهو إذا نزل السماء بأرض قوم إلخ... فعارضه المولى المستشكل بأن المادح قد قال بعد هذا (أخرجوه منها) إلخ... فأعاد الضمير هنا على خصوص أرض مكة، فلو كان الأول لغيرها للزم عليه عدم جريان الضمائر على وتيرة واحدة. قال راقم هذه الأحرف هنا : هذا لا يؤثر خللا في الجواب المذكور، كما أفاده كلامهم في النوع الثاني من الإستخدام الممثل له بقوله :

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانحي وضلوعي

هذا وقصة الضب المشار إلى أن الشراح استشهدوا بها هي ما رواه البيهقي والدارقطني والطبراني والحاكم وابن عساكر وابن عدي، وأورده غير واحد من فحول الأئمة كالقاضي أبي

---

(317) أبو عبد الله محمد بن أحمد بنيس، فقيه، محدث، اختص بعلم التراث وبرع فيها، ولد بتاس ليلة الثلاثين منتصف رجب سنة 1160هـ، وبها أخذ العلم عن جماعة من خيرة العلماء منهم : شيخ الجماعة أبو عبد الله سيدي محمد بن قاسم جسوس، والعلامة أبو عيد سيدي عبد الرحمان المنجرة، والعلامة أبو عبد الله سيدي محمد بن الحسن البناني، والعلامة سيدي عبد القادر بن شقرون، والعلامة سيدي محمد بن عبد السلام التاسي، وغيرهم.
وله مصنفات منها : شرح دقيق على فرائض مختصر خليل سماه : بهجة البصر في شرح فرائض المختصر، وشرح على متن الزمزمية سماه : لوامع أنوار الكوكب الدري في شرح همزية الإمام البوصيري، وحاشية على بغية الطلاب في شرح منية الحساب، لابن غازي، وتلخيص وتحصيل ما للأمة الأعلام في مسائل الحياة الدنيا بين الحكام. وكانت وفاته رحمه الله بالوباء عام 1214هـ، انظر ترجمته في سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 204، وفي شجرة النور الزكية لمخلوف ص 374 رقم الترجمة 1493، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 351 رقم الترجمة 779، وفي معجم المطبوعات لسركيس 593، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 15.

الفضل في الشفاء، والقسطلاني(318) في المواهب، والقاضي أبي الحسن الماوردي(319) واللفظ له في كتاب أعلام النبوة إذ قال : ومن آياته (ﷺ) ما روى ابن عمر عن أبيه عمر رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) كان في محفل من أصحابه، إذ جاء أعرابي قد صاد ضبا، وجعله في كمه ليذهب به فيأكله، فلما رأى الجماعة قال : ما هذا ؟ قالوا : النبي (ﷺ)، فجاء يشق الناس فقال : واللات والعزى آمنت بك، أو يؤمن بك هذا الضب، وأخرج الضب من كمه، فطرحه بين يدي النبي (ﷺ)، فقال رسول الله (ﷺ) : يا ضب، فأجابه الضب بلسان عربي سمعه القوم جميعا، لبيك وسعديك يا زين من يوافي القيامة، قال : من تعبد ؟ قال : الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي الجنة رحمته، وفي النار عذابه، قال : فمن أنا يا ضب ؟ قال : رسول رب العالمين، وخاتم النبيئين، وقد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك. فرجع الأعرابي إلى قومه فأخبرهم بالقصة، وكان من بني سليم، فأتى رسول (ﷺ) ألف إنسان منهم، فأمرهم أن يكونوا تحت راية خالد بن الوليد، ولم يؤمن من العرب ألف في وقت واحد غيرهم، صح منه.

---

(318) أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، الإمام العالم العلامة الحجة المحدث المسند، ولد بالقاهرة عام 851هـ، وبها أخذ العلم عن جماعة من الأفاضل منهم : العلامة الحافظ الشاوري، والحافظ السخاوي، وغيرها من الأكابر، وله مصنفات منها : إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، في عشرة أجزاء، والمواهب اللدنية في المنح المحمدية، في السيرة النبوية العطرة، ومنهاج الإبتهاج لشرح مسلم بن الحجاج، في ثمانية أجزاء، ونفائس الأنفاس في المحبة واللباس، في علم التصوف، ولطائف الإشارات في علم القراءات، والكنز، في علم التجويد، واختصار الضوء اللامع لشيخه السخاوي، والروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر، وغير ذلك من الكتب والتقاييد الأخرى.
وكانت وفاته رحمه الله بموطنه بالقاهرة عام 923هـ، انظر ترجمته في فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 967-970، رقم الترجمة 546، وفي الكواكب السائرة لنجم الدين الغزي ج 1 ص 126، وفي الضوء اللامع للسخاوي ج 2 ص 103، وفي الخطط التوفيقية لمبارك ج 6 ص 11، وفي النور السافر لابن العيدروس ص 113، وفي التكر السامي للحجوي ج 2 ص 420 رقم الترجمة 913، وفي الأعلام للزركلي ج 1 ص 232، وفي البدر الطالع للشوكاني ج 1 ص 102.

(319) أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، أقضى قضاة عصره، ولد بالبصرة عام 364 هـ، ثم انتقل إلى بغداد، وكان واسع التبحر في العلوم، سيما الفقه والأصول والتاريخ والسياسة والأدب، وله تآليف كثيرة منها : الحاوي في فقه الشافعية، في عشر مجلدات، والأحكام السلطانية، وأعلام النبوة، وأدب الدنيا والدين، والنكت والعيون، في ثلاث مجلدات، ونصيحة الملوك، وغير ذلك من الكتب الأخرى.
وكانت وفاته رحمه الله عام 450هـ، انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ج 3 ص 303 ، وفي شذرات الذهب لابن العماد ج 3 ص 285، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 327، وفي التكر السامي للحجوي ج 2 ص 387 رقم الترجمة 835.

وهذا الحديث ادعى ابن دحية(320) أنه موضوع، لكن قال في المواهب : ليس فيه ما ينكر شرعا، خصوصا وقد رواه الأئمة، فمن أين أتاه الضعف إهـ. نقله في مطالع المسرات وأقره، ثم إن ظاهر سياق هذه القصة، وقوله فيها فلما رأى الجماعة قال : ما هذا ؟ مع قوله : فأمرهم أن يكونوا تحت راية خالد إلخ. أنها وقعت في بعض البلاد التي غزاها (ﷺ)، وأن ذلك إنما كان بعد غزوة أحد، وذلك لأن خالدا إنما أسلم بعدها. ومن المعلوم أن جميع مغازيه (ﷺ) إنما كانت بعد الهجرة، ولعل هذه الغزوة هي التي روى فيها أبو داود وابن ماجه، واللفظ للأول : كنا مع رسول الله (ﷺ) في جيش، فأصبنا ضبابا، قال : فشويت منها ضبا، فأتيت رسول الله (ﷺ) فوضعته بين يديه، قال : فأخذ عودا فعد به أصابعه، ثم قال : إن أمة من بني إسرائيل مسخت دوابا في الأرض، ولا أدري أي الدواب هي ؟ قال : فلم يأكل ولم ينه.

وفي رواية ابن ماجه : كنا مع النبي (ﷺ)، فأصاب الناس ضبابا، فاشتووها وأكلوا منها، فأصبت منها ضبا فشويته، الحديث. وهذا كله يؤيد نفي المعارضة بين الحديثين، ولو أبقينا حديث: "لم يكن بأرض" إلخ ... على ظاهره من كون التقدير : لم يكن موجودا إلخ ... إذ قد تبين أن قصة ألف الضب له (ﷺ) ظاهر سياقها، والقرائن الخارجية أنها في غير أرض قومه، كما يؤيد أيضا جواب الفاضل الثاني، ويزيف جواب الشيخ بنيس المذكور سابقا، لأنه انبنى على تسليم أن القصة المذكورة وقعت بأرض قومه عليه السلام، وأن الضباب موجودون بها، وقد علمت أن ذلك لا دليل عليه، بل أفاد سياق القصة خلافه. ويعضد ذلك أيضا ما مر من قول صاحب المواهب : ليس فيه ما ينكر إلخ ... لأن صاحب المواهب هو أحد شراح البخاري، فهو لا يجهل ما تكرر فيه من حديث : لم يكن بأرض قومي، فدل ذلك أنه إنما نفى ما ينكر عن حديث شهادة الضب، علما منه بأن قصته بأرض قومه. وأما كونه يقول بتقديره مأكولا في حديث : لم يكن إلخ ... فهذا شيء ما رأيناه عرج عليه في شرح البخاري.

وقد ساق ابن ماجه الحديث على ما في النسخ المطبوعة بلفظ : لم يكن بأرضي فأجدني إلخ. وأما أبو داود فرواه بلفظ البخاري السابق، وكذا مسلم في بعض رواياته، وعنده في رواية أخرى : هذا لحم لم آكله قط، وفي رواية له أخرى : ولكنه ليس من طعامي، والآتي بالضب الذي أبى أكله (ﷺ) هي أم حفيدة أخت أم المؤمنين ميمونة، أتت به من نجد كما في بعض روايات مسلم وغيره، ونجد ليس من الحجاز، بل هو ما ارتفع من تهامة من أرض العرب الموالية للعراق. قلت : وتلخيص ما سبق وتقريب المقصود منه أن الكلام في مقامين : هل بين الحديثين معارضة ؟ فيحتاج للجواب عنها، وقد علمت أن الذي أفاده ظاهر القصة أنها لم تقع بمكة، فلا داعي لإخراج حديث : لم يكن بأرض قومي إلخ ... عن ظاهره. المقام الثاني أنه حيث لم يكن له صارف عن الظاهر، وأنه لا دليل على وجود الضباب بمكة، فكيف أثبت المادح وجودها فيها، وزاد أنها ألفته. وقد بان لك مما سلف أن الأولى في الجواب هو تخريج كلامه على منحى الإستخدام، لما لزم على الجواب بتأويل حديث لم يكن إلخ...بأن يقدر فيه (مأكولا) من تسليم وجودها بها، وذلك مع

---

(320) أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد المشهور بابن دحية الكلبي، حافظ للحديث، أديب ومؤرخ، ولد ببلاد الأندلس عام 544هـ، وتوفي بالقاهرة عام 633هـ، من مؤلفاته : المطرب من أشعار أهل المغرب، والنبراس في تاريخ خلفاء بني العباس، والتنوير في مولد السراج المنير، وعلم الشعر المبين في المفاضلة بين أهل الشين، ونهاية السول في خصائص الرسول، وغير ذلك من المؤلفات الأخرى.
انظر ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد ج 5 ص 160، وفي لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج 4 ص 292، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 381، وفي نفح الطيب للمقري ج 1 ص 368، وفي الأعلام للزركلي ج 5 ص 44، وفي ميزان الاعتدال للذهبي ج 2 ص 252.

كونه لا دليل عليه فيه مفسدة فتح باب المعارضة بين الحديثين، مع وجود المندوحة عن ذلك. فهذا ما أبرزه النظر القاصر، والفكر الفاتر، والسلام، فقال سيدنا النقيب عند تأمله وإمعان النظر فيه : أما دفع إيراد تشتيت الضمائر الذي هو من المخلات بالفصاحة بالقياس على قول البحتري(321)

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانحي وضلوعي

فذلك قياس مع الفارق، وبيانه أن الطريقة الثانية التي أوتي بالبيت شاهدا عليها هي طريقة الشيخ بدر الدين بن جمال الدين بن مالك(322) رحمه الله تعالى في المصباح، وهي أن الإستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، ثم يأتي بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر المعنى الآخر، ثم إن اللفظين قد يكونا متأخرين عن اللفظ المشترك، وقد يكونا متقدمين، وقد يكون اللفظ المشترك متوسطا بينهما، والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد، وهو استعمال المعنيين، وأين هذا مما كلامنا فيه؟ إهـ.. أما المعارضة فلا نقول أنها بين الحديثين، وإنما هي بين حديث لم يكن بأرض قومي إلخ... مع قول المادح : ألفته ضبابها والظباء، وهي لازالت قائمة على ساق لم يكد يدفعها ما سطر في هذه الأوراق، ونحن أيضا كالشيخ بنيس لا نبنيها على وقوع القضية المشار إليها بمكة حتى تزول المعارضة بما قررتم.

ومن الجلي الذي لا يرتاب فيه اثنان أنه لا يلزم من وقوعها بغير مكة كون الضباب ليست بمكة، ولولا أن الشيخ بنيس ثبت لديه وجود الضب بمكة ما احتاج إلى تقدير المتعلق مأكولا، وعليه فيكون حافظا، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ، ولاشك أن رواية : هذا لحم لم آكله قط، ورواية : ولكنه ليس من طعامي، كادتا أن تكونا صريحتين فيما أول به الشيخ بنيس، على أننا أخبرنا من الثقاة بوجود الضباب بمكة، وعليه فيتعين تأويل الحديث قطعا.

---

(321) الوليد بن عبيد بن يحي الطائي البحتري، من خيرا شعراᶜ العرب، ولد عام 206 هـ، وتوفي عام 284 هـ، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناᶜ عᵀرهم، المتنبي، وأبو تمام، والبحتري، وقيل لأبي العلاᶜ المعري : أي الثلاثة أشعرᵖ فقال المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري، أنظر ترجمته في وفياK الأعيان لᶇابن خلكان ج 2 ص 175، وفي الأعلام للᶎركلي ج8 ص121، وفي معاهد التنᵀيص للعباسي ج1 ص 234.

(322) بدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن مالᶇ الطائي، نحوي مشᶇهور، وهو ابن ناظم الألفية، في علم النحو، ولد بدمشᵏ، وبᶇها توفي عام 686 هـ، من مᵀنᵀاته : المᵀباθ، في علمي المعاني والبيان، وشرθ ألفية والده المشᶇهورا في علم النحو، وشرθ لᶇامية الأفعال، وروᵘ الأᴿهان، في علم المعاني، وغير ᴿᴉᴉ من التᵀاليف الأخرᵃ.
انظر ترجمته في النجوم الᶎاهرا لᶇابن تغري بردي ج7 ص 383، وفي بغية الوعاا للسيوطي ص96، وفي شᴿراK الᴿهب لᶇابن العماد ج5 ص398، وفي الأعلام للᶎركلي ج7 ص 31، وفي معجم المطبوعاK لسركيس 234.

ثم كتب لنا بعد ذلك صاحب الترجمة رعاه الله ما نصه : قال الأبي(323) قال القرطبي : الضب جرذون كبير يكون بالصحراء، ثم قال: ولكنه لم يكن بأرض قومي: يعني بأرض قومه مكة، وقيل : إنه موجود بمكة، لكنه قليل ولا يأكلونه، ثم قال : دعانا عروس بالمدينة فقرب إلينا ثلاثة عشر ضبا إلخ ... عياض(324) : هذا دليل على أن أكله كان معروفا مشهورا عندهم، صح منه، وقد اقترح علي استعمال قصيدة في مدح الحضرة الإدريسية بزرهون، فأنشأت هذه الأبيات في مدح ذلك الطالع الميمون :

سر بي لأهل الفضل من زرهون	واقصد مقام الطالع الميمون
شمس البلاد وفاتح الغرب الذي	وافى لهم بالجوهر المكنون
وافى لهم بالفتح فانكشفت به	غمم ووفى بالهدى المسنون
مولاي إدريس بن عبد الله من	شهدت له بالفضل أهل الدين
أما العداة فقد أصيبوا كلهم	بسهام ذل منه بعد جنون
فمحبه وعدوه قد أصبحا	كل به في دهشة المفتون
أما المحب فقد سباه جماله	وعدوه قد صار رهن الهون
فانظر لذاك فإنه نال الرضى	وانظر لذا فهلاكه في الحين
إن الرضى إدريس قد فاق السوى	في الفضل والعرفان والتمكين
ما أمه ذو حاجة إلا غدا	بمناه في المحيا وبعد منون
لم يخش سوءا من يحل حماه من	بين الورى ويرى قرير عيون
فمقامه كمقام إبراهيم من	قد حله يكفيه كل مئون
فاقصده فيما تبتغيه تناله	وتصير مأمونا رفيع شؤون
وقل السلام عليك يا ابن المصطفى	فبجاهك العالي تزول شجوني
والله أسأل أن يحفك بالرضى	وبفضله يعلو منار الدين

ترجمة مؤذن الضريح الإدريسي

ومنهم الشريف المنيف البركة، المنبسط بالمباسطة التي هي لكل قلب رقيق محركة، مؤذن الضريح الإدريسي، الفقيه الأجل سيدي محمد بن عبد الهادي العلوي، وهو من المحبين في الطريقة، وله باع عريض في علم التوقيت والحساب والفرائض. وقد تذاكرنا في مسائل فقهية وحسابية، منها : هل الواحد عدد أولا ؟ وقد سلكت معه مسلك من يقول : إنه عدد لكون حد العدد يصدق عليه، وهو نصف مجموع حاشيتيه العليا والسفلى، مثل الثلاثة فهي نصف الستة التي هي

---

(323) محمد بن خلفة بن عمر الأبي الوشتاتي المالكي، من حفاظ الحديث، له من التآليف : إكمال إكمال المعلم لفوائد كتاب مسلم، في سبعة أجزاء، في شرح صحيح الإمام مسلم، جمع فيه بين المازري وعياض والقرطبي والنووي من كلام شيخه ابن عرفة، وكانت وفاته رحمه الله عام 827 هـ بتونس، أنظر ترجمته في البدر الطالع للشوكاني ج 2 ص 169، وفي شجرة النور الزكية لمخلوف ص 244 رقم الترجمة 874، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 296 رقم الترجمة 664، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 115.

(324) إشارة للعالم الجليل أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي، وقد سبق التعريف به في ج 1 ص 91 من هذا المجموع.

مجموع الأربعة والإثنين، الذين هما الحاشيتان، وكذلك الواحد نصف مجموع حاشيتي كسره، مثل النصف فهو حاشية سفلى للواحد، والحاشية العليا واحد ونصف، ومجموعهما اثنان، ونصفهما واحد، وهو عدد بهذا الاعتبار. وقد سألني عن بعض مسائل الخنثى، فأجبته بما هو منصوص لديهم في ذلك، وأوقفته على الأرجوزة التي نظمتها في الخنثى، ونصها :

يا طالبا أقسام حكم الخنثى ... وهي بفرجي ذكر وأنثى
فاسمع لما أمليه من أقسام ... ومن علامات ومن أحكام
يتضح الخنثى من الأشكال ... بعشر أشياء بلا إشكال
ببوله من أحد الفرجين أو ... كثرته أو سبقه فيما حكوا
والحيض مع ولادة مني ... كذا نبات لحية أو ثدي
وشهوة منه على المعتاد ... ومثله الأضلاع بالتعداد
وإن يبل من جهتين أنثى ... فنصف حظي ذكر وأنثى
وخمس أقسام أتت لخنثى ... ذات الذكورة وذات الأنثى
تأخذ نصف حظ كلتا الحالتين ... فيما إذا اختلف إرث الجهتين
وإن ترث من جهة ومنعت ... من جهة بنصف إرث قنعت
وإن تساوى الإرث في الحالين ... فإرثها يكمل دون مين
وعندهم ما دام خنثى مشكلا ... منع مناكحته بين الملا
فإن يلد من بطنه وظهره ... فإنه يرث مثل غيره
فهو يرى أبا لنسل صلبه ... وأم من ببطنه فانتبه
وإن يمت فالمال للأولاد ... بالإرث مطلقا على المعتاد
وبين من من بطنه وظهره ... يمتنع الميراث حقا فادره
ولا نكاح بينهم ولا ولا ... وعتقه يرى عليهم مسجلا
وإن بوطئه لنفسه ولد ... فحكم الأولاد أشقا اطرد
ومعلن بتركه التكلما ... مع الذكور والإناث قسما
بحيث إن كلم خنثى مشكلا ... كما عليه نص بعض الفضلا
ويدخل الأنثى على ما ذكرا ... بعض الشيوخ للجنان ذكرا
وجازت الأضحى بخنثى مشكل ... من غنم وبقر وإبل

وقد أنشدته لغز الشريف العلوي مولاي عبد السلام المحب(325) الأديب اللغوي

يا فرد في علم الفرا ئض قد غدا من دون ثان
ما ذا تقول حفظت في أخوين لا يتوارثان
مع أنه لا منع مو جود عن التوريث ثان
فأجب بحل المشكلا ت ألذ من نغم المثاني

ومحصل اللغز : أخوان لا يتوارثان، مع أنهما لا مانع موجود من موانع الإرث بينهما، والجواب خنثى وطئ امرأة فأولدها، ووطئه ذكر فأولده، فالولدان أخوان لا يتوارثان، وفي ذلك قلت مجيبا :

يا حائزا قصب السبا ق لنظم ياقوت المعاني
ألغزت في خنثى له ولدان لا يثوارثان
فلواحد أما غدا وأبا لآخر بالبيان
من مات من هذين لا ميراث منه يرى لثان
هذا جوابي وهو من خزف ونظمك من جمان
فاقبله يا بدر العلا لازلت تحظى بالأمان

ومما ذكره لنا أن الديك من الدجاج إذا رأى في المحل الذي هو به من يقوم في الفجر، فإنه إذا حضر الوقت ولم يقم يأتي إلى بابه ويصير يصوت، كأنه مؤذن، وقد جرب ذلك مرارا، كما أنه يراه في وقت الفجر يؤذن بصوته اثنى عشر مرة، وكذلك عند الزوال، وأما ما بينهما فلا يعدها عدا، بل يصوت من غير تتابع.

ترجمة سيدي محمد بن الوافي بن عمر الزعيمي

ومنهم البركة الأشيب، الشريف سيدي محمد بن الوافي بن عمر الزعيمي الحسيني الزرهوني، وهو من الفقراء التجانيين، أخبرني أن والده قد أخذ الطريقة مباشرة عن سيدنا رضي الله عنه، وقد كاد أن يطير فرحا برؤية سيدنا محمود، وحمد الله على ذلك.

---

(325) مولاي عبد السلام المحب العلوي، أديب، شاعر، فقيه جليل، ولد بمدينة فاس، وبها أخذ العلم عن جماعة من أعيان العلماء، فبرع نجمه في علوم وفنون كثيرا، وتولى الكتابة مدا على عهد السلطانين المولى عبد العزيز وأخيه المولى عبد الحفيظ، ومن مؤلفاته : مقامتان على طريقة المقامات الحريرية، وكانت وفاته رحمه الله في أوائل شهر شوال عام 1331هـ، ورثاه الأديب الكاتب محمد غريط بقوله مطلعها :

نغالط بالآمال والحكم واجب ونستوهب الأيام المال والعمر الهب
ولولا أمانينا وحجب نفوسنا عن الغيب ما لاح لدينا مشارب

أنظر ترجمة في فوات الجمان لمحمد غريط ص 224-306، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 7.

وأنشدني فيه متمثلا بهذه الأبيات في مدح سيدنا القطب التجاني، من إنشاء البركة الأفضل، الشريف سيدي أحمد السفياني(326) رحمه الله، تلقاها منه مشافهة، وهي وإن لم تكن على طريقة العروض، فلا بأس بذكرها، ونصها :

وجب الشكر علينا	في مساء وصباح
أشرقت شمسه فينا	كالشموس في الضواح
يراها من كان منا	سالم العقل وصاح
تجاني فضل علينا	دليل للخير لاح
قال إن تلزم حمانا	تقطف زهر البطاح
فلتكن تطلب رضانا	ففيه كل النجاح
فوق ما تظن فينا	من كمال الفضل صاح
وجب الشكر علينا	في مساء وصباح

وقد طلب مني أن أبين له كيفية عمل الكحل المنسوب لسيدنا رضي الله عنه، فأفدته بأنه يرمز عليه بأبيضين وأسودين وأحمرين وأزرقين، وتفسير ذلك : شب ونشادر، فإبزار وعود النوار، فحديدة حمراء، وزعفران، فحديدة زرقاء، وزنجار على وزن واحد، بعد الدق الجيد، ويوزن الجميع بالإثمد بعد دقه، ويلث الجميع بماء ليمون، يدق ويجعل في بيضة فارغة، تجعل في الكسكاس حتى يعلم بجفافه، ثم يدق ويستعمل، فإنه يزيل الماء النازل بالعين وغيره من أضراره. وقد ذكر لي صاحب الترجمة أنه لما أخذ طريقة سيدنا رضي الله عنه فرح والده غاية الفرح، وقال له : الآن أنت ولدي حقا، فقد كنت طلبت من الله بجاه الشيخ أن ينعم علي بعشرة أولاد، كلهم يكونون من أصحاب الشيخ رضي الله عنه. قال : وقد استجاب الله دعائه، فقد أخذ إخوته العشرة هذه الطريقة المحمدية.

(326) أبو العباس سيدي أحمد بن المقدم الجليل سيدي الطيب السكياني، كان متكانيا في محبة الشيخ أبي العباس التجاني رضي الله تعالى عنه، وله في مدحه منظوماK عديدا ما بين موsون وملحون، وهو من مواليد مدينة فاس عام 1217هـ، وبها كانK وفاته رحمه الله يوم الثلاثين 2 آخر الخير عام 1286هـ، ودفن بجانب قبر والده بجبل sعدران خارج باب عجيسة إحدى أبواب مدينة فاس، انظر ترجمته في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 185-188، وفي رفع النقاب لنفس العلامة ج 2 ص 249-254، وفي نخبة الاتحاف للفقيه الحجوجي رقم الترجمة 21.

ترجمة مولاي عبد الرحمان العلوي(327)

ومنهم العدل الزكي، النزيه الذكي، الشريف المنيف، أبو زيد مولاي عبد الرحمان بن عمر العلوي، أخو شيخنا العلامة الأجل، القاضي الأفضل المبجل، مولاي عبد السلام بن عمر العلوي(328) نسبا، التجاني طريقة، قد استوطن بزرهون محل مسقط رأسه مع أخيه، إلا أن الثاني استوطن فاسا، تلقى الطريقة عن الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح، رضي الله عنه. ومما أنشدني من حفظه لأديب مكناسة الفقيه الكاتب سيدي محمد بن المعطي المسطاري(329) رحمه الله قوله :

اسق بدر التم جما — به يزداد نشاطا
عله يرنو إذا ما — زاده الوصل اغتباطا
فبه رن المثاني — روقت هذا البساطا

وأنشدني لبعضهم أيضا :

سبحان من قسم الحظو — ظ فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأعشى ثم ذو — بصر وزرقاء اليمامه

وأنشدني من حفظه ناقلا لها من العلوم الفاخرة :

أسير الخطايا عند بابك واقف — على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوبا لم يغب عنك غيبها — ويرجوك فيها فهو راج وخائف
ومن ذا الذي يرجو سواك ويتقي — وما لك في فصل القضاء مخالف
فيا مالكي لا تخزني في صحيفتي — إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما — يصد ذوو الدنيا ويجفو الموالف
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي — أرجي لإتلافي فإني لتالف
وحاشاك يا مولاي تقطع راجيا — على بابك المأمول قبله واقف

---

(327) هو الفقيه العدل الشريف أبو زيد سيدي عبد الرحمان بن عمر بن هاشم بن محمد بن محمد فتحا بن بوبكري بن يوسف بن الحسن بن مولانا علي الشريف العلوي المدغري نسبا، الزرهوني دارا وقرارا ووفاة، وهو من خالص المنتمين للطريقة الأحمدية التجانية، وله فيها محبة كبيرة، وقد أخذها على يد العلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح.

(328) سبق التعريف به في ج 1 ص 25 من هذا المجموع.

(329) محمد بن الأمين السيد المعطي المسطاري المكناسي، فقيه، عدل، موثق، ماهر، فرضي، جليل، أديب، أخذ عن جماعة من أعلام مدينة مكناس، وعمدته فيهم العلامة الشيخ عبد الرحمان بناري، وكانت وفاته رحمه الله في أواسط جمادى الأخيرة عام 1305هـ، ودفن بالجنان روضة الولي الصالح مولاي عبد الله بن أحمد بمكناس، انظر ترجمته في إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 4 ص 268-271.

ترجمة مولاي العربي بن هاشم العلوي

ومنهم خليفة سيدنا النقيب بزرهون، الشريف الأصيل، مولاي العربي بن هاشم العلوي قد لازمنا مدة إقامتنا، ولم يقصر في البرور، وقد أثنى لي عليه سيدنا النقيب، بأنه رجل جد في مصارفته، مشتغل بما يعنيه. وقد تفرست فيه هذا أيضا، مع كونه لا يبالي بنفسه، من استعمال التؤدة والترفه في لباسه، ولا يمتاز بشيء عن أناسه، ولا شك أنه مستحق لما اختاره إليه سيدنا النقيب، من تقديمه على البعيد من أولاد أعمامه والقريب، وما ذاك إلا لحسن تصرفه ومعاملته ساداتنا الشرفاء بالرفق واللين.

ترجمة سيدي محمد بن المامون العلوي

ومنهم الشريف الأصيل، الفاضل الجليل، تحفة الشرفاء، وواسطة عقد الظرفاء، الأنيس المطرب، سيدي محمد بن المامون العلوي الإسماعيلي، من خاصة أصحاب سيدنا رضي الله عنه، وكفاك فيه أنه يعمر جل أوقاته بالتلذذ بذكر مناقب سيدنا رضي الله عنه، مع ما رآه من الكرامات التي يشاهدها في جميع أموره، يقظة ومناما، وقد ذكر لي أنه رأى رؤيا بعدما كان يتراخى عن القيام لصلاة الصبح في وقتها، فرأى قائلا يقول له : إذا أردت أن تكون من أهل (حي على الفلاح) فلازم القيام لصلاة الفجر، فمن ذلك الوقت لازم القيام للصلاة في ذلك الوقت. وهذا الشريف ذو انبساط تام، ما جالس أحدا إلا أدخل عليه السرور، بلطيف حديثه الممزوج بالجد والهزل، الدال على طيب الأعراق والأصل. وله همة عالية، وشيم غالية، زاد الله في معناه آمين.

الخرج من زرهون والتوجه إلى الشراردة

وفي يوم الأحد رابع ذي حجة، خرجنا من زرهون، وقبل ركوبنا استعملت هذين البيتين، بمحضر سيدنا النقيب وجماعة من أعيان ساداتنا الشرفاء العلويين بها، وهما :

أستودع الله زرهونا وساكنها ومن يجاورها وأهل مكناس

والصحب والأهل والإخوان كلهم ومن أحبهم من ساكني فاس

وكان خروج سيدنا محمود في الساعة الخامسة صباحا، ونزل بقصر فرعون مع أهله، بعد ما ضربت له قبة صغيرة، ولما خرجنا في الساعة الثامنة من باب الحجر، ووصلنا للقصر المذكور، بقينا هناك إلى الساعة الحادية عشرة، فركب سيدنا محمود، وركبنا، بعدما استودعنا الفقيه الأديب السيد عمر الربعي ليرجع لفاس، لما حصل له من الضعف عن السفر، وليشتغل بقراءة العلم الشريف في الحضر. وكنت كتبت معه هذه الأبيات ليدفعها إلى أحبائنا من أهل فاس، ونصها :

بأي لسان عن جواي(331) أترجم ومن ولهي(330) أصبحت لا أتكلم
فيعذلني من صار يجهل حالتي ويعذرني من صار للحال يعلم
وكم قد كتمت الشوق والشوق زائد ومن كان مثلي كيف يقدر يكتم
فأشكو إلى المولى زمانا أضر بـي ببعدي عن الأحباب واللـه أعـلـم
فكنت قرير العين حين رأيتهم فأبعدني عنهم قضاء محتم
ولم أرى إلا أن أسلم للـقـضـا عسى باجتماع الشمل أحظى وأغنـم(332)
أأحبابنا يا أهل فاس ومن بها أقام اسألوا لي الله بالقرب يرحم
فما باختياري فرق الدهر بيننا وقلبي لديكم طول عمري مخيم
أظل نهاري في اضطراب مهيج لشوق شوى قلبي وجسمي مكلم
سلوا إن سلوتم(335) أنتم عن محبكم نجوما بأفقي فهي عني تترجم
فتخبركم أني أبيت مناجيا لها في الدجى(333) والشوق في القلب يضرم
وفي كل ليل عند نومي يزيدني سهادا(334) شهودي باهر الحسن منكم
فأشهد ساعات مضت في مجالس بها في مجال الأنس قلبي مغرم
فلست بناس بين ناسي أنسكم ولا أتسلى طول بعدي عنكم
فبالله لا تنسوا محبكم الذي سلامته مهما عليه تسلموا
ودوموا وحفظ الله يشمل جمعكم إلى أن أراكم سالمين فأسلم

ثم إننا سرنا قاصدين الشراردة، ومررنا على عين الشكور، وشاهدنا في طريقنا أثر بناءات قديمة بالحجر المنجور، تشبه أثر بناءات القصر المذكور، وقد تلقتنا بالطريق الأحباب والإخوان، جماعة فجماعة، راكبين على خيولهم المسومة، وكان اليوم خفيف المطر، وكادت الشراردة كلها أن تطير فرحا لقدومنا، إلى أن وصلنا لعين تاسلالت، وبها محل القائد الأسعد، الفاضل الأمجد، السيد المختار بن علي الشرادي الدليمي، وهذه العين من أعذب العيون ماء، ومحلها أطيب هواء، ذكر لنا القائد المذكور أن جميع من مر من الأجانب على طريقها يسقي منها، ويثني عليها، ويصفها بأنه لا يوجد مثلها في العذوبة والخفة في قطر من الأقطار، ويوجهون من يسقى لهم من الأماكن البعيدة من نحو ساعتين. وذكر لنا أيضا أن هذه العين كانت تسمى بعين الصلاة، لكون المولى إدريس رضي الله عنه صلى بها يوم قدومه للمغرب، والله أعلم. وقد تلقانا القائد المذكور مع قبيلته التي كانت تحت حكمه، وقدم هدية لسيدنا محمود فرسا سليمانيا، لطيف الروح، يعشقه الناظر، وقد قابله بالقبول، ودعا له ببلوغ غاية السول.

---

(330) ولهي : من الوله وهو التحير من شدا الوجد
(331) جواي : من الجوة وهو شدا الوجد والعشق
(332) أغنم : أفوح بلا بدل
(333) الدجى : مذكر دياجي وهو الليل المظلم
(334) سهادا : من السهد وهو الأرق
(335) سلوتم : من السلو بمعنى إن حاولتم نسيانه

وقد تلقانا أيضا القائد الأجل، الفاضل المبجل، الفقيه السيد منصور بن البشير الشرادي الدليمي الشنكلي، وهو القائد الآن على قبيلة الشراردة، مع وجهاء قبيلته التي يحكم عليها، ومعه كاتبه الفقيه الأجل، الفاضل المبجل، الشريف سيدي عبد السلام بن محمد بن العربي العمراني، وإيالة هذا القائد هي المعروفة بأولاد دليم، اشتملت على ثلاث عشرة فخذة، ويعبر عنها بالمائة، وهي فخذته الشناكلة، وأولاد شاكر، وأولاد فضيلة، والعناترة، والعطاطفة، وأولاد المرابط، وأولاد ذراع، وأولاد عمر بفخذاتهم الثلاث وهم : أولاد جبارة، وأولاد بوكير، وأولاد يخلف، وأولاد زيان، وأولاد مريم، وأولاد عمار، والسكارنة، ونصف عناترة خنيفرات، وقد جاءت وجهاؤهم وأكابرهم وأقاموا ملاعب الخيل قدام سيدنا محمود، ووراءه حلبة مجلبة، والعيون شاخصة إليه، والكل يتمنى تقبيل يديه ورجليه، إلى أن حططنا الرحال، أمام هؤلاء الرجال، قرب العين المذكور.

ومن جملة من جاء لملاقاتنا، المحب الأسعد، القائد الأمجد، السيد المكي بن المبارك العمري الشرادي، وكان أولا تلقى لسيدنا محمود بزرهون، ونال من دعائه الصالح ما تقر به العيون. وكان نزولنا في الساعة الثانية بعد الزوال، وجاء الإخوان من كل ناحية فرحين بقدوم سيدنا محمود، والمطر مسترسل السيلان منذ شرعنا في المسير إلى أن حططنا المطايا، وبين العشائين ركبنا مع سيدنا محمود وذهبنا لبيت القائد المختار، بعد أن استدعى لديه القائدين المذكورين مع حاشيتهما. وقد أصلح سيدنا محمود ما كان بينهم من التفاقم، وانتفت أضغانهم، بعدما كانوا في تنافر زائد، فسكنت قلوبهم، واطمأنت صدورهم، وقاموا من بين يديه على قلب واحد، يشكر بعضهم بعضا، ويظهرون التسامح فيما مضى، أدام الله ألفتهم.

ثم رجعنا لمحل نزولنا، فبتنا ليلتنا في أمن وأمان، بعد أن فرق القائد منصور العسة على الطرق، للمحافظة لما عسى أن يطرق، ويتفقدها المرة بعد الأخرى بنفسه، وضرب قرب قباب نزولنا قبتين مشيدتين، فكانت العسة يناجي بعضهم بعضا للتيقظ، والأمطار هاطلة، وقد أشفق لحالهم سيدنا محمود، إلا أنه تركهم على ما هم عليه، احتياطا لما يطرأ من الحوادث الليلية، داعيا لهم بأن يبقي المولى عليهم ستره الجميل، ويجازيهم بالثواب الجزيل. وقد أصبح في وجهنا يوم الإثنين، والأمطار هاطلة، والضباب ساتر للأفق، وستر جميع الطرق، وبات معنا سيدنا النقيب، فطابت تلك الليلة بإيناسه. ولما أصبح كتب هذين البيتين :

أستودع الله من في مهجتي ظعنوا لكنهم في سواد القلب قد قطنوا
راحوا بروحي ولكن خلفوا شبحي يصلى بنار الجوى وللحشا طعنوا

وكتب أيضا هذين البيتين :

أودعكم والله يعلم أنني على حبكم طول الزمان مقيم
وأستودع الله الكريم جمالكم وأسأل وصلا بالقلوب يدوم

ورام موادعتنا بعد طلوع النهار ليرجع إلى مكناسة، وقد استعمل هذه الأبيات يخاطبنا بها، معربا عن صدق وداده ومحبته الصادقة في جانبنا، والفضل له على كل حال.

أحمد المرتضى حليف المعالي كوكب العلم في سراة الرجال
حال حالي بعد البعاد ومالي من تسل إذ غيركم ما حلا لي
بان من بينكم هيامي ووجدي فبحق الوداد رقوا لحالي
ما عليكم إذا وصلتم وصلتم قلب صب متيم بالجمال
في هواكم هوى زمان التصابي فارحموه ولو بطيف خيال
عيل صبرا وعلل القلب منه باشتياق على ممر الليالي
قربكم راحة النفوس فجودوا دمتم في الورى بدور كمال

وقد يسر الله إقامته معنا في هذا اليوم الذي ازددنا فيه أنسا بوجوده، نظر الله إليه بعين عنايته، وبسط له موائد فضله وجوده، آمين. وقد كتبت له مجيبا عن أبياته اللطيفة، بهذه القطعة المفروغة في قالب التغزل الذي تستحليه نفسه الشريفة، ونصها :

ما على من غدا أسير الجمال أن يرى يقظانا بطول الليالي
فيناجي النجوم وهي تناجيه إلى أن ينال طيب وصال
فيوافيه من يحب كما شاء ويحظى بسائر الآمال
وإذا ما ادعى المحبة وارتا ح إلى غيره غدا في ضلال
إنما الحب أن تدوم على العهد ولا تلتفت إلى العذال(336)
وترى دائما تراعي ودادا قد عهدناه منك بين الرجال
أيها السيد النقيب ومن في حبه لا أزال رهن خبال(337)
أنت عندي والله ساكن قلبي في حضوري بين الورى وارتحالي
ومرادي بأن تدوم على صدق ودادي لازالت بدر كمال

ولما استقر بنا المجلس بعد القيام، ونوينا المقام في هذا المقام، أخذ القلم بين أنامله، وخمس الأبيات التي أنشدها لنا الرفيق الأسعد، سيدي الحاج محمد دادي في بعض محافله، ونص الجميع :

لي في هواك علامه نفت علي الملامه
فاسقي المحب مدامه يا ظاعنا(338) بسلامه
مصحوبة بكرامه

(336) العذال : أهل الملامة
(337) الخبال : الجنون
(338) ظاعنا : سائرا وراحلا

حركت ساكن حبي ورحت مني بلبي
فاسمح إلي بقرب جددت لوعة قلب
تركته وهيامه(339)

متى بعودك تشفي نحول جسمي بلطف
فما جرى به يكفي خلفت عبرة طرف
يحكي الغمام انسجامه

أججت(340) نيران كربي فهمت من بين صحبي
يا مفردا أنت حسبي أدعو عليك بقلبي
يا رب يسر مرامه

وقد اقترح علي أمنه الله تخميس هذين البيتين، وفيهما من لطيف الوداع ما أوجب جريان دموع العينين، ونصهما مع التخميس :

أيها البدر الذي قلبي معك جل مولى في كمال رفعك
رد لي عقلي الذي قد تبعك ودع الصبر محبا ودعك
شائع من سره ما استودعك

يا حبيبي مثل ما كنت فكن وانظر الحال وبالعود فمن
سرت والعبد لسر لم يصن يقرع السن على أن لم يكن
زاد في تلك الخطا إذ شيعك

ثم قام لوداعنا ليرجع إلى مكناسة، فركب مع أصحابه، فسار وعقلنا طائش معه، وكنا نتمنى أن لو سافر معنا فنجد به أنسا نتسلى به عن الوطن، وينجلي به عنا القنط والشجن. وفي الساعة التاسعة من هذا اليوم، وهو يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة، ركب سيدنا محمود بقصد السفر، وودعه جميع من حضر، ما بين رجال ونساء ونسوان، وشرعنا في المسير والخيل المسومة محتفة من حولنا، وركب لموادعتنا المحب الأجل، القائد سي منصور مع جماعة من وجهاء قبيلته، وسرنا ونساء الدشور يتعرضن لسيدنا محمود بأواني الحليب، مظهرين للفرح بنشر أعلامهم الملونة، إلى أن وصلنا لعين (سند) بتشديد النون، ومنها رجع بعد موادعة سيدنا محمود، ونال من دعائه غاية المقصود، وبقي في رفقتنا القائد المكي العمري، وكنا نمر على طريق ذات انخفاض وصعود، يكاد رائيها أن يجزم بأنه لا يقدر أحد على السلوك بها، عند استرسال المطر، وانخمار طينتها التي صارت مزلقة للأقدام، من وراء وأمام، إلى أن وصلنا إلى الحجر المعروف بالصف، الذي كان يظهر لنا مثل المدينة المبيضة دورها.

(339) هيامه : بمعنى حيره الحب
(340) أججK : أضرمK

ومن هذا المحل رجع القائد المكي المذكور، بعد موادعة سيدنا محمود، وطلبه تجديد الإذن له في الطريقة، فلقنها له مشافهة، مع من حضر معه من الإخوان، ومن هذا المحل دخلنا لباب التيوكة، وهو طريق بين جبلين، يمضي الذاهب إليه من جهتي كدية ساترة لمنفذه، وهو خرق ضيق بين الجبلين، إلى أن أفضى بنا إلى أرض متسعة في فضاء واسع، لا يقف النظر من جهة اليمين إلى جبل، وعن يسار الطريق رأينا عن بعد ضريح الولي الصالح سيدي الحاج العربي العجلي، من إخوان سيدي الزوين المشهور. وقد امتدت قبالتنا الجنات الممتدة على الوادي المعروف عند العامة بوادي رضم، وهناك رأينا المحلة الفرنسية ضاربة قبابها، ولما رأوا كثرة الخيل التي جاءت لملاقاة سيدنا محمود أرسلوا من يأتيهم بالخبر، حتى لا يصل من ذلك فتنة أو ضرر، وقد كانت الخيل في مضمار حلبات رجالها تركض ركضا، وأعلام الأفراح في أيدي نسائهم ترفرف، ويزغردن لإظهار السرور الحاصل لهم.

وقد تلقانا القائد السي الجيلالي بن التهامي الزيداني الشرادي أحد قواد أزغار مع وجهاء قبيلته التي يحكم عليها، وهو من جملة الإخوان، وقد كاد أن يطير فرحا مع إيالته لقدوم سيدنا محمود لأرضهم، والكل يحمد الله على أن من عليهم برؤية وجهه الشريف. وقد جاء بفرس إلى سيدنا محمود هدية، فتلقاه منه بالقبول. وإيالة هذا القائد من قبيلة الشرارة قبيلتان، وهما : زرارة وتكنة، وعليهما يحكم. وقد نزلنا قرب ضريح الولي الصالح سيدي محمد بن أحمد المشهور قرب المقبرة التي هناك، ومحل القائد قبالتنا في الجهة الأخرى من الوادي المذكور.

وقد بات معنا من الذين رافقونا من المحطة الأولى القائد الأسعد السي المختار المتقدم، توجه معنا إلى أن نصل للرباط بحول الله، والمقدم الأجل، الشريف المبجل، ذو الأخلاق المرضية، والنفس الزكية، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله الوكيلي مقدم زاوية كرمت، وقد كان كتب له سيدنا محمود ونحن بمكناسة ليقدم لزرهون، بقصد أن يذهب معنا للرباط، فجاء لزرهون مع جماعة من الإخوان، وصحب معه البهائم التي تحمل الرامة إلى الرباط، ونال من إقبال سيدنا محمود عليه ما حصل له كمال الإنبساط. وقد سألني عن المسافر هل يسوغ له أن يقتدي بالمقيم أولا ؟ فأجبته بقول المختصر (وإن اقتدى مقيم به)(341) أي بالمسافر، فكل على سنته (وكره كعكسه وتأكد وتبعه) إلخ، فحينئذ أنشدني لبعضهم :

إن اقتدى مسافر بحاضر ... أتم حتما معه في الأشهر

ولابن مالك إذا ما تمما ... مع الإمام ركعتين سلما

(341) أنظر مختصر الشيخ خليل بن إسحاق المالكي ص 44.

ورافقنا أيضا المقدم الأمجد، مفتاح الأقفال المغلقة، والمستضيء في هذه الطريقة بالأنوار المشرقة، السيد إبراهيم بن عمر الشرادي الشاكري الملقب بالطويل، وقد كان العارف بالله سيدي العربي العلمي الموساوي(342) إذا كاتبه يطول له طاء الطويل، إشارة لما كان يقوله له من أنه طويل في الدنيا والآخرة. ومما أنشدنيه من حفظه هذه الأبيات لسيدي أحمد محمود(343) في شروط هذه الطريقة الأحمدية، حسبما تلقاها منه، ونصها :

شروط ورد مدد الأكوان	عين الفيوض أحمد التجاني
ترك الزيارة للأولياء	بعد مماتهم مع الأحياء
إتقانك الصلاة في الجماعه	إن أمكنت ونعمت البضاعه
جمعك للغير مع الأوراد	وعدم الترك إلى المعاد
لا بد أن يحافظ المريد	عليه أو يلزمه التجديد
لأنه خرج عن طريق	تاج العلا والجود والتحقيق
يا ويحه من هذه الجساره	ما أطول البكاء والخساره
فكن أخي رجلا مجدا	لرعيها كيما تنال رشدا
لأنها طريقة الولايه	لمن له لوصلها العنايه
ناظمها يرجو من الإخوان	يدعون بالعفو وبالغفران

وقد كنت تلاقيت مع هذا المقدم أول مرة بتطوان أيام إقامتنا بها، جاء لملاقاة الإخوان وصلته رحم الأخوة في الله معهم. وقد تلقى التقديم عن جماعة من المقدمين على ما حدثني بذلك عن نفسه. وفي قرب طلوع فجر يوم الأربعاء قدم لمحل نزولنا قاضي الشبانات، المقدم الأسعد، البركة الأمجد، سيدي العربي بن علي بن الكايسي الشباني، الساكن بالشبانات على طرف وادي رضم، من أولاد بوغدو، وقد كان قدم أولا مع جماعة من الإخوان لزرهون، وزار سيدنا محمودا، ثم رجع لمحله، ولما سمع بقدومه لرضم جاء لملاقاتنا ليذهب معنا إلى المحطة، وجاء بهدية برسم النيابة في الزيارة عن قائد الشبانات القائد إدريس بن الطاهر الشباني. وهذا المقدم من خاصة المقدمين الذين يثني الناس عليهم خيرا، ويصفونه بالخيارة التامة، وذلك يلوح على وجهه

---

(342) سبق التعريف به في ج 2 ص 71 من هذا المجموع.

(343) المقدم البركة التقيه العلامة أبو عبد الله سيدي أحمد محمود بن محمد احنيني بن أحمد بن التضيل، من قرية سيدي موسى بن مولانا إدريس الأزهر باني مدينة فاس، ولد في ضحوا يوم الأحد 2 جمادة الأولى عام 1247هـ، وكانت وفاته رحمه الله في شهر ذي القعدة الحرام عام 1319هـ، ودفن بموطنه بالبحيرة من قبيلة الرحامنة، إحدة القبائل المجاورة لمدينة مراكش، وله في مدح الشيخ التجاني رضي الله تعالى عنه عدة قصائد منها بائية قال في مطلعها :

لقد فاز التجاني بكل فخر منايا فيضه لبن حليب

ومنها القصيدة الاستغاثية ويقول في مطلعها :

يا شيخنا يا شيخنا التجاني يا شيخنا يا واضح البرهان

وهو من المقدمين البارزين في الطريقة الأحمدية التجانية، أخذ أولا عن العلامة العارف بالله سيدي محمد بن محمد الصغير العلوي الشنجيطي المعروف بابن انبوجة، ثم أجازه فيها بعد وفاته جماعة من أكابر فرسان هذا الشان، منهم لسان الطريقة العلامة سيدي محمد بن أحمد أكنسوس، والولي الصالح العلامة سيدي محمد العربي بن الساح، وغيرون.

انظر ترجمته في فتح المنان العلام للتقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 115، وفي نخبة الاتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 341.

المنور، مع السكينة والوقار، الرافل في حللهما، زيادة على ما يعتريه من الخجل والحياء عندما يخاطبه الغير، فتراه ساكتا، والنور يلوح عليه، وتراه ساكنا، والسبحة من كثير الأذكار تدور بين يديه، وقد ظل يوم الأربعاء مقيما معنا في هذه المحطة، حيث أننا أقمنا ننتظر استراحة سيدنا محمود من التعب الحاصل له من شدة ازدحام الأحباب والإخوان لزيارته، مع المشقة التي اعترته من بغلته الميمونة التي يركبها من سرعة سيرها، وطول المسافة، وقد أضر به الإعياء حتى أحس بنزول أمعائه، وهاجت عليه الصفراء، فتقيأ المرة بعد المرة، فاستراح بعد ذلك من ثقل معدته، فنرجو من الله دوام شفائه، وزوال علته، ثم إننا أقمنا هذا اليوم بهذا البساط الفسيح، الذي يحصل به الإنبساط الذي به النفوس تستريح.

وقد ذكروا لنا أن زرع هذه القبيلة المعروفة بأزغار يباع في الأسواق قبل بيع غيره لجودته، وأرضها يحصل فيها للمارين التلف والذهول، ولا يعرفون الخروج منها بعد الدخول، إلا لمن عرف الطريق معرفة تامة، حتى أن منهم من يبيت سائرا فإذا أصبح وجد نفسه رجع إلى المحل الذي سار منه. وقد بتنا في أمان الله وحفظه نتذاكر في آداب الطريقة، وما ينبغي للمقدمين الإتصاف به، وما يتعين على المريدين مراعاته في حق المقدمين، بأن ينظروا إليهم بعين التعظيم والإحترام، وأن لا يخالفونهم في الأمور التي يعود عليهم نفعها في العاجل والآجل، إلا ما كان يرجع لمصلحة نفس المقدم الآمر بذلك، مما يستبد به من مالهم، ويكون فيه كلفة أو مشقة للمريد في امتثاله، فلا لوم حينئذ إلا على المقدم الذي هو في هذا المحل مؤخر بسبب طمعه، وتشوفه لما في يد إخوانه، وما كان من حقه إلا أن يكون كأحد المريدين، من غير أن ينظر لنفسه بخصوصية، وهي مما يوجب نفور الإخوان عنه، خصوصا إذا كان يترأس عليهم، ويريد أن يكون كالحاكم عليهم، ويظهر الغلظة في قوله، والتعنت في فعله، كما يفعل ذلك غالب الجهلة من المقدمين الذين حقهم التأخير، والحاصل أن المقدم لا يطمع فيما في يد الإخوان، ولا يترأس على أحد أيا كان، ولا يلزمهم ما هو خارج عن الطريقة، وإلا لزمه أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويتوب إلى الله مما صدر منه، لكونه ارتفع عنه الإذن، كما نص عليه الشيخ وورد عنه.

وكانت هذه المذاكرة بحضور بعض الإخوان، والمقدم ابن الكايسي، والمقدم ابن عبد الله، والمقدم السيد إبراهيم الطويل، لما رأيناه في أحوال البعض مع البعض من التفاقم، أصلح الله الأحوال. وفي هذه الليلة سألني المقدم ابن عبد الله عن الضب، هل صحيح ما يقال بأنه يبول قطرة في السنة ؟ فأجبته بأننا نسمع هذا لكونه لا يشرب، ولذلك يقال : فلان بينه وبين فلان ما بين الضب والنون، والضب حيوان يصطاد في الصحاري، قيل : إنه مكروه الأكل. لقوله (ﷺ) "لم يكن بأرض قومي فتجدني أعافه" فمقتضى قوله "أعافه" أنه لا يؤكل، ومقتضى سكوته (ﷺ) وهم يأكلونه جواز أكله. ثم ذكرت له بأني استنبطت من هذا الحديث أشياء، ويقبل الزيادة عليها لمن يريد تتبعها : أولها جواز أكل الضب. ثانيها جواز الأكل بحضور الرئيس. ثالثها جواز أكل الجماعة بمحضر من لا يأكل معهم. ورابعها جواز جلوس من لا يأكل مع الآكلين. خامسها جواز سؤالهم عن سبب عدم الأكل. سادسها جواز تصريحه لهم بأنه يعاف شيئا وهم يأكلونه، لكن إذا سئل عن السبب. سابعها جواز صيد الحيوان البري. وهذه وإن كانت ظاهرة، لكن لا بأس بذكرها في هذا المحل.

ثم إننا أقمنا يوم الخميس بهذه المحطة، زيادة في استراحة سيدنا محمود. وفي القرب منا أقيم سوق الخميس الذي تجعل عمارته بسوق قصبة سيدي قاسم، وهاتان القصبتان بهما مباني عديدة، ويسكن إحداهما البخارى، والقصبة الثانية بها تقام الجمعة في جامع ضريح الولي الصالح سيدي قاسم أبو عسرية(344) الذي تشد الرحال لزيارته، خصوصا الطائفة القاسمية المشهورة بفاس، فإنهم يشدون إليه الرحلة منها، ومن كل ناحية في العيد النبوي من كل سنة. وفي هذا اليوم أنشدني الرفيق الأسعد سيدي الحاج محمد دادي من حفظه عندما رأى هذه الأبيات المتوجة بحروف أمته زهوة التي شغف بها، وكنت استعملتها مباسطا له بها :

زهوت لما رأيت وجهك الحسن — زهو من زهوة سبته في علن
هويتها وهي في حجابها فغدت — هوج نفسي بها تزداد بالشجن
ولا شفيق علي من هواي بها — ولا أراها ولو في النوم ترحمني
هلاك نفسي بها من وقت نظرتها — تبت يدا عاذل فيها يعنفني

فتنهد لفرقتها، وأخذ القلم في يده وكتب :

يا من تعاظم حتى رق معناه — ولا تردى رداء الكبر إلا هو
تاهت بحبك أقوام وأنت لهم — نعم الحبيب وإن صاموا وإن تاهوا

وأنشدني أيضا أمنه الله :

أيا من زكا أصلا وأنقى ولادة — وأثمر غصنا يانعا وزكا جنسا
أذكرك الوعد الذي سمحت به — محاسنك الحسنى وحاشاك أن تنسى

وقد كان بزهوته زاهيا، وبإيناسه بها عن غيرها ساليا، ومن يوم خروجنا من فاس، إلى أن وصلنا لمكناس، وهو مشغوف بها، فاتفق من المقادير أن مرضت مرضا خفيفا، فكتبت له هذين البيتين :

(344) الولي الصالح سيدي أبي قاسم بن أحمد بن عيسى بن عبد الكريم السكياني، يلقب عند أصحابه وغيرهم بالعربي عسرية، لأنه كان يعمل بشماله، وكانت وفاته رحمه الله بالحرة عند طلوع فجر يوم الثلاثين 28 رجب الفرد الحرام عام 1077هـ، ولم يتزوج ولم يكن له عقب، ثم نقلوه خفية إلى وادي الرمضم، ودفنوه هنالك وبنوا عليه قبة، وقبره بها إلى الآن مزارا عظيمة، وله موسم عظيم في كل سنة تفد إليه الوفود والركاب من كل ناحية، أنظر ترجمته في سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 189.

يا حبيبي في خلوتي وبجلوه زادك الله بهجة وفتوه
نسأل الله أن يزيدك عزا ويداوي عزيزة النفس زهوه

ثم إنه رام شراء أمة بمكناسه، يستحلي بها أضراسه، فكتبت له هذه الأبيات :

بالله بالله لا تغيرن زهوه لفرط غيرتها عليك في النسوه
فإن رأتك أتيت بالسوى مرضت من أجل ما يعتريها منك بالصبوه
أما تراها مطيعة لأمرك في ما رمته دائما ولو بلا دعوه
ترضيك في كل ما ترضاه دون عنا في جلوة في جميع الناس أو خلوه
ومثلها لا تراه في الإماء ولا بين النسا فلتكن تحذر من الجفوه
وها أنا لك قد أشفقت فاسع لها بجبر خاطرها وبي اتخذ أسوه
ومتع النفس في جمال طلعتها واترك سواها وكن عبدا لدى زهوه

وكان وجه أخاه سيدي محمدا لفاس لقضاء بعض أغراض سيدنا محمود رضي الله عنه، فقدم ليلة استعمالي للآبيات المذكورة، وجاء معه بأمة، فبمجرد دخوله لمحل النزول أمره سيدنا محمود رضي الله عنه بإخراجها مع زهوة، ولم يفده إلا امتثال أمره الذي لا يقدر على مخالفته بحال، مع أنه لو وجد إبقاءها معه بدون تغيير خاطر سيدنا محمود لأنفق في ذلك ما يكسبه من المال، لشدة شغفه بها، ولم يقبل سيدنا محمود منه إلا إخراجها في الحين، وتوجيهها لفاس لتباع هناك، ففارقها، وعقله معها، وعلم أن الخير في ذلك، وأنشد فيها هذه الأبيات المتقدمة :

يا ظاعنا(346) بسلامه مصحوبة بكرامه
جـــددت لـوعـــة قـلـــب تـركـتـــــه وهـيـامـــــه(345)
خلفت عبرة(348) طرف يحكي الغمام انسجامه(347)
أدعو عليك بقلبي يا رب يسر مرامه

فقلت في هذه الحالة :

آه لفرقة زهوة ذات الجمال الباهر
فـارقـتـهـــا كـرهـــا ولـــم تـلـك بـعـدهـــا بـالـصـائـــــر
لله ما أعطى وما هو آخذ في الغابر
فعسى يكون الخير في تغيير ذاك الخاطر
لا شك أن الخير في هذا لأفضل شاكر

وقد رزقه الله الصبر الجميل من فراقها، وتحققت بامتثاله لأمر سيدنا محمود أنه صادق الحب في الجناب الأحمدي، ولاشك في ذلك، فإنه المحب الذي لا يملك شيئا مع هذا الجانب

---

(345) هيامه : تحيره من شدا العشق
(346) ظاعنا : بمعنى سار ورحل
(347) انسجامه : انهمابه
(348) عبرا : مجرد عبرة وهي الدموع

الأسعد، ويسعى بقدر الإمكان في رضاء صاحب هذا المقام، ولا يخشى في إنفاق نفسه وماله بين الأحباب أحدا. وناهيك بهذا الصهر المبارك، وما اتصف به من مكارم الأخلاق، مع المحبة الصادقة. ويكفي فيما قلناه رسالة سيدنا ومولانا محمد البشير التي وجهها لفقراء زاوية فاس في إعلامهم بتوجهه مع سيدنا محمود رضي الله عنه، ويذلك أيضا على صدق محبته تركه لجميع أموره من تجارة وغيرها، وارتحاله عن أهله، مع خدمته التي لا يقدر عليها إلا مثله ممن شربوا المحبة من ثدي أمهاتهم في هذا الجناب، وأراد المولى بهم السعادة بلا شك ولا ارتياب.

وقد انجر بنا في هذا المحل الكلام على طرف من ترجمة هذا الرفيق الأسعد، لما رأيناه فيه من صدق الخدمة التي شاهدناها بالمخالطة معه في هذه الرحلة المحمودية، بحيث لم يبق لنا شك في كونه من المريدين الصادقين الذين لا تأخذهم لومة لائم في صدق الخدمة، وهنيئا له بذلك، وقد قدمنا طرفا من ترجمته، ونقلنا عنه في غير محل بعض الأدبيات، ولازلنا ننقل عنه إلى أن نرجع بحول الله بسلامة، سائلا من المولى أن يحفظ جمعنا ذهابا وإيابا، وأن يوفقنا لما فيه رضا المولى آمين. وقد كنت استعملت أبياتا لما كنا بالمهدومة، وأظهر لي أمته زهوة، فقلت فيها مداعبا له على نوع من التشبيت فيها :

خليلي إني قد تركت الهوى دهرا ... وأعرضت عن أهل الهوى زمنا مرا
وأصبحت خالي البال لا يستفزني(351) ... إلى صبوة(349) شوق لبكر ولا عذرا
فما لي هذا اليوم قد هزني الهوى ... أمن زهوة هذا الجوى جاءني قهرا
نعم إنها والله شمس زمانها ... بها فتنة العشاق حيث بدت حورا
تريك إذا أبصرتها الشمس في الدجى ... تبدت ولكن أسبلت(350) عفة سترا
فلست ترى منها من أجل جلالها ... بسيدها دادي محيا بدا بدرا
عليها جلال منه قد حفها به ... فأضحت به في رتبة فاقت البدرا
يباهي بها مما حوته من البها ... وأضحت به أيضا تباهي الورى شكرا
وأضحى بها بين الرجال متيما ... وكان لها مولى بها لم يجد صبرا
فعـــذرا لـه ممـــا رآه لأنهـــا ... فريـدة حسـن لا نـزال لـه أســـرا
بلاني بها لما أماط خمارها ... وقال لها أعطيه من خمرك السكرا
فقامت إلي كي تسلم وهي في ... تدللها والجفن منها قد افترا
فكدت بها عني أغيب بنظرة ... على النفس مني صرت أشفق من أخرى
فقلت له والقلب يخفق بالجوى ... جلبت الردى لي من حبيبتك الغرا
فمالك قد عذبتني في الورى بها ... ومن قبلها قد كنت في راحة كبرى
تمتع بها والله يرعاك في العلا ... ويحفظها حتى تسر بها دهرا

---

(349) الصبوا : الولا والعشق
(350) أسبلK : أرخK
(351) يستفزني : يزعجني ويستخف بي

وقد زاحمني في التغزل فيها سيدنا النقيب، فقال على طريق التتويج :

زر محبا يرجو دوام رضاك　　زادك الله رفعة ووقاك
هان في حبكم هوانه(353) لما　　هام وجدا بكم وزاد انهماك(352)
وارتدى مرضعا رداء هواكم　　ومن الحب لا يريد انفكاك
هذه حالتي فجد لي بوصل　　هاج شوقي إلى بديع سناك

وقال أمنه الله :

زدت وجـدا ولـوعـة وغـرامـا　　وهيـامـا بزهـوة واضـطـرامـا
هاج شوقي لدى استماع بديع الـوصـف من حسنها وذقت الحماما(354)
وهوى في الهوى فؤادي ومالي　　من تسل ولو أطلت الملاما
تلف النفس في سلوي عنها　　فعلام الملام قل لي على ما

النزول بالدوار المعروف بتجينة

وفي الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة تاسع ذي الحجة الحرام ارتحلنا من هذه المحطة قاصدين النزول بالدوار المعروف بتجينة، فسرنا مع الوادي على بساط بسيط يعجب الناظر، ويشفي الخاطر، بما اكتسى به من الحلة الخضراء، وكلما مررنا بمحل تلقانا أهله بأعلام الفرح لمرور سيدنا محمود على أماكنهم، والكل يعتقد أن الآمان قد حل بأراضيهم بحلوله بها. وقد مررنا على ضريح الولي الصالح المعروف بسيدي كدار، وبقربه بناءات من مقدار الطين، مهدومة السقف، ذكروا لنا أن المحلة الفرنسية كانت هناك مقيمة إلى أن انتقلت قرب سيدي قاسم، ويقال أن سبب قيامهم انتشار الكوليرة بهم من فساد الهواء، حتى أدى الحال إلى اتخاذ مقبرة، وجعلوا عليها علامة، وأحاطوها بأوتاد، وهذا المحل الذي به مدفن هذا الولي الصالح هو حد الشراردة، وبني حسن، وقد دخلنا لحدهم فرأيناها أرضا بسيطة، لا نرى أمامنا إلا السراب من غير حد يمينا وشمالا، ولا زلنا ذاهبين على ذلك البساط المخضر، حتى وصلنا لتجينة في الساعة الرابعة، فتلقانا مقدم الزاوية بها البركة الخير، السيد إدريس بن المقدم البركة سيدي محمد بن الجيلالي الحسناوي التجيني، بعدما كان قدم لملاقاة سيدنا محمود، ونحن بالشراردة، وتقدم أمامنا لمحل النزول، وما قصر من الفرح والسرور، ومعه جميع الإخوان القاطنين بتجينة. وقد تلقى التقديم عن المقدم سلطان المقدمين سيدي محمد بن العلوي.

(352) انظر المعجم : بمعنى جد فيه ولج
(353) هوانه : ضعفه
(354) الحمام : الموت والهلاك

وقد ارتدى المقدم المذكور برداء الحياء، فلا يرفع رأسه عند مخاطبته لما فيه من الحياء، الذي كساه نورا، فهو لين الجناب، خافض الجناح لكل من اجتمع به من الإخوان، وهو تجيني الأصل، تجاني الطريقة، ذو وجد واجتهاد. وتجينة المذكورة موقعها في بساط متسع جدا، وأرضها دائما ناعمة صيفا وشتاء، لمجاورتها للمرجة المشهورة بمرجة ابني حسن، وهذه المرجة اتسعت جدا بانتشار وادي رضم بها، وفيها وحوش برية متوحشة من خنازير وغيرها. وفي صباح يوم السبت، وهو يوم عيد الأضحى، أصبح البارود يسمع من نواحي تجينة إعلاما بالعيد السعيد، وزادهم فرحا نزول سيدنا محمود بين ظهرانيهم في هذه الليلة السعيدة، التي ازدهرت بالأنوار، وانجلت عنا فيها الأكدار، بكمال السرور بعافية سيدنا محمود مما كان ألم به، وقد قلت في تهنئته بهذا العيد، وتهنئة صهره السعيد :

نهنيك يا مولاي محمود بالعيد فلازلت في حفظ الإله بتأييد
فقد أسعد الرحمان أيامك التي بها الدهر أضحى في الهنا دون ترديد
فنحمد مولانا الذي بشفاك قد شفانا به من بعد خوف وتنكيد
فأنت لنا كالروح في الجسم قد سرت سلامتنا مادام دهرك كالعيد
وإنا نهني صهرك المرتضى به محل الرضا دادي المحوط بتسديد
فإنا عهدنا فيه صدق مودة بها نال من مولاه خيرا بتأييد
فلا زال يرقى في المعالي مؤيدا بتوفيق من أولاك أكمل تمجيد

وكتب لنا الرفيق الأسعد، سيدي الحاج محمد دادي هذين البيتين من حفظه :

العيد وافى بابتسام يهدي التهاني للإمام
فاهنأ به واسعد ودم لنظيره في كل عام

فكتبت له :

العيد جاءك بالأماني والعبد جاءك للتهاني
فاسعد به بين الورى ملحوظ قدر في أمان

وكتبت له أيضا هذه الآبيات :

أهنيك يا دادي بنيل المراد على رغم أنف المعتدي والأعادي
نرى لك فضلا قد علوت به على سواك بما أسديتـه من أياد
فقد نلت في حب التجاني محبة صفت من جميع الغش بين العباد
فمن لم يسر في الحب سيرك دائما فقد ضل عن نهج الهدى والرشاد
ومن لم يشاهد فيك ما قد شهدته يظل مدى أيامه في نكاد
وقد جاءنا العيد المبارك معلنا بتهنية فاهنأ به في رشاد

الخروج لرؤية المرجة التي في دوار تجينة

وفي الساعة التاسعة ركب سيدنا محمود وركبنا بقصد رؤية المرجة المذكورة، فلما قربنا منها رأينا عن بعد اثني عشر فرسا بها متوحشة، ففرت هاربة أمامنا، وتقف تارة ثم تنفر أخرى، وتجتمع ثم تفترق ثم تجتمع، وهكذا إلى أن وصلنا لطرفها من جهة وادي رضم المنبسط على وجه أرضها، وقد افترقت ضاياتها، وامتدت مساحتها، حتى تكون في الشتاء ضاية واحدة، وتزداد اتساعا حتى أن طولها يبلغ مسيرة نحو اثني عشرة ساعة، وعرضها يقرب من ذلك، ولا يقدر أحد أن يقطعها لما فيها من المقاطع والخنادق البالغة. وقد ذكروا لنا أن بعض محلات المولى الحسن رحمه الله حصل لها الغرق بها بعدتها وعددها من خيل ورجال ومدافع، ولم يجدوا من ينقذهم من ذلك ولا من عنهم يدافع، حين أحاطت بهم قبيلة بني حسن في بعض حركاته لهم في أول نصره.

وهذه الضاية بها وحوش كثيرة، ودواب متوحشة، من خيل وبغال وبقر، من أيام المولى عبد الرحمان، وإذا احتاج المخزن إلى فرس من تلك الخيل نصبوا لها الحبال، وأحاطت بها الرجال، إلى أن يقبضوا إحدى تلك الخيول، وتجعل وسط الإنسية أياما، ثم توجه للأعتاب المخزنية.

ثم رجعنا لمحل النزول إلى قرب الساعة الثانية عشرة، فارتحلنا عن هذه المحطة. وقطعنا وادي رضم، وسرنا على بساط أراضي بني حسن التي انبسطت انبساطا يملأ العيون، ويسلي القلب المحزون، إلا أنه لا حرث بتلك الأراضي ولا غرس، إلا فيما قل منها، ويا للآسف على ضياع مثل هذه الأراضي الناعمة، فلو وجدت من يقوم بعمارتها حرثا وغرسا فإنها تكون جنة الدنيا بالنعم التي تخرج منها للفلاحين، وتكون متجرة يتسارع إليها جميع الغراسين والحراثين. وكأني انظر للمستقبل وقد امتدت السكك الحديدية بها، والأرض مخضرة بالدوالي المنبسطة، والأشجار المصطفة، على الطريق يمينا وشمالا، حتى تصبح الأرض يانعة، تجبي إليها الخيرات وتقتنى منها، ويضرب بها المثل بين الأراضي فيما يخرج منها، خصوصا إذا انتشر الآمن فيها على الأموال والأنفس من اللصوص.

ولا شك أنه إذا لم يسارع أهل هذا القطر المغربي إلى استعمال مثل هذا فإنه يسبقهم إليه من يقوم بذلك، ويروا حسناتهم في ميزان الغير، ويفوتهم إبان استعمار أراضيهم بمثل هذا الخير. ثم إننا سرنا، والوادي عن يميننا إلى أن بعدنا عنه بمقدار ساعة زمانية، فدخلنا بين دوارين انعطف من ورائهما الوادي المعروف بوادي بهت انعطافا رجع به إلى أمام مسيرتنا، فلوينا العنان وسرنا، وهو عن يسارنا، وذلك المحل يعرف (بالمريفق) لشبهه لمرفق اليد في الإنعطاف، ولا زلنا مجدين في السير، وكلما تراءينا لمحل سكنى سارع أهله لملاقاتنا، وأعلام الأفراح في أيدي نسوانهم منشورة، ومن لم تجد منهن ما تجعله علما أخذت سبنية(355) رأسها وجعلتها على قصبة، وتأتي مع رفقتها، ويزدحمن على المحفة وبغلة سيدنا رضي الله عنه للتبرك بها.

الوصول للمحل المعروف بالدهس

وهكذا إلى أن وصلنا للمحل المعروف بالدهس، فتلقانا الشاب الظريف السيد محمد بن القائد الأمجد السيد محمد الكداري، مع جماعة من إخوانه، وأقاموا ملاعب الخيل أمام سيدنا محمود، ولا زالوا كذلك حتى تلقانا أيضا القائد الكداري المذكور، وهو من أكبر القياد الذين تصلح القبيلة بصلاحه، وتفسد بإشارته، وتنقاد إليه انقياد البهيمة لمن يسوقها بالزمام، وهو في قبيلته كالأمير في رعيته، له العزوة التامة، والصولة العامة، وإيالته التي يحكم عليها اشتملت على فخذات قبيلة كدارة، وقبيلة أكرام المشهورين بأولاد احميد من أعلى قبيلة مختار المشهورين في الطائفة العيساوية بالتجرد عن الثياب في وقت حضرتهم، مع اختلاط النساء بالرجال، ومع ذلك يظهرون خرق العوائد من إطلاق المقعدين المزمنين، مثل ما اشتهرت بذلك قبيلة سحيم المجاورين لهم.

ومن إيالته قبيلة أولاد حساين، وأولاد غياث، وأولاد موسى حساين، والشرفاء أولاد ابن حمادي، والكبارثة، والعثامنة، وزوايا قبيلة مختار، من جملتهم زاوية المخاشيم القاطنين بالجوطة هناك قرب وادي سبو، وبها مدفن سيدي حسون من أولاد المولى إدريس رضي الله عنه، وفيها آثار بناءات قديمة، ومنها فرقة الأعشاش من مختار القاطنين بشاطئ سبو بجوار الغرب، وعندهم بناءات قديمة من رخام وحجر منجور منقوش عليها نقوش كتابات عجيبة. وهناك دفائن يعثر عليها في بعض الأحيان، حتى حدثونا بأنه وجدوا هناك دفينة نحو المدين من السكة الفضية من سكة البردقيز(356)، عليها صور أفيال وطيور ووحوش، مما يتعجب الناظر إليها.

وهذا القائد له محبة في الجناب الأحمدي التجاني، وقد فرح غاية الفرح لقدوم سيدنا محمود، وحمد الله على أن متع طرفه بالنظر إلى وجهه قبل الوفاة، وذلك شأن المحبين الداخلين في الضمان النبوي للشيخ رضي الله عنه، لكونه (ﷺ) ضمن له آخذ الطريقة ووالديه وأولاده والمحب له. ولهذا القائد ولدان باران آخذان للطريقة، مشغوفان بها، ويكرمان الإكرام التام لكل من انتسب إليها إذا حل بكنفهم، أحدهما خليفة والده السي محمد المتقدم الذكر، وثانيهما ذو الأدب الفائق، والتؤدة المرونقة، والسمت الحسن، السي قاسم، جاء من محله بقرب سبو لما سمع بسيدنا محمود وصل إلى المحل النازل به والده القائد الكداري المذكور، وشد الرحلة ليلا ليحظى بزيارته قبل أن يفوته ذلك. وقد بتنا ليلتنا في أمن وأمان، وإكرام زائد في هذا المكان، وحصل لأهل هذه المحطة فرحان كبيران، فرح بعيد الأضحى، وفرح بقدوم سيدنا محمود، فهذا اليوم بلا

---

(355) سبنية : تعبير باللهجة الدارجة المغربية وهو غطاء تضعه المرأة فوق رأسها وتعقد عليه بعقدة أو عقدتين تحت الذقن.
(356) البردقيز : بمعنى دولة البرتغال

شك اجتمع فيه عيدان، والعيد الثالث عندنا شفاء سيدنا محمود مما كان ألم به. وقد أصبح في وجهنا يوم الأحد ثاني عيد الأضحى، والناس في انبساط تام، في هذا البساط، المنوط بالإنعام :

بساط يملأ الأبصار حسنا ويسبي(357) عقل كل الناظرين

أصبح والجو مظلل علينا بمظلة السحاب، ونحن في وسط هذا البساط الذي لا نرى من حوالينا فيه إلا السراب، حتى كأننا في فضاء، والبحر محيط بنا، وفي الحقيقة لا بحر إلا ما ينحصر البصر عنه من اتساع هذه المساحة المستوية أرضها، فسبحان من دحاها. وقد طلب القائد المذكور وأولاده من سيدنا محمود الإقامة عندهم في هذا اليوم، وأقيمت ملاعب الخيل هناك، وكان يوما مشهودا، من كثير الأفراح القائمة على ساق، والخيل المسومة في مضمارها تركض ركضا أمام قبة سيدنا محمود، والبارود يضرب فرحا بقدومه، حتى ملأ الفضاء دخانا، والناس في فرح وسرور. وبعد الزوال ودعنا المقدم البركة سيدي العربي بن الكايسي، وواعدناه بأن نوجه له التقديم من سيدنا محمود مع المقدم سيدي محمد بن عبد الله أمنهما الله عندما يرجع من الرباط، فكتب في هذا المحل بالنيابة عن سيدنا محمود ما نصه :

نص الإجازة المذكورة

بعد البسلمة والصلاة والسلام على سيدنا محمد (ﷺ) : نحمدك اللهم حمد من اعترف بعجزه عن أداء الشكر، ونشكرك شكر من اغترف من بحر كرمك الذي من لم يشكرك عليه تعرض للمكر، ومن شكرك نال منك المزيد، وأنك تحكم ما تشاء وتفعل ما تريد. ونصلي ونسلم على من أقمته برزخا رحمانيا في إيصال النعم للمخلوقات، وأجريتها على يده في سائر الأوقات، سيدنا ومولانا.

محمد سيد الكونين والـثـقـلـيـــــــــن(358) والفريقين من عرب ومن عجم

عليه منك أتم سلام، وعلى آله وأصحابه مدى الدوام، ورضي الله عن القطب المكتوم، والختم المعلوم، من نشرت بين يديه ألوية الولاية، ونال في البداية ما لم يدركه غيره في النهاية، سيدنا ومولانا أحمد التجاني، سقانا الله وجميع المحبين منه بأعظم الأواني. وبعد : فإن سيدنا ومولانا محمود بن سيدنا ومولانا البشير بن سيدنا ومولانا الحبيب بن سيدنا وسندنا العارف الرباني، القطب التجاني، قدس سره، قد أذن في إعطاء الطريقة التجانية، ذات المواهب الربانية، للبركة السيد العربي بن الكايسي، ليلقنها لكل من طلبها منه، ورام أخذها عنه، وذلك بعد التزام شروط أذكارها، ونيل أورادها بأسرارها، إذنا تاما، مطلقا عاما، وإجازة في جميع ما اشتمل عليه كتاب جواهر المعاني من الأذكار والأوراد اللازمة وغيرها، وأن يأذن في ذلك لمن شاء كيف شاء، لكن مع الأهلية التي يجب مراعاتها، إذنا تاما، وإجازة عامة، سائلا من المولى أن ينفع به وعلى يديه، وأن يأخذ بيديه في جميع الأمور، في الورود والصدور، إنه رب ذلك، والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين. بتاريخ حادي عشر ذي الحجة الحرام عام 1329هـ، من إذن سيدنا المذكور أعلاه.

---

(357) يسبي : يفسر

(358) الثقلان : الأنس والجن

ومما سألني عنه هذا المقدم من فقه الطريقة التجانية، ماذا يفعل المسبوق في الوظيفة، هل يختم مع الجماعة بقراءة آخر سورة اليقطين ؟ ثم يشرع في إتمام وظيفته ؟ أو بمجرد ختمهم للجوهرة الثانية عشرة يشرع في الإتيان بما فاته قبل قراءتهم لآخر سورة اليقطين ؟ فأجبته بأن الذي جرى به العمل عندنا بالزاوية التجانية بفاس، وهو الذي يفعله الخاصة منهم، هو أنه بمجرد إكمالهم لجوهرة الكمال الثانية عشرة يشرع في قضاء ما فاته من وظيفته، ثم يختم لنفسه. ولا شك أن قراءة آخر السورة المذكورة إنما هو من شروط الكمال، وقضاء ما فاته من الإستغفار وغيره قبل الإفتتاح بالفاتحة هو من الأركان، والركن يقدم على غيره، لكونه أهم، فلذلك ينبغي قبل الشروع معهم أن يبتدئ لنفسه بالفاتحة، ثم يشرع معهم، حتى إذا فرغوا من الجوهرة الأخيرة يشرع في الإستغفار، فإذا وقع ونزل وابتدأ معهم من غير أن يقرأ الفاتحة قبل شروعه، ثم ختم الجوهرة الأخيرة معهم وشرع في قضاء ما فاته، وابتدأ بالفاتحة قبل أن يختموا بآخر سورة اليقطين أو بعد قراءته لها معهم فإنه يجزئه ذلك.

فلما قررت له هذا الجواب ذكر لي أنه سمع من الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح، رضي الله عنه، أن المسبوق يقرأ مع الجماعة آخر السورة المذكورة، ثم يقضي ما فاته، هكذا سمعه منه لما سأله بعض الإخوان عن هذا بمحضره، فأجبته بأن العمل الجاري بفاس هو ما ذكرته. ويخطر على بالي بأني سألت عن هذا سيدنا العارف بالله مولاي أحمد العبدلاوي رضي الله عنه فأجابني بما ذكرته. نعم ما سمعته من الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح، مستحسن من جهتين : الأولى أنه لا يتشوش المسبوق إذا ختم سورة اليقطين معهم حين شروعه في قضاء ما فاته بقراءتهم. ثانيهما : إدراكه للختم معهم، والختم بنفسه، وذلك فيه زيادة ثواب ذكر، ويعد من شروط كمال الوظيفة. وقد ذكرنا أنه يسوغ له الختم معهم، إلا أن الوقوف مع ما جرى به عمل أهل الزاوية فيما رأيناه يطلب من المريد المحافظة عليه(359)، لما عسى أن يكون هو الوارد عن الشيخ رضي الله عنه، والله الموفق.

وقبل وصولنا إلى هذه المحطة سألني ونحن بالطريق المقدم الجليل، سيدي إبراهيم الطويل عن مسألتين من فقه الطريقة، الأولى : هل يصح تقديم ورد الصباح بعد صلاة عشاء ليلته بساعة زمانية، وقبل صلاة الوتر ؟ فأجبته بأنه يصح الورد إذا قدم على الوتر، ولا يشترط في صحته أن يقرأ بعد صلاة الوتر، وإنما تشترط قراءته بعد صلاة العشاء بقدر ما يسكن فيه الناس بنحو مقدار

(359) المسألة أشار العلامة الأديب التجاني ابن بابا العلوي في منية المريد حيث قال :
ومن يفته بعضها ويأتي يفعل كما يفعل في الآتي

ساعة بعدها(360). الثانية : عمن صلى صلاة العصر فذا، وقرأ ورده، ثم حضرت جماعة فأعاد معهم صلاته لفضل الجماعة، فهل يعيد ورده أم لا ؟ فأجبته : إن نوى بالإعادة التفويض فينبغي له أن يعيد ورده، لأنه لا يدري أي الصلاتين كانت فريضة، فلم يتحقق وقوع الورد بعد صلاة العصر، وأما إذا نوى بها الصلاة المفروضة من دون تفويض فلا شك أن الورد وقع في غير محله، فلا بد من إعادته ليكون في وقته.

الوصول إلى بعض الأضرحة التي في الطريق

وفي الساعة 12 من يوم الإثنين ارتحلنا من هذه المحطة، ورافقنا للموادعة القائد الكداري نحو ساعة زمانية، ثم رجع مع بعض الأصحاب، وبقي في رفقتنا أولاده وجماعة من الأصحاب، والخيل تلعب أمام سيدنا محمود إلى أن وصلنا بعد ساعتين ونصف لضريح الولية الصالحة لالا يطو، وبها محل سكنى المريد التجاني المحب الصادق السيد العربي بن عبد العالي الثوري، من سكان هذه البقعة، وهو رجل مغرم بحب الشيخ رضي الله عنه، هو وأولاده وعياله، وقد كان قدم لزيارة سيدنا محمود، ونحن عند الكداري، وطلب من سيدنا محمود المبيت عنده، فلم يتيسر له ذلك لقرب محله من هذه المحطة. وقد أنشدنا من حفظه هذه الأبيات المشهورة عند غالب الإخوان، ونصها :

يا ربنا بجاه تاج العارفين	وجاه حامل لواء الواصلين
قدوتنا وشيخنا التجاني	قائدنا لمنهج العدناني
نسألك التوبة التوفيق	والعلم والعمل والتحقيق
والصبر والنصر على الأعداء	والجمع بالذكر على الولاء
والفوز بالنعيم والجنان	مع النبي وشيخنا التجاني
نسألك التوبة والغفران	والستر والنجاة والأمانا
واغفر لعبد مذنب دعاك	وتب عليه ماله سواكا
ولا تخيب يا إلهي مقصدي	وصل دائما على محمد

وقد ذكر لي أن الفقيه العلامة شيخنا الحاج محمد فتحا كنون(361)، كان أوصاه بالمحافظة على ذكر هذه الأبيات المذكورة سرا بعد قراءة كل ورد ووظيفة حين أنشدها بين يديه، أقول : لا بأس بذلك إذا كان سرا، وأما بعض الإخوان فيذكرونها جهرا بعد الوظيفة، ولا ينبغي ذلك لما فيه من الزيادة في الطريق. وفي الطريق ونحن مجدون في السير، تلاقى مع زوجته وبناته قادمين لزيارة سيدنا محمود من شدة الحب الحاصل لها في هذا الجناب، فردها إلى محلها، قريرة العين بالنظر إلى سيدنا محمود مع نساء حيها، لكون سيدنا محمود رضي الله عنه لا يحب أن تقابله النساء، ويغض الطرف إذا أقبلن عليه، ويعطيهن بالإدبار، فيزرنه من ورائه، كل ذلك منه محافظة على نفسه لتمسكه بالحبل المتين من الدين، ويحصل له القبض من ذلك، لأنه :

---

(360) المسألة أشار العلامة الأديب التجاني ابن بابا العلوي في منية المريد بقوله :

وورد الصبح إن تقدمه على مختاره بعد العشاء نقلا
بقدر ما يتلى من القـ ـ ـرآن خمسة أحزاب بلا توان

(361) سبقت ترجمته في ج 1 ص 26 من هذا المجموع.

يغضي حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

ثم واصلنا المسير حتى وصلنا لمشرع الرملة، بعدما تراءت لنا قبالتنا غابة بني حسن الممتدة من باب سلا إلى قبيلة كروان، وعرضها نحو ثلاث سوائع، ومن ورائها قبيلة زمور ومن جاورهم. وقد وصلنا لهذا المشرع قرب الساعة الخامسة، وكان مسيرنا على أرض منبسطة من أول ابتدائنا للمسير وقطعنا لوادي بهت، ولكنها قليلة الحرث، لكونها رملة تحتاج إلى تغبير، وعمارة وتدبير، إلا أن أرضها ناعمة بمرعى الأنعام، حتى وصلنا لوادي هذا المشرع، ويعرف بوادي تيفلت، وماؤه عذب، ومن ورائها الوادي المسمى بأسمنطو، افترق ضايات، وتلاقى مع الوادي المذكور قرب الولي الصالح سيدي عيسى بحر العلم المدفون بين الوادين هناك. وفي قرب الساعة الحادية عشرة من يوم الثلاثاء ارتحلنا من هذه المحطة، وقطعنا المشرع المذكور، ثم سرنا في أرض ذات انخفاض وصعود، وكلها رملة لم ينبت بها إلا العشب، وإذا انبسطت كانت مأوى الضايات، وقد مررنا والغابة عن يسارنا، وتراءى لنا عن بعد يسارنا بجنب الغابة ضريح الولي الصالح سيدي يشو، وبعده ضريح الولية الصالحة لال شحواطة، وعن يميننا كذلك ضريح الولي الصالح سيدي عياش، وضريح الولي الصالح سيدي العربي الصحراوي.

وقد مررنا بالطريق على دوار من أولاد بورحمة، فوجدنا جماعة من النساء قد اجتمعن يكفكفن، ثم يضربن وجوههن ويندبن، فسألنا عما يفعلن بعدما ظننا أن اجتماعهن لفرح، لقيامهن، وفي وسطهن من يغني لهن، فإذا هن اجتمعن لجنازة، والمنشدة في وسطهن تذكر محاسن الهالك، التي هي في الحقيقة مساوئ، وفي حالة ذكرها يكفكفن، فإذا أشارت لهن بعلامة يضربن وجوههن، وذلك من عوائدهن الخبيثة، فسرنا ونحن نسخط بفعلهن الذي أغراهن الشيطان عليه، وهن من حزبه.

المبيت بقصبة الوادي المعروف بالفوارات

ولا زلنا سائرين إلى أن انعطفنا عن يمين كدية رمل، فمررنا بجنب دوار القائد بوعزة، بالحسن، وهو دوار محتف بشجر الهندية، وأحاطت به حتى أنها ترى من بعد كأنها من الغابة، وبعده بنحو ربع ساعة سرنا في حجر الطين الموصل لقنطرة علي وعدي المشهورة، وهي الموضوعة على الوادي المعروف بالفوارات، وهو واد داخل في وادي سبو المتصل بها، وسرنا فوق طينها نحو نصف ساعة.

وقد وصلنا لقصبة هذه القنطرة، فوجدناها محكمة الوضع، يقرب منها وادي سبو، بعد أن اجتمعت فيه غالب أودية المغرب، وهو هنا في غاية الإتساع، وعلى حاشيته نزلنا وحططنا الرحال بين العشائين، بعد أن دخلنا لهذه القصبة، فوجدناها ساحة متسعة، قد اصطفت بها قبالة الباب خمس وعشرون بيتا، وعن اليسار كذلك، وعن اليمين بيوت، وفي وسطهن الجامع الموضوع هناك بصومعته، وفي صف الباب أيضا بيوت. وقد وجدناها منظفة مهيأة لنزول المحلة القادمة على طريق مهدية، وقد بتنا ليلتنا والأمطار هاطلة، والأرياح عاصفة، تجل عن الصفة، حتى أنها قد قلعت أوتاد قبة سيدنا محمود، وكادت أن تطير بها للجو لولا مساعدة الخدام والأصحاب، إلى الأخذ بكل سبب ممدود، حتى ضربت أوتادها ضربا محكما، أما قبابنا فلا تسأل عن اضطرابها بالأرياح، إلا أنها في تلك الحالة مثل اضطراب أرواحنا في الأشباح، جزعا من سقوط القبة على الحريم الشريف، ولكن الله سلم، والحمد لله على ذلك. وقد أصبح في وجهنا يوم الأربعاء، والجو عابس، وعاصف الرياح غير ناعس، فتهيأنا للرحيل، وقام لوداعنا المقدم البركة السيد إدريس التجيني بعدما كان رافقنا من محله، وما قصر في البرور كثر الله من أمثاله بفضله، وقد كتب له سيدنا محمود رضي الله عنه التقديم لإعطاء الطريقة.

نص الإجازة المذكورة

بعد البسملة والصلاة والسلام على النبي (ﷺ) : الحمد لله الذي أنعم على هذه الأمة المحمدية بأن جعلها خير الأمم، وأسبغ عليها في الظاهر والباطن من فضله ما لا يحصى من النعم، والصلاة والسلام على الواسطة فيها سيدنا محمد خاتم الأنبياء، وعلى آله وصحبه وخليفته خاتم الأولياء، أما بعد : فإن سيدنا ومولانا محمود بن سيدنا ومولانا محمد البشير بن سيدنا ومولانا محمد الحبيب بن سيدنا وسندنا القطب الرباني، سيدنا ومولانا أحمد التجاني، رضي الله عنه، قد أذن في تلقين الطريقة التجانية، ذات الفتوحات الربانية، للمقدم البركة السيد إدريس بن المقدم السيد محمد بن الجيلالي التجيني أصلا، التجاني طريقة، وأجازه في إعطائها لكل من طلبها منه، بالتزام شروطها المقررة، وأركانها المعتبرة، موصيا له بتقوى الله في السر والعلانية، وأن يأخذ بين إخوانه بالرفق واللين. والله أسأل أن ينفع به وعلى يديه آمين. وكتبه بتاريخ 13 ذي الحجة 1329هـ، عن إذن سيدنا المذكور اسمه أعلاه.

وفي قرب الساعة العاشرة من هذا اليوم ارتحلنا من هذه المحطة التي دوختنا بأرياحها القاصفة، وكادت أن تطير بقبابنا للجو بزفاتها المترادفة. وقد أنشدت في الطريق هذين البيتين في هذه الصدمة :

وقائلة ما بال ذا الريح قد غدا ... عصيفا إلى أن رام حمل قبابي
فقلت لها للجو شوق لحملها ... لما حل فيها من كريم جناب

وقد جاء عند ارتحالنا لزيارة سيدنا محمود القائد ابن الحسن من دواره المتقدم، وجاء معه بعض حاشيته، وعاد قرير العين بدعاء سيدنا محمود، وهو رجل من المحبين، ولكنه غير مقيد بحبل طريقتنا التجانية، فجزاه الله عن نفسه خيرا في محبته هذا الجناب الأحمدي، وجزى أمثاله من المحبين، وقد استودعنا أيضا القائد المعطي بن المدني السرغيني الحال مع العسكر المقيم بقصبة علي وعدي، بعد أن كان تلاقانا وكاد أن يطير فرحا بقدوم سيدنا محمود، وما قصر في الإكرام على قدر طاقته.

ثم إننا سرنا، والجو يبدي البشاشة بعد العبوس، ونحن بمرافقة سيدنا محمود طيبو النفوس، وأرواحنا ترتاح لقرب الإجتماع بأحبابنا بالرباط وسلا، الذين بهم كل غريب عن أوطانه سلا، فمررنا على أرض غير منبسطة في ارتفاع تارة، وانخفاض أخرى، وعلى طريقها آبار مياه للسقي، منها القريب العمق، ومنها العميق، وعن يسارنا في المسير قبل الوصول للغابة بئر تعرف ببئر الرامي، وبه كنا أردنا النزول قبل، إلا أنه لما كان أدركنا الليل، والجو يرشنا بمراشه، حططنا الرحال في المنزلة المتقدمة. وعن يسار هذا البئر على رأس الكدية ضريح الولي الصالح سيدي البخاري.

وقد مررنا على طرف الغابة التي أشرنا لها، وغالب أشجارها من حطب البلوط، وسرنا به نحو ثلث ساعة، وبعدها مررنا على بئرين توضأنا من مائهما وصلينا الظهر، وبعدهما أيضا بئران يقابلان حوش الولي الصالح سيدي الشامي. وقد وجدنا هناك بعض سكان تلك الجهة يسقون ويغسلون ثيابهم على صفحات حجر معدة لذلك، فاستعرنا من أحدهم الدلو لأخذ الماء للوضوء، فامتنع من نيل الحسنة التي تكتب للمعير، ولكن صدق فيه المثل (أبخل من مادر على غدير) ولعل هذا النحس من الطائفة التي تتطير بالآذان وبالصلاة، فإن في هذه القبيلة التي هي بني حسن دوارا يقال له : القساطلة، يتطيرون بذلك طيرة كبيرة، فلا ترى منهم من يصلي ولا من يؤذن، وهناك في هذه القبيلة من هو ناهج منهج المظلم.

ومن عجيب تطيرهم أنه إذا حصلت مشاجرة بينهم يقول بعضهم لبعض : إما أن تسكت وإلا صليت في محلك، يعتقدون أن المحل إذا وقعت الصلاة فيه خلا واجتاح أهله، على ما حدثونا بذلك عنهم، عفا الله عنا وعنهم.

ذكر الوصول للمحل المعروف بعامر ومن تعرض لنا من الأحباب

ولا زلنا مجدين في السير حتى وصلنا للمحل المعروف بعامر، فوجدنا الأحباب والإخوان قد خرجوا بقصد انتظار قدومنا، وضربوا قبابهم هناك عند جنان بئر الحنشة قبالة حوش الولي الصالح سيدي محمد بن الفاطمي، ويقال لذلك المحل أيضا : بودبزة. ولما أقبلنا عليهم سارعوا لملاقاتنا، وأقبلوا علينا بوجوه تغشاها الأنوار، وصدور صافية من الأغيار، بما حصل لهم من الفرح بقدوم هذا السيد الجليل، وتسارعوا لتقبيل يديه، للتبرك به وبما لديه، فكانت ملاقاتهم ترتاح بها الأرواح، وظفروا بما ظفروا به من القبول الذي تنشرح به الصدور أكمل انشراح، فحططنا الرحال هناك قرب الساعة الرابعة، بعدما طلبوا منا الإستراحة هناك، حتى لا يقع الدخول ليلا، وليعلموا بقية إخوانهم من أهل الرباط وسلا، فلا يفوتهم الفرح بالخروج للملاقاة، الذي كانوا ينتظرونه طول الأوقات، فبتنا معهم بذلك المحل الذي بينه وبين سلا نحو الساعتين أحسن مبيت.

وواسطة عقدهم في ذلك المحفل المنيف، الشاب العفيف، الفقيه الأمجد، الموقت بالجامع الكبير بسلا، المقدم الأسعد، سيدي محمد بن المقدم البركة سيدي المكي(362) الزواوي السلاوي أصلا، مع بعض منشدي الزاوية، وجماعة من فقهائها وتجارها من شيوخ وشبان، وأصحاب وأعوان، والكل يرفل في لباس القبول، ولم يقصروا في الفرح، بما يذهب عن كل محزون الترح، وباتوا في نشاط زائد ينشدون الأمداح النبوية، وأمداح الحضرة الأحمدية، فأنشدونا قصيدة الولي الصالح، سيدي العربي بن السائح، رضي الله عنه، في الإستغاثة بسيد الوجود (ﷺ) مطلعها :

يا رحمة للعالمين وخير من تجلى به عنا المصائب والكرب

وأنشدوا أيضا قصيدته التي قالها على لسان الزاوية المباركة :

لك البشرى فقد نلت الأماني وحفتك المسرة بالأمان(363)

وهذه القصيدة عند غالب إخواننا السلاويين محفوظة ينشدونها عن ظهر قلب، وكذلك القصيدة الغيلانية(364) في مدح سيدنا رضي الله عنه التي مطلعها :

إن ترم نيل الأماني فالزم القطب التجاني

---

(362) المقدم سيدي المكي بن أحمد بن المكي بن أحمد الزواوي السلاوي، من خاصة أهل الله المقربين، قدمه لتلقين أوراد الطريقة الأحمدية التجانية الولي الصالح العلامة سيدي محمد العربي بن السائح، وسبب ذلك أن فقراء مدينة سلا جاؤوا مرارا زائرين للولي المذكور، وقالوا له : اجعل لنا مقدما علينا، ولم يكن صاحب الترجمة معهم، فلم يساعدهم على ذلك، ثم عاودوه في الطلب مرارا أخرى، فلم يساعدهم، ثم أتوا عنده مرارا ثالثة، وكان معهم في هذه المرات صاحب الترجمة سيدي المكي الزواوي، فقدمه عليهم من كونه وقتئذ أغزرهم سنا، فصار بعضهم ينظر إلى بعد، فالتجأ إليهم الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح وقال لهم، وما فعلته عن أمري.

وكانت وفاته رحمه الله بمقر سكناه بمدينة سلا في صبيحة يوم السبت متم شعبان الأبرك عام 1326هـ، وذلك بعدما أخبر بموته قبل ذلك بقيام قلائل، انظر ترجمته في إتحاف أهل المراتب العرفانية للعلامة الحجوجي ج 7، وفي نخبة الإتحاف لنفس العلامة رقم الترجمة 326، وفي نيل المراد لنفس العلامة كذلك ج 1 ص 98.

(363) أنظر هذه القصيدا بتمامها في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 27، وفي الجزء الخاص بالقصائد من كتابنا خلاصة المساعي الفاسح بذكر بعض مناقب مولانا العربي بن السائح.

(364) نسبة للفقيه العلامة الأديب الفاضل سيدي محمد غيلان الوزاني

ومنها :

لم ينل قط ولي ما حوى القطب التجاني(365)

وقد كنت خللت هذه القصيدة بما صارت به وافية، على نوع من التشريع، وضرب غريب من التضمين المعروف عند علماء البديع، فقلت في المطلع :

إن ترم نيل الأماني أبدا فالزم القطب التجاني أحمدا

حتى قلت في البيت المذكور بعده :

ما حوى قط ولي في انتها ما حوى القطب التجاني في ابتدا(366)

ذكر الدخول لسلا وما جرى أثناء ذلك

ثم إننا بتنا في هذه الليلة الزاهية الزاهرة، في نعمة باطنة وظاهرة، إلى أن أصبح في وجهنا يوم الخميس، وقد أقبل الإخوان والأحباب من أهل سلا ورباط الفتح مقبلين على الطريق لملاقاة سيدنا محمود كالخميس(367)، حيث انتشروا على البسيطة رجالا وركبانا، فركبنا، وارتحلنا من هذه المحطة في الساعة الحادية عشرة، وسرنا والأعين شاخصة إلى التمتع بالنظر في طلعة سيدنا محمود، والتشرف بتقبيل يده الشريفة، ونيل دعائه الصالح الذي ينالون به غاية المقصود. وقد تراءت لنا أمامنا عن بعد صومعة جامع حسان بشالة القديمة، من بناءات المنصور خارج الرباط، فرأيناها قبل أن يتطلع علينا شيء من البناءات السلاوية والرباطية، ولازلنا نسير مع الأحباب في احتفال كبير، إلى أن رأينا بناءات سلا عن اليمين، وبجانبها عن اليسار رباط الفتح.

وصولنا للمحل المعروف بالأقواس وهو ثلاثة أقواس مصطفة

ولما وصلنا للمحل المعروف بالأقواس، وهو ثلاثة أقواس، وجدنا الأحباب والإخوان ينتظرون قدومنا، وهم فرحون مستبشرون، وقد تسابقوا إلى تقبيل ركاب سيدنا محمود وازدحموا عليه، وكادوا أن يحملوه مظهرين للسرور لقدومه ما يشكرون عليه عند الله والرسول، لاعتنائهم بسيدنا رضي الله عنه بفرحهم بسبطه، فأكرم بهم من أناس، جعلوا موطئ قدم هذه البضعة

(365) انظر هRه القTيدا بتمامhا في كشف الحجاب للعلامة سكيرج ص 29.

(366) انظر هRه القTيدا بتمامhا في النتحاK الربانية في الأمداΘ التجانية للعلامة سكيرج ص 46-47.

(367) الخميس : الجيt

المحمودة منهم فوق الرأس، ثم أقبلوا علينا، وأدوا ما يدخل به السرور علينا، من كمال المبرة، وحسن الشكر على هذه الرحلة الميمونة.

فممن تلقانا من أهل الرباط العلامة الفاضل سيدي الحاج أحمد بن قاسم جسوس(368)، والعلامة الفاضل سيدي الحاج عبد الله التادلي(369)، والبركة الفاضل سيدي الحاج محمد الأمين

---

(368) أبو العباس أحمد بن قاسم جسوس الرباطي، فقيه، أديب، محدث، من أعلام الطريقة الأحمدية التجانية بالرباط، أخذ العلم عن مجموعة من الشيوخ الأفاضل في مقدمتهم : العلامة الولي الحاج سيدي محمد العربي بن الساسح، وشيخ الجماعة العلامة أبو إسحاق إبراهيم التادلي، والفقيه أبو حفص الحاج عمر عاشور، وأخذ بمدينة فاس عن العلامة سيدي أحمد بناني كلا، والعلامة سيدي محمد بن المدني كنون، وسيدي محمد بن عبد الواحد بن سودا، وسيدي محمد فتحا بن قاسم القادري، وغيرهم من الأعلام الآخرين.
ومن مؤلفاته : تعليق على موطأ مالك، والأغراض بمسائل الاستبراك، وجواهر الخمائل من دوحة الشمائل، وجلاء الغين عن قرا العين، وهي حاشية على شرح الحطاب لورقات إمام الحرمين، وعقرب تحت طوبه، وهو تقييد في مسألة فرضية، ومنسك، وفهرسة جمع فيها تراجم من لقيهم في سفره للمشرق، وغير ذلك من الرسائل والتقاييد والأدبيات.
وكان العلامة الولي الحاج سيدي محمد العربي بن الساسح يسميه بعروس العلماء، وكان منذ دخل عليه قال له : مرحبا بعروس العلماء، ويمسح له، وكان يوم جعل ينظر ويمعن فيه كثيرا، والعلامة أحمد جسوس مطرق برأسه إلى الأرض، وأخيرا رفع إليه رأسه، فقال له الولي المذكور : السلطان لا تغتر إن بالنظر، وحتى بيضنا لا يقتس إن بالنظر إليه، وإنما أريد أن أهبك بالنظر. وله رحمه الله ديوان مليء بالقصائد النبوية الشريفة منها قوله في مطلع إحداها :

لطيبة فاركب ناقة الشوق أو طرفا وغض عن الأحباب كظما الطرفا

وله في نفس الموضوع قصيدا طائية بديعة قال في مطلعها :

خليلي هذا البين في الخد قد خط خطوط دموع تشبه الخد والشرط
جفاني به نومي وعيل تصبري وساورني هم كما الحية الرقطا

وكانت وفاته رحمه الله في 13 من القعدة الحرام عام 1331هـ، عن 61 سنة، ودفن بالزاوية الناصرية بالرباط، أنظر ترجمته في كتابنا خلاصة المسك التاسح بذكر بعض مناقب سيدي محمد العربي بن الساسح، وفي فتح الملك العلام للفقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 149، وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية لنفس المقام ج 7، وفي أعلام التذكر المعاصر لعبد الله الجراري ج 2 ص 39، وفي الاغتباط لبوجندار ص 62، وفي الاعلام بمن حل مراكش لابن إبراهيم ج 2 ص 281-289، وفي الأعلام للزركلي ج 1 ص 199.

(369) الولي الصالح المقدم البركة العلامة سيدي عبد الله بن محمد التادلي الرباطي، فقيه، أديب، صوفي جليل، أحد تلامذة العارف بربه سيدي محمد العربي بن الساسح، وهو الذي أجازه في تلقين أوراد الطريقة الأحمدية التجانية لمن طلبها منه، وله في مقدمه الولي الصالح المذكور أشعار رقيقة، ومن مؤلفاته : أرجوزة في علم البديع نظم فيها أنواع المحسنات التي استقرأها من كتاب الدين وأوصلها إلى مائة ونيف وخمسين، يقول في مطلعها :

علم البديع حررت أقسامه ونشرت بين الورى أعلامه
أوصلها الحلى من كتاب الدين لعدد في الرمز الذي تمكين

وكان مولده بمدينة الرباط في 12 ربيع الثاني عام 1266هـ، أما وفاته فكانت بتاريخ 10 جمادى الثانية عام 1336هـ، عن 70 سنة، ودفن بضريح سيدي أبي الأنوار بمدينة الرباط، أنظر ترجمته في كتابنا خلاصة المسك التاسح بذكر بعض مناقب سيدي محمد العربي بن الساسح، وفي الاغتباط لبوجندار ص 390، وفي أعلام التذكر المعاصر لعبد الله الجراري ج 2 ص 324-326.

بن يحيى بلامينو(370)، وجماعة آخرون لا يحصون كثرة. أما أهل سلا فقد خرج كل من بلغه قدومنا لملاقاتنا، ولم يتأخر عن الخروج إلا من لم يبلغه الخبر. ثم دخلنا لسلا، وفيها قلبنا عن جميع المهمات سلا، وكأننا دخلنا لجنات النعيم، وبعد الإقامة بها أياما تعد من مواسم الخيرات، قطعنا الوادي لرباط الفتح، وفيه انشرح صدرنا بما نلناه من كمال النجاح. وشغلتنا ملاقاة الأحباب، عن إخراج مبيضة ما نكتبه من هذه الرحلة في الكتاب، إلى أن طرأ ما أوجب علي الرجوع لفاس(371)، فاستودعت سيدنا محمودا رضي الله عنه بالجسم، وتركت القلب عنده.

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان

وقد تركت جل ما بيضته من تراجم السادة الذين اجتمعنا بهم بسلا والرباط بيد الرفيق، والله الهادي إلى سواء الطريق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(370) الولي الصالح البركة، المقدم الجليل، أديب الزمان، سيدي محمد بن يحيى بلامينو الرباطي، وهو أقرب الرفاق للعلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن الساحل، وكانت تربطهما صداقة متينة، وعهود موالية أمينة، بحيث كانا لا يتفارقان إلا نادرا قليلا، فيقضيان الوقت في الذكر والمذاكرة الجادة نهارا وليلا، وشكلت وفاة الولي المذكور ثلما كبيرا بالنسبة إليه، ورثاه نظرا لعوامل متعددة، منها أنه أستاذه وسنده ومربيه.

ومما يدل على اتساع عارضة هذا الرجل الصالح ما تطايرت به الأخبار عنه من استقامة ونزاهة وعدل، ومروءة وجلالة وفضل، مع ما عرف به من الفتح الخارق، ومن شعره في هذا الصدد قوله :

نشرت هوى المحبوب بين يماني ـ ـ ـ ا وقد كان في ظل الضلوع شامي ـ ـ ـ ا
وما بحت بالسر الذي سكن الحشا نصيحة نلت من رضاه الأماني ـ ـ ـ ا
فجاد بمكتوم الكنوز لعبـ ـ ـ ـ ـ ده وزاده تقريبا له وتـ ـ دانـ ـ يـ ـ ـ ـ ـ ا
فحزت من السر المصون كنوزه ونلت من الفتح المبين المعالي ـ ـ ـ ا
فقل لملوك الأرض تجند جندها ـ ـ ـ فتنزع ملكا في الصدور سماوي ـ ـ ـ ا

وله في مدح أستاذه الولي الصالح سيدي محمد العربي بن الساحل عدا قصائد منها حائية قال في مطلعها :

جبت بلاد الشرق والغرب على مثال الإمام العربي بن الساحل
نجم الزمان القطب العلا أستاذنا مدد كل جامد وصـ ـ ـ ـ ـادي

وله في رثائه قصيدا قال في مطلعها :

سكب الدموع على الأطلال أضناكا أو حر نار الأسى والبين أفناكا

وكانت وفاته رحمه الله في 4 جمادى الأولى عام 1333هـ، ودفن بمسجد سيدي محمد الضاوي بالرباط، أنظر ترجمته في كتابنا خلاصة المساعي الفاخرة بذكر بعض مناقب سيدي محمد العربي بن الساحل، وفي أعلام الفكر المعاصر للجراري ج 2 ص 231-233، وقد خصه العلامة سكيرج بتأليف سماه : الدر الثمين من فوائد الأديب بلامينو الأمين.

(371) لمعرفة الأسباب الدافعة للعلامة سكيرج على الانسحاب من إتمام هذه الرحلة، انظر ج 1 ص 131 من هذا المجموع.

تقريظ العلامة السيد محمد بن المدني الحسني(372)
لكتاب غاية المقصود بالرحلة مع سيدي محمود

أعجب لهذا الدفتر ... وما حوى من خبر
أفادنا من همة ... دون علاها المشتري
كأنه نجم سنا ... أضاء في ذي الأعصر
وكيف لا وهو جمع ... العالم المعتبر
أعيذه من كل سو ... بالبارئ المصور
ضمنها رحلة من ... بالمجد والفضل حري
سيدنا محمود بدر ... التم بادي المفخر
من معشر قد شرفوا ... أكرم بهم من معشر
أدامه رب العلا ... وزاده في العمر
كتبه مرتجيا ... قبول هذا الحصر
محمد المدني من ... يدعى الحسني النجر
فلتنظرن عين الرضى ... منكم لهذي الفقر
ولتسألوا خير الدعا ... له من ماد الأبحر
نجل رسول الله ذي ... الأصل السني الجوهر
صلى عليه الله ما ... أضاء نجم القمر

في 26 ذي حجة الحرام عام 1329هـ.

---

(372) العلامة الأديب المقدم التاضل البركة سيدي محمد بن الحسني العلمي الرباطي، من خيرا علماً الطريقة الأحمدية التجانية بمدينة الرباط، ولد بالمدينة المذكورا في 9 رمضان عام 1266 هـ، وبها أخذ العلم والمعرفة، وتمسك بالطريقة التجانية عن الولي الصالح العلامة سيدي محمد العربي بن الساحل، ثم أجازه فيها جماعة من الأفاضل منهم سيدي الغالي بن موسى بن معوض السلماني الحسني، وخطيب الحرم المدني الشريف المقدم البركة العلامة سيدي إبراهيم بالي.
وكان له ولوع كبير بمطالعة الكتب والمذاكرا فيها، وخطوطا كتب الحديث والتصوف، وكان إذا تكلم يود سامعه أن لا يسكت، وفي حقه قال العلامة العارف بالله سيدي محمد العربي بن الساحل يوما لجماعة من الحاضرين : من أراد أن ينظر إلى شريف محقق نسبه فلينظر إلى هذا، ومن أراد أن ينظر إلى أحد وجوه الجنة فلينظر إليه.
وكانت وفاته رحمه الله في الساعة 11 من ليلة الأربعاء 28 رجب الفرد الحرام عام 1341 هـ، ودفن بالعلو بضريح سيدي المريني المقابل لضريح الولي الصالح سيدي محمد العربي بن الساحل، وجعل على قبره قبة جليلة، أنظر ترجمته في فتح المالك العلام للفقيه الحجوجي بتحقيقنا عليه رقم الترجمة 147، وفي إتحاف أهل المراتب العرفانية لنفس المؤلف ج 7، وفي كتابنا خلاصة المسك الفائح بذكر بعض مناقب سيدي محمد العربي بن الساحل.

فهرسة كتاب : غاية المقصود بالرحلة مع سيدي محمود

مقدمة الكتاب.....
ذكر تاريخ قدوم سيدنا محمود لفاس .....
ذكر قصيدتين في الترحيب بسيدنا محمود .....
قصيدة الأديب السيد الحسن بنونة في تهنئة سيدنا محمود بالقدوم.....
تزوج سيدنا محمود بأخت رفيقه الحاج محمد دادي.....
نص الكتاب الذي وجهه سيدنا محمد البشير للفقراء التجانيين بفاس.....
قصيدة للمؤلف رحمه الله يرثي بها سيدنا البشير .....
ذكر قصيدة أخرى في مدحه للمؤلف أيضا .....
ذكر قصيدة في مدح سيدنا محمود مع والده وجده للمؤلف أيضا.....
أمر سيدنا محمود لنا بالرحيل معه للجولان في نواحي القطر المغربي.....
إجازة سيدي محمود للمؤلف .....
إجازة سيدي محمد البشير لولده سيدي محمود .....
الخروج من فاس والتوجه لمكناس وما جرى أثناء الإستعداد لذلك.....
المبيت بوادي النجاة .....
الوصول لمكناس.....
ذكر بعض ما يتعلق بمدينة مكناس.....
ذكر بعض من تلقانا بمكناس وكيف كان التلقي.....
اجتماعنا بنقيب العلويين مولاي عبد الرحمان بن زيدان .....
ذكر استدعاء النقيب مولاي عبد الرحمان بن زيدان لنا .....
احتفال عامل مكناس بنا وغيره من الإخوان .....
ذكر زيارة الزاوية التجانية بمكناس وذكر ما هو مكتوب على جدرانها .....
ذكر ترجمة بعض من اجتمعنا بهم في مكناس، منهم مولاي الكبير بن زيدان.....
ترجمة الفقيه سيدي محمد الغالي السنتيسي.....
ترجمة الفقيه سيدي محمد العرائشي.....
ترجمة الشريف سيد عبد القادر العرائشي .....
ترجمة الفقيه سيدي محمد السوسي .....
ترجمة مولاي الطيب العلوي .....
ترجمة مولاي عبد الله العلوي .....
ذكر بعض ما هو مكتوب على أبواب مدينة مكناس.....
ترجمة الفقيه سيدي محمد بصري.....
ذكر تخميس قصيدة السيد إبراهيم الرياحي التونسي .....
ترجمة الشريف سيدي محمد الشبيهي .....
ترجمة سيدي محمد بن حبيبي بصري .....
السفر من مكناس إلى زرهون .....
ذكر وصف بلدة زرهون وذكر بعض عوائد أهلها.....
ذكر الذهاب لرؤية قصر فرعون وغيره من الأمكنة التي بزرهون.....
بحث في مسألة ذكاة أهل الكتاب.....
ذكر خروجنا للموضع المسمى بعين خيبر وعين شانش
ذكر الذهاب لقصبة الشرفاء البلغثيين هناك .....

زيارتنا للضريح الإدريسي وذكر ما هو منقوش على جدرانه.....
زيارتنا للزاوية التجانية التي بزرهون وذكر ما هو مكتوب على جدرانها.....
بحث قيم فيما أشار إليه البوصيري في بردته .....
بحث نفيس في مسألة رفع عيسى عليه السلام وغيرها من المذكرات القيمة.....
ذكر بعض من تلاقينا معهم بزرهون فمنهم المقدم سيدي محمد بن العربي العلوي.....
ترجمة سيدي الطيب بن علال بن العربي برادة.....
ترجمة العلامة سيدي محمد بن أحمد العلوي ومعها مباحثات قيمة
في مسألة ألفة الضب للنبي (ﷺ) وهل يؤكل أم لا ؟ .....
ترجمة مؤذن الضريح الإدريسي.....
ذكر أرجوزة في أقسام الخنثى وأحكامها
ترجمة سيدي محمد بن الوافي بن عمر الزعيمي.....
ترجمة مولاي عبد الرحمان العلوي .....
ترجمة مولاي العربي بن هاشم العلوي .....
ترجمة سيدي محمد بن المامون العلوي.....
الخروج من زرهون والتوجه إلى الشراردة.....
النزول بالدوار المعروف بتجينة .....
الخروج لرؤية المرجة التي في دوار تجينة .....
الوصول للمحل المعروف بالدهس.....
الوصول إلى بعض الأضرحة التي في الطريق .....
المبيت بقصبة الوادي المعروف بالفوارات.....
ذكر الوصول للمحل المعروف بعامر وذكر من تعرض لنا من الأحباب
ذكر الدخول لسلا وما جرى أثناء ذلك .....

خاتمة الكتاب.....
تقريظ العلامة السيد محمد بن المدني الحسني لكتاب :
غاية المقصود بالرحلة مع سيدي محمود .....

فهرسة الكتاب .....